

مِنْ شَيْءِ الْعَرَبِ

تأليف

فهد المارك

مِنْ شِيمِ الْعَرَبِ

فَهْدُ الْمَارِكِ

الجزء الأول

مَنْشُورَات

المكتبة الدولية
الرياض

مؤسسة الخافقين ومكتباتها
دمشق

نبذه عن حياة المؤلف

- أولاً - من أهالي المملكة العربية السعودية .
- ثانياً - حمل السلاح في سبيل الله تعالى متطوعاً مع المجاهدين العرب الذين جؤوا بدافع من عقيدتهم الإسلامية للمشاركة في الدفاع عن عروبة فلسطين والجهاد ضد الصهاينة في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ م .
- ثالثاً - ترأس الفوج العربي السعودي ضمن جيش الإنقاذ العربي في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ م .
- رابعاً - شارك مشاركة فعالة في معارك المالكية .
- خامساً - نال أوسمة الشرف في حربه ومعاركه عام ١٩٤٨ م .
- سادساً - ساهم بشكل مباشر في تأسيس «جمعية رعاية أسرى مجاهدي وشهداء فلسطين» في المملكة العربية السعودية .
- سابعاً - ساهم في جميع التبرعات والشعبية والرسمية في العالم العربي، لدعم الثورة الفلسطينية .
- ثامناً - قلم بتأليف كتب عدة عن القضية الفلسطينية ونضال شعب فلسطين الأبي، ونشر العديد من الحلقات في الصحف العربية، ناهيك عن الكتب الأدبية والتاريخية والاجتماعية التي عرف منها وتم طبعها :
- ١ - كتب : من شيم العرب أربعة أجزاء .
 - ٢ - كتب : من شيم الملك عبد العزيز آل سعود (طيب الله ثراه) ثلاثة أجزاء .
 - ٣ - كتب : هكذا يكون الإصلاح .
 - ٤ - كتب : هكذا نصلح أوضاعنا الاجتماعية .
 - ٥ - كتب : التطور الفكري في جزيرة العرب في القرن العشرين .
 - ٦ - كتب : كيف نتصر على إسرائيل .
 - ٧ - كتب : كيف هزمنا .
 - ٨ - كتب : الهدامون والبنؤون .
 - ٩ - كتب : لن نهزم إسرائيل عسكرياً قبل أن نهزمها إعلامياً في أمريكا .

تحت الطبع

- ١ - كتب : جهاد الملك فيصل وجانب من عظمته .
 - ٢ - كتب : تاريخ جيل وحياة رجل «محمد العوني» .
 - ٣ - كتب : من الطفولة إلى الكهولة .
- تاسعاً - انتقل إلى رحمته تعالى يوم ٢٠ / جمادى الأولى / ١٣٩٨ ب . هـ . ن الموافق ل ٢٧ / أيار / ١٩٧٨ م .

الناشر

محمد مفيد بن عزة الخيمي

الإهداء ..

الى العربي الذي يشعر ان لا كرامة له ما دامت اسرائيل الظالمة
مستقرة في وطننا العربي ، غاصبة لأرضنا غير مبالية بنقمتنا .
.. الى العربي الذي يدرك أن اسرائيل لم يكتب لها الاستقرار إلا
على نهر من دماء شهدائنا .

.. الى العربي الذي يحس ويقلق حينما يعلم انه لم يتم لأسرائيل مجد
الا بهدم مجد أمتة العربية ، ولا تحيا إلا بقتل شممنا وعزتنا .
.. الى العربي الذي يعي أن عصاة اسرائيل الملفقة من مشردي العالم
لم يقيم لها كيان لو لم نفترق ..

الى العربي الذي يعقل ان اسرائيل الباغية سوف لا تعيش في أرضنا
يوماً من الدهر عندما ننسى أحقادنا، وتتنازل عن أنانيتنا في سبيل وحدتنا
العربية الشاملة

الى كل عربي يقدر هذه المعاني ، ويضحي بكل ما لديه من طاقة في
سبيل توحيد أمتة العربية

أقدم هذه الشيم العربية الخالدة .

المؤلف

مُقَدِّمَةُ الطَّبْعَةِ الثَّانِيَةِ

كان إقبال القراء على الجزء الاول من (شيم العرب) ونفاذه بسرعه مذهلة ، ومطالبة الكثير من المواطنين بإبراز الجزء الثاني الى حين الوجود حافظا مجدوني لا الى تلبية رغبة المواطنين فحسب ، بل والى تفاؤلي خيراً بأن هذا الجيل العربي الناشئ كان ولم يزل يؤمن بقيم اسلافه الأشاوس وكان الأجدر بي أن ألبى طلبات الراغبين بل الملحين بإعادة الجزء الاول وانجاز الجزء الثاني ، لو لا وجود بعض الاسباب التي حالت دون الاستجابة الى ما يطالبنا به المواطنون .

ولا يسعني أن أشرح جميع الاسباب التي منها ما هو مادي ومنها ما هو معنوي ، وانما اكتفي بالإشارة الى بعض منها فأقول : لما كان الاستقرار عاملاً رئيسياً لا في الانتاج الفكري فحسب بل في كل معنى من المعاني بصورة أشمل واعم . فإن عملي كموظف في السلك السياسي تارة في دمشق ، وأحياناً في جدة ، وبرهة في صنعاء ، وطورا في ليبيا ، وحاليا في تركيا ، كل هذه الرحلات التي لم يكتب لي الاستقرار في بعضها أكثر من شهر واحد كصنعاء مثلاً ، كانت من ضمن العوامل التي اضطررتني الى عدم الاستجابة الى موافاة القراء برغبتهم الصادقة . وجوابي على من يقول : ولماذا لا تستنجد ببروءة احد الاصدقاء من الادباء ليتولى الاشراف على إعادة طبع الجزء الاول والقيام بطبع الجزء الثاني البكر ?? جوابي على ذلك يتلخص فيما يلي :

اولاً - أنه بالامكان أن أجد أدبياً ملماً بالادب العربي لكي يتولى الاشراف على طبع وتصحيح أي كتاب من الكتب العربية ما عدا الكتاب الذي من نوع كتابنا هذا (من شيم العرب) .

ذلك ان كتاباً كهذا لا يكفي ان يتولى الاشراف على طبعه أديب ملم بقواعد اللغة العربية فقط ، وانما ينبغي ان يكون هذا الأديب ملماً كل الملأ بالادب الشعبي في الجزيرة العربية ، وعالماً بأوزان الشعر العامي (النبط) خبيراً بقوافيه بصيراً بألفاظه ، متذوقاً لمعانيه ، والأديب الذي يجمع بين العلم بالادب العربي بلغته

العربية الفصحى ، وبين الفهم لادبنا الشعبي بشتى الفاظه ومختلف اوزانه وقوافيه
ليس من السهل الحصول عليه .

وقد أجد في شبه الجزيرة من يجمع بين هذا وذاك ، ولكنني لم أجد في البلاد
التي اود أن أطبع مؤلفي فيها من تتوفر فيه هاتان الصفتان ، بحكم أن الطبع في
الجزيرة قد يكلف الضعفين عن تكاليفه في بلد كدمشق أو كلبنان ، يضاف الى ذلك
ان وسائل التوزيع والنشر قد تكرر متيسرة ومهيأة في هذين البلدين وخاصة في
الاخير منها أكثر من أي بلد عربي

وفي الحين الذي كنت في حيرة من أمري بصدد طبع هذا الكتاب هناك تبادل
لذهني الأستاذ حمد الجاسر المقيم في بيروت ، فقلت انه من أقدر من يوكل اليه القيام
بمثل هذا العمل ، وكانت صدقة مباركة عندما اجتمعت به في بيروت ، وأوضحت
له ما في نفسي ، وقبل ان انتهي من حديثي قاطعني قائلاً : هات كل ما عندك من
مؤلفات خطية ، ولا يكن لك هم في أمرها وعندما وجدت لدى الأستاذ هذه
المروءة ازدادت طمعا فقلت ان لدي كتاب مخطوطا جاهزا بعنوان (تاريخ
جيل في حياة رجل) وهذا وان كان يعبر عن تاريخ جيل من شتى النواحي الاجتماعية
والسياسية والادبية فهو في الوقت ذاته طافع بالعبارات الادبية باللغة الشعبية ،
الامر الذي يجعل صعوبة الاشراف على طبعه على المرء الغريب عن معرفة الادب
الشعبي في شبه الجزيرة اعظم من صعوبة الاشراف على طبع كلا الجزئين من شيم
العرب ، فكان جواب الأستاذ حمد تأكيداً لعبارة الأولى (هات كل ما عندك
ولا يكن لك هم في أمرها) (١) قلت لقد انفرجت وللأستاذ حمد مني عظيم الشكر
اذ لو لا مروءته لظلت مؤلفاتي في اضراباتها الى أن تتاح لي الفرصة التي استقر بها
وتلك ظاهرة قد لا تتاح لي بسهولة مادامت موظفاتي السلك السياسي الذي لا يستقر
موظفوه في مكان ما .

(١) طلب الأستاذ حمد مني بأن لا اذكر اسمه هنا - بل ألح علي بشدة . معتبراً ان ما قام به
ليس الا خدمة للادب ولما كنت كمؤرخ يكتب عن « شيم العرب » ، فقد وجدت قيام الأستاذ
حمد الجاسر بهذا العمل جزء « من شيم العرب » التي ارى أن امانة التاريخ والنقل يفرضان علي ان
اسجلها كشيم من ذاتها - سواء أرضي أهلها عن نشرها ام لم يرضوا .

والذي أسترعى انتباه القاريء اليه وارجوه المعذرة فيما اذا وجد في الجزء الثاني اسلوبا لم يتطور عن اسلوب الجزء الاول ، وذلك انني كتبت كلا الجزئين في وقت واحد ، والحقيقة انني عندما أعدت النظر في مراجعة الجزء الثاني وجدت فيه من العبارات التي حذفت بعضا منها ، بل وددت ان لدي من الوقت الكافي ما يمكنني بأن انقض الكثير مما كتبتة وابدأ بكتابته من جديد ، ولكنني وجدت ذلك يكلفني غناء كثيرا ، ووقتنا طويلا ، ولا عجب في ذلك ، فالانسان يتطور في افكاره وفي سلوكه ، وفي اسلوبه وفي ميوله ، وقد يتجه المرء منا اتجاها يرضى عنه اليوم ويطمئن اليه ، ولكنه في الغد القريب او البعيد ينفر من ذلك الاتجاه ويمتته بقدر ما كان راضيا عنه ، وهكذا الكاتب والشاعر معا ، قد يدبج الاول ببراعة عبارات تحمل معاني فكرية او سياسية يكون وقتها مؤمنا بها ، بل ولديه استعداد ان يناضل في سبيلها الى آخر نقطة من دمه ، ولكننا نجد هذا الكاتب نفسه بعد فترة قد تكون طويلة او قصيرة قد غير تلك العبارات ، وبديل ذلك الاسلوب ، بصورة معاكسة لما كان عليه بالامس ، وما يقال عن الكتاب حري به ان يقال عن الشاعر ، وعن كل انسان في هذه الحياة ، واذا اردت دليلا واقعيا محسوسا على ما نشير اليه فانظر مثلا الى صورة شمسية اخذت لك وانت في المهد ، ثم انظر الى صورة اخرى اخذت لك وانت في سن الطفولة ، ثم اعد النظرة الثالثة الى الصورة التي اخذت لك وانت في شرح الشباب وعنفوان الفتوة ، ثم بعد ذلك قارن بين هذه الصورة وبين صورتك التي اخذت في سن الشيخوخة ، عندئذ يظهر لك مدى التطور السافر بين هذه الصورة بشكل يخيل إليك أن صاحب هذه الصورة الاولى لم يكن هو صاحب الصورة التي تليها مباشرة ، واذا كان هذا التطور موضعيا ولا يقبل الجدل في الجسم الذي هو أقل شأنًا من الفكر ، فما بالك اذن بتطور المدارك والافكار التي هي اقدس مكانة في عالم الخلود من الجسم الفاني اما اذا كان هناك من لم تتطور افكاره ، ولم تتبلور مداركه ، فإنسان كهذا اشبه ما يكون بالمخلوق الجديد ، الذي ولد مشلولًا ، وظل الشلل ملازما له في مهده وفي طفولته وفي شبابه ، وحتى كهولته وهرمه . وعلى هذا الاعتبار تكون

الصورة الشمسية التي اخذت له وهو في مهده لم يطرأ عليها أي غو أو تغيير عن الصورة التي اخذت له وهو في شرح شبابه .

وبعد . . فاني اذ اقدم الطبعة الثانية للجزء الاول (من شيم العرب) فانما اقدم قيا أخلاقية كان اسلافنا يقومون بها كنظام اجتماعي أملة عليهم اخلاقهم الاصلية واطأنت الى الاخذ به وتطبيقه نفوسهم الطاهرة .

فالوفاء جزء من طباعهم ، والعفو عند المقدرة خلق أصيل في اعماقهم والامانة سجية راسخة الجذور في نفوسهم .

فإلى أوائلك الذين أمت أبصارهم مظاهر الحضارة الغربية ، وأصمت قلوبهم هذه الزخارف عن كل ما هو طيب وجميل من تراث قومهم ، حتى بلغوا من العقوق لأمتهم والكفر بمجد أسلافهم حدا جعل أحدهم ينظر لكل فضيلة قام بها اهله وذووه بعين السخرية والازدراء وهو في الوقت نفسه ينظر بل يتبجح ويعتز بأي عمل قام به المستعمرون . . . إلى هذه الفئة الجاهلة بتاريخ أسلافها والمخدوعة بتاريخ الأجنبي أوجه كلمتي هذه إيمانا مني بأن النفر الذين من هذا النمط سيكونون شراً بلية وأعظم ضررا علينا من المستعمر الغاصب فهؤلاء الابناء العاقون هم الذين حذر عنهم الشاعر العربي بقوله :

وإذا تنكر للبلاد رجالها صاروا أضراً لها من الأعداء

وكم يبلغ الاسى والقلق بالمواطن العربي القيور الواعي عندما يدرك ان المستعمر الغازي حينما شعر أن استعمار الاقتصادى تقلص واضمحل ، وذهب الى غير رجعة في شتى بقاع العالم بفضل غو الوعي القومي عند مختلف الشعوب ، عند ذلك تبدل استعمار الاقتصادى باستعمار أشد ضررا من سلفه ألا وهو الاستعمار الفكرى .

فهؤلاء الذين يمللون ويسبحون بحمد وإجلال الحضارة الغربية ، والمعادات والتقاليد الأجنبية ، ويتنكرون لقيم أسلافهم هؤلاء مستعمرون فكريا وروحيا وعقائديا ، من حيث يشعرون او لا يشعرون ، وان المرء ليعجب بل يسخر كل السخرية عندما تتاح له الفرصة في مناقشة بعض المستعمرين (بفتح الميم) فكريا

فهؤلاء يرون أن ما يسمى عندنا احسانا او كرما او شجاعة او وطنية هو بمنطق فلسفتهم الاستعمارية يسمى أنانية وما يسمى بخلا او جبا او خيانة هو ايضا انانية ، وعندما يؤمن المواطن بهذه النظرية الجوفاء عندئذ ينبغي له ان يزيل من قاموس جميع اللغات الانسانية ما يسمى أمانة او فضيلة ، أجل ينبغي ان ينزع هذا المعرف الذي اجمع على اعتباره وتقديسه جميع الأمم والملل على مختلف ميولها واتجاهاتها السياسية والفكرية .

ويتحتم علينا ايضا ان نلقي قانون العقوبات المدنية والعسكرية من جميع الانظمة الدولية : فالسياسي مثلا إذا خان أمانة عمله ، وأذاع الأسرار المؤتمن عليها من قبل حكومة وطنه لحكومة معادية لحكومته ، فمعناه انه فعل ذلك بحافز من أنانيته التي دفعته الى حب المال المغري المدفوع له ، مقابل قيامه بهذه العملية ، والسارق عندما يستحل مال غيره والغادر حينما ينكث العهد ولا يرعى الذمة ، والقاتل عندما يسفك دم بريء آمن ، كل هؤلاء يقال عنهم كما يقال عن الاول . ومن ثم يقال ايضا بنفس المنطق عن المواطن المخلص الذي يبلغ به اخلاصه الى ابعد حدود التضحية ، ويعبر التعبير نفسه عن الامين الذي تبلغ به امانته الى اقصى حد من حدود الفاقة . وهو قادر على الاختلاس ، أجل يقال عن المواطن المخلص ، وعن الأمين الورع ، وعن الوفي الشهم ، يقال عن هؤلاء الآخرين ما يقال عن الأولين ، أي كما أن أولئك يقومون باعمالهم الدنيئة بدافع الانانية المادية فان هؤلاء ايضا يؤدون عملهم هذا بدافع انانية كانت من نوع آخر .

ووفقا لهذا المنطق المجرد من جميع المعاني الانسانية أجدني مضطرا الى تكرار الجملة الأولى فأقول : يتحتم على من يؤمن بهذه الفلسفة ان لا يؤمن بأية شريعة سماوية ولا أية قوانين انسانية .

والذي يسوء كل عربي مخلص هو ان بعضا من المثقفين العرب الذين تمكن الاستعمار الفكري من قيادتهم قد وجدت نموذجا منهم يجهل تاريخ امته العربية جهلا فاحشا ، ولم يخطر ببالي ان شابا جامعيا عربيا يجهل مراحل التاريخ الذي اجتازته امته ، اللهم إلا ان هذه الظاهرة بدأت لي واضحة جلية عندما تتاح لي

الفرصة أحيانا في النقاش والحديث مع بعض هذه الفئة ، وكنت عندما أصل الى البحث في التاريخ العربي مع مثل هؤلاء اتحفظ لكي لا أغلط اعتقادا مني أن أمامي من يسجل علي غلطاتي التاريخية ويحصيها عددا ، ولكنه بدا لي مع استمرار الحديث أن امامي من لا يعرف شيئا من تاريخ أمته العربية ، مع الاسف الشديد وهكذا يفعل الاستعمار الفكري ، ويتصرف بمدارك وعقول وأفكار بعضنا .
وانه يجب على حملة الاقلام العرب الأحرار الواعين ان يعدوا العدة لمجابهة هذا الاستعمار النفسي والفكري ، ليسهل القضاء عليه في مهده ، قبل ان ينمو وينتشر (مكروبه) المعدي بين الناشئة وتلك حقيقة يتحتم علينا مجابهتها ومحاربة أهلها بسلاح فكري معاكس .

والله اسأله التوفيق .

فهد المارك

مقدمة الطبعة الاولى

يسعدني أن يرى القارىء بين دفتي هذا الكتاب وما بعده من الاجزاء المتسلسلة قصصاً عربية شاملة لكل معنى من معاني الفضيلة .

ولا عجب من ذلك إذ أن هذه القيم الاخلاقية المثلى ليست الا صورة ناطقة عن أخلاق ساكني الجزيرة ، ومعبرة أبلغ التعبير عن حياتهم الأدبية والاجتماعية (وما فطروا عليه) من وفاء ونجدة وسخاء ومروءة وإباء وشمم .

ولربما يتساءل القراء كيف كان هذا التراث المجيد وهذه القصص الواقعية الرائعة مهلهة ومتوارية عن الأعين طيلة هذه المدة ، حتى أوشكت ان تدرس ويمحى أثرها رغم ما فيها من عبر تاريخية جديرة بإعجاب القارىء؟ أحب أن أجيب على هذا السؤال : كانت هذه الدرر النفيسة مكنوزة في صدور الرواة الشعبيين وينقلها الخلف عن السلف . ومن دواعي الأسف أنه قل أن نجد بين الكتاب والمؤرخين الذين كتبوا عن الجزيرة العربية كاتباً طرق هذا الباب وحاول أن يكتب كتابة شاملة يعبر بها بوضوح وجلاء عن كنه حياة ساكني شبه الجزيرة ، وأن يصل بكتابته الى حد تحليل فيه اخلاق أهلها تحليلاً علمياً من الناحيتين الاجتماعية والأدبية وان يكن ثمة نفر من المؤرخين كتب شيئاً عنها فإنما كانت كتابته ذات طابع محدود لا يتجاوز ناحية معينة كالوقائع التاريخية المشهورة وشيء من أنساب القبائل وقسط من تراجم الحكام وما الى ذلك .

وإني ممن يقدر جهد اولئك الكتاب من عرب ومستشرقين لاعتقادي أنهم سدوا فراغاً وبذلوا جهوداً جبارة بخدمة تاريخ الجزيرة الحديث خاصة من الناحية السياسية . أما إهمالهم للناحيتين الادبية والاجتماعية فإنهم معذورون بذلك لانهم لو اجتهدوا وحاولوا ان يكتبوا عن هاتين الناحيتين لأعيام الامر لان القضية ليست مجرد سرد حوادث وتسجيل أساطير وقصص على أي شكل يكون، ولكنها تحتاج الى إقامة طويلة في الجزيرة ليتمكن بها الكاتب من معرفة حياة أهلها الاجتماعية ، كما أنه يحتاج لدراسة عميقة تمكنه من معرفة الشعر الشعبي لانه فن مستقل بذاته .

ولن يستطيع كاتب ما ان يكتب عن الجزيرة الكتابة الوافية مها أوتي من قوة ملكة في الكتابة ما لم يكن قد درس الادب الشعبي دراسة دقيقة تؤهله لفهم نظمه ونثره . وهذا لا يكفي بل يجب ان يكون لديه الى جانب ذلك من الموهبة الادبية ما يجعله يتذوق هذا التراث وبالاخص النظم الشعبي النجدي الذي فيه من غرابة الالفاظ ما يعييه فهمه بعضاً من ابناء الجزيرة انفسهم فضلاً عن الاغراب عنها، وان كانت معانيه اشبه ما تكون بمعاني الشعر الجاهلي من ناحية متانتها وقوة مغزاها. وعلى هذا الاعتبار اصبح من المتعذر على المرء ان يجيد تفهم هذا التراث الخالد ما لم يكن من صميم الجزيرة ومجيداً إما لنظم الشعر النبطي^(١)، او معرفة اوزانه واجادة روايته ، ذلك لان اغلبية الحوادث الرائعة لا تخلو من قصيدة شعبية يشدوها صاحب الحادثة او شاعر قبيلته .

واني لو طيد الاعتقاد ان كثيراً من الحوادث القيمة لولا وجود القصيدة التي خلدت ذكرى الحادثة لدرست كما درس غيرها من القصص النفسية .

وبما ان كاتب هذه الاسطر من صميم البلاد ، ومن النفر الذين وهبهم الله تذوق معاني الشعر الشعبي ورواية طرف منه ، كما اني وهبت أيضاً شدة الشوق والرغبة في حفظ القصص ذات الاهمية منذ نعومة اظفاري . هذا كله جعل الامر علي متيسراً وإن وجدت فيه صعوبة ما فإنها ليست كذلك التي يعانينا المرء الغريب عن الوطن ومعرفة الفن . ولحسن الحظ ان سنحت لي الفرصة بالاتصال بكثير من الرواة القدامى من العرب بدوم وحضرم ، وكنت أسعى وراء هذه الغاية منذ مدة لا تقل عن ستة عشر عاماً ولكنني لم أباشر التأليف إلا منذ عامين فقط ، وذلك أني كنت في شغل شاغل عنه .

ولرب سائل يقول : إذا كانت هذه الحوادث القيمة مما لا يستطيع الكاتب الغريب عن البلاد أن يكتبها لشدة ما في النظم الشعبي من تعقيد ، فلماذا لم يؤلفها أهلها القدامى الجديرون بإتقانها ؟

(١) يسمى الشعر الزجلي النعيمي في الجزيرة نبط .

الجواب على ذلك أنه ثمة أمور حالت دون تدوينها آنذاك ، ذلك أن أهل الجزيرة لم يكونوا بحاجة إلى تدوين هذه الحوادث وطبعها ، فلو طبعت لما وجدت من يقرؤها إلا النزر القليل ، لأنهم في غنى عنها إذ أن أغلبهم يحفظ الكثير منها عن ظهر قلب ولأنهم كانوا يعيشون في العصر الذي لم يكن لهم فيه اتصال بالعالم الخارجي فهم بحكم ظروفهم وزمانهم واجتماعهم يتداولون هذه الحوادث بأنديتهم ومسامراتهم ، فلا يشغلهم عنها استماع إذاعة ولا قراءة صحف

وبعد : فإني لست بحاجة أن أؤكد أن هذه القصص فيها من الروعة ما يدهش القارئ حتى ليخيل له أنها وليد خيال مصطنع ، ولكنها حقائق ثابتة لا مجال للشك في صحتها ، إذ أن العرب وخاصة البادية منهم أبعد ما يكونون عن تصوير الخيال الوهمي ، فهم واقعيون ، وليس للخيالات المختلفة أي رواج عندهم ، والمرء الذي يعرف عندهم باصطناع الاحاديث يحتقرونه ويستهزئون به . لهذا تجدهم لا يفخرون إلا بالحوادث الواقعية .

وبما أن القراء في هذا العهد يضعون قسطاً من حياتهم بقراءة قصص بنيت على الخيال ، لهذا أرجو أن اكون موفقاً بتقديم هذه التحفة التي فيها من الحوادث والقصص الواقعية ما يفي عن الخيال المختلق .

وإنه لمن الخطأ أن نشعل القراء بالقصص الخيالية الوهمية ولدينا من تراثنا المجيد الواقعي ما هو أجدى عليهم من أحاديث الخيال .

ونحن اذ نفخر بكرم حاتم ، وتترنم بوفاء السموءل ، ونعتز بحلم الاخنف ، ونتباهى بشجاعة عنترة ، فإننا نؤكد بهذا السفر بأن شيم العرب الاصيله ، لم تدرس ولم ينطمس أثرها بذهاب أو لائنك القوم هلم معي اقرأ هذا الكتاب تجد في حقله ما يفوق وفاء السموءل ويعلو على كرم حاتم ويسمو على شجاعة عنترة ، ويزيد على حلم الاخنف .

ولقد حرصت الا أضع في كتابي هذا إلا القصة التي أو من بصحتها فمن قصة تشفع لها قصيدتها الشعبية وتكون القصة آنثذ شاهدة من نفسها على نفسها بالصحة . ومن قصة مشهورة رويتها عن رواد كثيرين ولا حاجة لأن أسرد اسم كل فرد

رويتها عنه بل سأكتفي بتعليق أوضح به أنها مشهورة ومتواترة . وأما القصة التي رويتها عن مصدر واحد فقط فإني سأذكر الشخص الذي رويتها عنه مع اليقين أنني لم أضع قصة رويتها عن شخص واحد إلا بعد إيماني واعتقادي أنه ثقة ويروي الحادثة عن ثقة مضارع له بالصدق والامانة .

ولو شئت أن أسجل كل ما سمعته من الرواة لطال علي الطريق ولكنني ضربت صفحاً عن ذلك وحرصت جيداً على أن أقصر كتابتي على الاحاديث والقصص الاكيدة الداعة الصيت التي أستند على البراهين المنطقية والادلة المقنعة في اثبات صحتها .

وإني إذ أسير على هذا المنهاج الصريح فإني أسير بدافع غرامي الاكيد ورغبي الملحة في قول الصدق ، تلك الرغبة التي تأصلت جذورها في جبلتي وابتعت فروعها في كياني ، إلى أن أصبحت سحبة راسخة في معتقدي ، أو من بها إيماناً وطيداً لا أستطيع التخلي عنه ، حتى ولو حكمت علي ظروفي واضطرتني الحال على أن أقول خلاف الصدق والواقع وعكس ما أعتقد لما استطعت ، وتلك ظاهرة يشعر بتأثيرها الفعال كل ذي ضمير صادق حر . ولقد عبر عن هذه الحقيقة الشاعر محمود سامي البارودي فقال

تعودت صدق القول حتى لو انني تكلفت قولاً غيره لا أجيده

* * *

ولما كان الوفاء هو أنفس القيم الأخلاقية وأنبها فقد طاب لي أن أجعله الفصل المقدم من هذا الكتاب ، وبما ان قصة المهادي هي أطول القصص ، ومن أنفس الحوادث واروعها ، لما فيها من الوفاء المتناهي بين الصديقين لهذا جعلتها في طليعة فصل الوفاء .

* * *

هذا واني اعتقد انه ما من قبيلة من قبائل العرب في شبه جزيرتنا العربية الا وسيجد القارئ في هذا الكتاب لأفرادها من المآثر الخالدة الحية ما يرفع الرأس من شتى القيم الاخلاقية .

وثمة قبائل ربما كان لبعض رجالها القسط الاوفر من هذا التراث ، وليس معنى ذلك ان القبائل الاخرى اقل حوادث من تلك ، بل ربما لدى افرادها من القصص النبيلة والحوادث النفيسة ما يضارع او يفوق حوادث تلك القبائل . وانما الامر يرجع الى سببين رئيسيين :

الاول : وهو الاساسي في نظري ، واعني به اتصالي المباشر المستمر برواة وافراد بعض القبائل ذلك الاتصال الذي كان اكثر وأيسر علي بحكم ظروف في القاهرة :
والثاني : هو ان الرواة توفروا في هذه القبائل التي كانت لي بهم صلة مباشرة اكثر من توفرهم في القبائل الاخرى .

وكم كنت شديد الحرص على ان احصي أنفس الحوادث لكل قبيلة من قبائل العرب ، لهذا كنت اسعى جاهداً وراء هذه الغاية ، ولا زلت أنقب عن كل راوية من رواة القبائل ، فإذا ذكر لي فرد منهم وتأكدت من صحة نقله أهرع اليه مسرعاً ملتسماً منه الوصول الى هذه الأمنية .

ولئن فاتني شيء من حوادث بعض القبائل ، فأرجو الله ان ييسر لي الفرصة لاجول جولة اخرى كي استوفي ما فاتني من الحوادث التي لا تزال مكنوزة في صدور الرواة الذين لم تتح لي الفرصة للاتصال بهم ، ومن ثم سأنشر ما استدركه في الجزء الأخير بحول الله ومشيتته .

* * *

ولما كانت كتابتي هذه ، استوعب بها ما استطعت من تخليد الفضيلة لأي فرد أسداها سواء كان علماً أو نكراً ، فإنه من واجبي كعربي مخلص ، يعني توحيد أمتي العربية بأية وسيلة كانت وبأي ثمن كان - ان ابتهل الى الله وادعوه ان يقدر ثوى المرحوم الملك عبد العزيز آل سعود ، ذلك العبقرى الفذ الذي وحد كلمة عرب الجزيرة بعد ان كانوا أعداء متفرقين .

* * *

هذا وانى اذ اقدم هذه التحفة ، فإنما اقدمها غيرة على تراثنا القومي الأدبي الذي كاد ان يفنى ويضمحل ، هذا من ناحية والناحية الأخرى الاساسية هي رغبتى

الأكيدة ان يتخذ الناشئة من هذه القيم المثلى قدوة صالحة ، لتكون نبزاً سامياً يقتدى به في شتى مناهج حياتنا الادبية والاجتماعية .
وبعد :فانه لا ريب عندي انني انسان معرض للخطأ وانما أود أن يعاملني قراء كتابي هذا بالحكمة التي تدرع بها ابن سيرين غفر الله له ، حيث كان اذا ذكر عنده احد بسوء ، ذكره بأحسن ما يعلمه عنه من سجية حسنة ، وهذه السجية ، ان دلت على شيء فأنما تدل على سمو نفس صاحبها ومثانة خلقه وبالعكس ، والله أسأله التوفيق .

فضل الرفاء

هي الأيام تكلمنا ونأسو وتجري بالسعادة والشتاء
فلا طول الثواء يرد رزقاً ولا يأتي به طول البقاء
كما أن السؤال يذل قوماً كذاك يعز قوم بالعطاء
حلبنا الدهر أسطره، ومرت بنا عقب الشدائد والرخاء
وجربنا وجرب أولونا فلا شيء أعز من الوفاء

علي بن الجهم

« القصة العالمة »

كل ما أعتقد أن هذه القصة واقعة في القرن الثاني عشر للهجرة ويغلب على ظني أنها في أول ذلك القرن ، وكثيراً ما حرصت على أن أجد المصدر الأكيد الذي أثق بصحة روايته لهذه الحادثة من الناحية التاريخية فلم أوفق إلى ذلك رغم حرصي الشديد ، أما الحادثة من الناحية الواقعية فلا مجال للشك في صحتها من وجوه شتى منها . أنها مشهورة ومتواترة فيندر أن نجد عربياً له أقل إلمام برواية الحوادث لا يعرف هذه القصة ولا يسردها حسب ما رواها ، الرواية التي لا تحيد عن الجوهر الأساسي . وقد يكون ثمة نقص في نوع الرواية لا في الأصل . والشيء الثاني الذي أعتقد أنه هو السبب في خلود هذه القصة وفي صحتها أيضاً ليس إلا انشودة بطل القصة المسمى مُمهل المهادي الذي أصبحت شهرته في عالم الجزيرة العربية أشهر من نار على علم ، وخاصة عند أهالي نجد بدوها وحضرها ، وإني أعتقد جازماً أن هذه الحادثة على ما فيها من الروعة لولا أنشودتها المخنوقة في صدور الرواة والمسجلة في دواوين الأدباء الشعبيين ، فلو لا هذا السجل الخالد لدرست هذه القصة الرائعة كما درس كثير من أمثالها من القصص الجوهريّة ولكن وجود تلك الأنشودة التي

سنوافي بها القارىء موضحة في آخر هذه الأسطر ، كان هو العامل الأساسي الذي بفضل بقيت هذه القصة وستبقى أبداً بمشيئة الله خالدة أبدية في صفحات التاريخ العربي المجيد .

مهمل المهادي هو قحطاني من عبدة^(١) أما رفيقه في الحادثة فهو من قبيلة (سبيع^(٢)) ومن الفخذ المسمى ببني عامر المتفرع من هذه القبيلة ذاتها ، والقصة تعطينا دلالة واضحة بأن المهادي ليس هو بالشخص العادي بل هو من رؤساء عشيرته وذو مقام مرموق^(٣) بين عربيه وشاعر مطبوع كما أنه ثري بلا ريب ، وأما «مُفَرِّج» فليس لدينا من الأدلة ما يهدينا إلى أنه رئيس . وكل ما في القصة من دلالة لا تزيد عن أنه رئيس من قبيلة «سبيع» ومن «بني عامر» كما أسلفنا هذا غاية ما وصلنا إليه في مجهودنا ، أما من ناحية القيم الأخلاقية فلا شك أن الإثنين كليهما فرسا رهان بالوفاء والمثل العليا ، والمهادي أعظم شهرة وأذيع صيتا في أندية العرب وذلك بأسباب قصيدته التي هي من أشهر القصائد الشعبية ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى بحكم منزلته الاجتماعية فهو قد رزق موهبة

«١» فخذ مشهور من قبيلة قحطان . «٢» هم بدو مدينة الرياض .

«٣» ولمرور الزمن الطويل الذي سحب أذياله على هذه القصة ما استطعت أن أجد من يدلني على مدى رئاسة المهادي هل هو رئيس لـ «عبدة» كلها أم لبعض منها

الشعر كما حباه الله سعة من المال وجاهاً رفيعاً في مجتمعه فتوفرت له الأسباب الأدبية والمادية والاجتماعية ، وهذه العوامل الفعالة اذا توفرت لفرد ما خلقت له ذكراً جميلاً في التاريخ ولا سيما إذا وفق إلى أن يسخر هذه الأشياء في سبيل المجد والخير ، وعلى ضوء هذه الحقيقة ليس بالغريب أن يطغى اسم المهادي على صديقه السيعي ويكون أشهر منه صيتاً وأنبه منه ذكراً عند عرب الجزيرة ، حتى أن هذه الحادثة لا تعرف عند العرب إلا اذا قلت (قصة المهادي)، وفي رأيي أن السيعي فعل من المروءة والوفاء الشيء الذي يضارع المهادي بفعله .

إنها لمن أبلغ الحوادث وأروعها حادثة الشخصين اللذين ابتلي كل منهما بأعظم المصائب وأدهى الملمات وثبتا امام هذه الرزايا جميعاً ثبوت الجبال الراسيات .

سار المهادي مسافراً للغزو ومعه فئة من عرب عشيرته ، وفي رحلته هذه ساقه القدر الى قبيلة « سبيع » من بني عامر حيث توسط بيوتهم وصدفة اعترضت أمامه فتاة من فتيات هؤلاء العرب ذات جمال فاتن يأسر القلب ، ويستهوئ الفؤاد « هيفاء دعجاء » استولت على لب المهادي بلحظة من لحظاتها حتى أنه لم يعد يستطع أن يفارق هؤلاء العرب ولا يقوى على أن يسير خطوة ، أوقف راحلته مذهولاً كالمصاب بسهم وأي

سهم أمضى من سهم الغرام ولا سيما اذا كان مفاجأة ؟!

عندما رأى المهادي نفسه أنه أصيب بهذا الجرح الخطير هناك استرد قوته وشجاعته وضغط على أعصابه بقدر ما استطاع بحيث لا يشعر رفاقه بشيء من هذا الأمر الذي ابتلي به ، ولكنه وجد نفسه أنه لو استطاع أن يخفي عن قومه هذه المصيبة التي ألمت به فهو لا يستطيع بوجه من الوجوه أن يجاري قومه ويسير معهم الى السبيل الذي كانوا قاصدين له ، لأن عقله وحواسه وشعوره وجميع مواهبه أصبحت ملكاً لهذه الفتاة فهو آلة مسخرة تديره إرادة الله ثم إرادة هذه الساحرة التي خلبت لبه بجبالها الباهر ، كيف تشاء .

عندما رأى المهادي نفسه أنها كبلت بهذه الأغلال ، هناك وفق لتدبير الطريقة التي يتخلص بها من قومه ليبقى عند هؤلاء العرب حتى يتسع له الوقت الذي يسأل فيه عن هذه الحسنة هل هي ثيب ؟ أم بكر ؟ وهل هي متزوجة أم لا ؟ وهل هي من بيت عريق في نسبه وحسبه فيما اذا شاء أن يخطبها من أهلها ؟ وكل ما تصبو اليه أمنيته هو ان تكون هذه الفتاة بكراً لا قرين لها ولا خطيب وأن تكون من أسرة يتلاءم نسب اسرتها مع نسبه .

هذا وقد بقي المهادي عند قبيلة سبيع واختار اكبر بيوت هؤلاء

العرب ونزل ضيفا عند صاحب البيت الذي اكرمه إكراما يليق بمقامه ،
وإنما المشكلة التي بقي المهادي حيران كل الحيرة في حلها هي رسم
الطريقة التي توصله بسهولة وخفاء الى معرفة هذه الفتاة المعرفة الكافية
التي اشرنا اليها آنفا ، فكر مليا والحاجة كما يقال - (ام الاختراع)
واملى عليه رشده بعد تفكير طويل بما يلي : الا يبدي سره لواحد من
هؤلاء العرب إلا للمرء الذي يؤمن بأنه من شخصيات الرجال الابطال
الأفذاذ ، لقد صمم المهادي ان ينفذ عمليا هذه الحكمة الرشيدة التي
اوحاها اليه عقله السليم ، ولكنه وقع في مشكلة عويصة اخرى وهي
معرفة هذا النوع من الرجال فكيف يهتدي الى تشخيص الرجل الذي
تتوفر فيه القيم الأخلاقية الكاملة ، مع العلم ان هذه الشيمة من اخفى وادق
سجاياء الرجال فهي من الأسرار الكامنة في جوهر الإنسان ولا تعرف ولا
تبرز إلا في الشدائد كما قال الشاعر :

إذا الرزايا اقبلت ولم تقف هناك اخلاق الرجال تختلف

فمن اين « للمهادي » الغريب ان يعرف الرجل الذي يتصف بصفات
الكمال كما يريد والمدة التي قضائها وجيزة لا يتمكن بها من معرفة القوم ؟
وهذا يحتاج الى مجالسة طويلة لهؤلاء العرب وخبرة وتجربة لأخلاق أفذاذهم
فردا فردا . ولكن مع هذا كله لم ييأس المهادي من معرفة السبيل الذي

يوصله الى غايته المنشودة ، وسرعان ما خطر على ذهنه المثل القائل : « اذا جهلت أخلاق امرئ فاختبر صبره وحياؤه » وهاتان الخلتان هما بلاريب محك جوهر الرجال بل عماد الأخلاق .

استطاع المهادي ان يصل الى ضالته بواسطة الرجل الذي تمثلت في طباعه هاتان الخصلتان .

باشر صاحبنا المهادي عملياته التي يختبر بها متانة أخلاق البعض من أفراد هؤلاء القوم العرب الذين هم قبيلة سبيع وكان امتحانه لسجايا أفراد هؤلاء القوم مبنياً على اساس وطيد من الحكمة ، ذلك انه تظاهر امام هؤلاء العرب الذين حل عندهم ضيفاً بأنه مصاب بشيء من تشنج الأعصاب الذي كثيراً ما يطرح صاحبه أرضاً ويفقده شعوره .

وبفضل هذه الحيلة تمكن بسهولة سريعة من معرفة أخلاق الرجل الذي يبين له سبيل الإتصال بهذه الفتاة التي أخذت عقله وسلبته رجولته ولا عجب ان يصل المهادي الى مراده وذلك يعود الى ذكائه وبعد نظره وسعة أفقه ، فهو عندما تظاهر بتشنج الأعصاب كان اذا جلس في المجلس الحاشد من مجالس هؤلاء العرب اختار أفضل القوم الذي يتحرى فيه كمال الرجولة والوقار ، ومن ثم يجلس بجانبه فيطرح نفسه على هذا الرجل ويتكىء عليه بشدة فتمكن بعملية هذه ان يصل الى الرجل صاحب

الصبر والحياء اللذين هما عماد الرجولة ، فالمهادي عندما يطرح نفسه على هذا الرجل يشتد باتكانه عليه فالرجل المتكأ عليه لا يقابل هذا الضعيف المبتلى بهذا المرض إلا بالتجلد والصبر واذا شاء أحد من القوم ان يزيحه عنه رفض ، وقال : هذا ضيف عزيز علينا وغريب عندنا فلا يمكن ان يزاح عن المكان الذي اختاره وجلس فيه وهو في شعوره وعقله (١) .

أما المهادي فقد ارتاح ضميره لحديث هذا الشاب الذي عبر عن عميق رجولته وجلده واحتماله للمشاق وقد اعتقد المهادي أن هذا الفتى هو خير من يثق به ويطمئن له فيما اذا أبدى له سره الكامن في نفسه الذي لا يعلم به إلا الله .

فعندما صبحي المهادي من إغنامه المختلق ، أشار لصاحبه الذي توسم

١ - لا شك ان المهادي كان حكيماً بعملية هذه . والحق ان العرب لديهم فراسة قوية فإن الحياء والصبر من أوضاع الأدلة على كمال خلق المرء ، وقد شاهدت بنفسي حادثة وقعت معي وفيها شاهد لصحة هذه القصة أعني من ناحية امتحان المهادي لصاحبه الذي اتكأ عليه ، لقد كنت مسافراً من مدينة الرياض إلى مدينة حائل وذلك في سنة ١٣٥٨ هـ وكانت السيارة سيارة بريد تضم أكثر من عشرة ركاب ومن بين هؤلاء الركاب صبي لا يتجاوز الثالثة عشرة من عمره وقد قيل عنه انه ابن دغفس ، الساكن بلدة حائل كما انه كان يوجد بين الركاب شيخ كبير يدعى «سلطان الفقير» من رؤساء بادية عنزة وهو شخصية مهيبة ومشهور في رجولته ويبلغ من

به النجابة واتكأ عليه، وأخذ بيده الى محل ناء عن مجتمع القوم فعند ذلك صارحه بالحقيقة كما هي وزاده صراحة بأنه لم يتأخر عن قومه من أجل المرض الذي ألم به كما هو ظاهر أمره، وأفاده بوضوح بأن مرضه الحقيقي هو غرام تلك الفتاة التي أصابته في صميم مهجته بسهمها القاتل ، هذا . وكان الفتى يحسن الاستماع لضيفه بكل بشاشة ورزانة وهدوء فلم

=العمر آنذاك ما يقارب السبعين سنة هذا وقد نزلنا من السيارة في مكان ما ليوتاح قليلاً ونقنات وعندما حللنا جميعاً بهذا الموضع وجلس بعضنا بجانب بعض ، قام من بيننا الصبي ليقضي حاجة له فبعد ان بعد عنا بعداً يجعله لا يستطيع ان يسمع كلام المتكلم الذي في مجلسنا افتتح الحديث الشيخ سلطان الفقير وكان حديثه كله مدحاً وإطراء لهذا الصبي واستمر الشيخ بمدحه للصبي إلى ان قال : إن هذا الصبي صاحب مروءة وذو اخلاق كريمة ومطبوعة في معدنه عموم السجاياء المثلى ، لقد استغرب الحاضرون من إطراء الشيخ لهذا الصبي الذي هو حديث في سنه ولم يعرف شيء عن أخلاقه ، فلم يسعني إلا أن جابهت الشيخ وقلت له : ما هو دليلك على نجابة هذا الصبي؟ فقال: « إنه صبور وحسي ، والصبر والحياء من أصدق الأدلة على نجابة المرء ورجولته » فقلت له ما هي الأدلة التي عرفت بها صبر هذا الفتى وحياه ؟ فأجابني الشيخ بقوله : لقد عرفت ذلك عندما رقد أحد الرفاق من راكبي السيارة وطرح نفسه على فخذه هذا الصبي فأردت أن أوقف هذا النائم الذي رمى جسده على هذا الغلام الحديث السن ولكن الغلام رفض ذلك وقال « لا يمكن أن يوقفه أحد من مرقدته خشية ان ينزعج »

يقول الشيخ : قلت للصبي ألسنت متألماً من اتكائه عليك؟ أجاب الصبي بلى ، ولكن الذي يهون على الألم ان رفيقي مرتاح برفقاده هذا.

يزل الفتى يحسن الاستماع حتى أنهى المهادي كلامه الذي نعت به الفتاة وشخص جسمها تشخيصاً كافياً ، كما وصف لباسها وأشار الى البيت الذي دخلته ، عند ذلك أجاب الفتى ضيفه المهادي بقوله : « هل تستطيع ان تؤكد معرفتك لهذه الفتاة فيما لو رأيته ثانية ؟ أم انك نظرتها نظرة عابرة ونسيت اوصافها ؟ » أجاب المهادي بقوله « لا يمكن أن أنكرها لو أتت ماشية بين مئات النسوة لأن صورتها مسجلة في سواد عيني ومودتها توطدت في دمي ولحمي » ، فما وسع الفتى بعد ذلك إلا أن يأخذ بيد المهادي ودخلا معاً الى البيت الذي أشار اليه المهادي وذكر بان الفتاة دخلته ، فلما دنا الفتى من البيت ، نادى بصوته العالي : « فلانة احضري لدي » فعلى الفور خرجت من خدرتها تهتز كما يهتز الرمح بيد الفارس المغوار ، فلما نظرت الى هذا الأجنبي الذي لم يسبق لها ان رآته عادت هاربة كما يهرب الغزال اذا رماها الصياد ونجت ، أما صاحبنا المهادي فكاد أن يخر مغشياً عليه من لوعة الغرام الذي استولى على عقله . وأما الفتى فهو عندما رأى ضيفه قد اوشك ان يفقد رشده حين نظر هذه الحسنة الفاتنة ، عندئذ لم يخامر ذهنه الشك قطعياً بأن هذه الفتاة معشوقة الضيف ، ولكنه شاء ان يتأكد فقال للمهادي : « لعلها تكون هذه هي » أجاب المهادي بقوله « نعم هي بالذات » فقال الفتى « اطمئنك أولاً أنها أختي كما اني اطمئنك

باني قد قبلت ان تكون لك زوجة شرعية « كاد المهادي ان يفقد عقله من هذا الخبر المفاجيء الذي هو ألذ ما يكون على نفسه .

أما الفتى فقد ذهب فوراً الى والده وقص عليه القصة كما حدثت وأعلمه بما تم ، وكان والده من أفذاذ الرجال البارزين ، لهذا شكر ابنه على هذه العملية ، وقال له يجب ان لا تتأخر لحظة عن فعل السبب الذي يمكنك من عقد النكاح لضيفنا العزيز على هذه الفتاة بقدر ما يمكن من السرعة لئلا يفتك به داء الغرام ، وفي الليلة الثانية تزوج بها ، وكانت تلك الليلة اسعد الليالي عند المهادي ، اجل إنها ساعة مملوءة بالسرور والسعادة المتناهية ، ماذا بالنسبة للمهادي : اما بالنسبة للفتاة فاتها ترى ان هذه الليلة انعكس ليالي حياتها وأشقائها ، بل تعتبر نفسها دخلت في سجن مؤبد وفي نكد عيش جديد ، ولا عجب من ذلك فهي المسكينة ادخلت على قرين سيشاركها في حياتها ويقطف ثمرة شبابها ذلك الشباب الذي ترى انه لا يدانيه أي شاب من فتيات عربها بل ربما انها تعتبر ملكة الجمال في عصرها على بنات عرب الجزيرة قاطبة ، وبما يضاعف حزنها وآلامها أن هذا الشاب الذي ادخلت عليه لم يسبق لها به أي معرفة من قبل وهذه اللحظة هي أول مرة ترى فيها شخص هذا الرجل الذي سيكون مصيرها ومستقبلها قبضة بيده مدة حياتها ، وفي الحين الذي خلا كل منهما

بصاحبه عند ذلك قرُب الزوج العاشق الى زوجته المعشوقه وبدأ في الحديث ليعلن عن سروره واعتباطه بها ، وكان حديثه مليئاً بالمداعبة والمرح ، ولكن زوجته بعيدة كل البعد عن استماع حديثه ، فإن يكن هو عند نفسه في جو من البهجة والغبطة والسرور ، فإنها تعتبر نفسها في قفص من خديد مع أنها حاولت المسكينة أن تخفي حزنها وتكبت مصيبتها وتواري غرامها بمعشوقها الأول ولكن فضحتها عواطفها وخانتها عيناها بالدمع الذي يفيض من مقلتيها ، ويسكب كما يسكب الوابل من السحاب الغزير المنهمر ، والعين اكبر دليل يعبر بدقة وصدق عن حقيقة المرء .

كما قال الشاعر :

عيناك قد دلتا عيني منك على أشياء لولاهما ما كنت أدريها
والعين تعلم من عيني محدثها إن كان من حزبي أو من أعاديها
فالحب يستطيع مثلاً ان يستر جميع علامات المودة والحب ويتجلد
بقدر ما يمكنه ويتصبر أمام الشامتين او العاذلين ، ولكن هيهات ماذا
يكون موقفه تجاه العين ، والحقيقة إن واقع هذه الفتاة المنكوبة
قد عبر عنه الشاعر الشعبي كاتب هذه الحروف أمثل التعبير
بقوله :

الْحُبُّ لَوْ تُخْفِيهِ خَانَتْ بِكَ الْعَيْنُ
تَكْذِبَ الْجِلْدُ وَالصَّبْرُ بَدَمَعَ تَجِي بِهِ^(١)

هذا وقد كان المهادي مرهف الإحساس سريع الفهم لهذا شعر ان هذه العروس ليست مطمئنة إليه فظن انها تجهل سمو منزلته الاجتماعية بين قومه كما تبادر لذهنه ايضاً ان هذه العروس تفتكر انه فقير الحال ، لهذا دنا منها ثانية وافهمها بأنه ليس بالرجل النكرة في عشيرته ، بل انه رئيس قومه وانه فلان المشهور ببطولته والثري بمادته والشاعر الموهوب باده ، فهو بعد ان شرح لعروسه هذه العوامل الإيجابية المغربية التي تتصف بها حقيقة ، لم يكن عنده بعد ذلك ادنى شك في قبولها له لأن الأمور التي تطلبها الزوجة من الزوج كلها قد توفرت به من عموم الوجوه الاجتماعية والمعنوية والمادية ، فلم يبق الآن امام هذه العروس شيء من

١ - هذه الأبيات من قصيدة لنا قلناها في مناسبة لو تطرقنا لشرحها طال بنا الطريق، ولخرجنا عن بحثنا الذي نحن بصدده والقصيدة تبلغ عشرة أبيات وهذا مطلعها :

ما في البلاوي والرزايا من الزين أمر نين حكمته وانحكي به
إلا انها تكشف سجايا الوفين وتغلن سريرة من يحب الحبيبه
اعتقد ان هذه الأبيات واضحة في لفظها ومعناها وليست كالتقصائد الشعبية الغامضة التي نضطر لشرحها .

الأمر المغربي لها إلا توفرت به ، وزيادة على ذلك فإن المهادي شاب وسيم الطلعة جميل الصورة عذب المنطق ، ولكن هذه العوامل كلها وإن كانت ذات اثر فعال في نفسية الزوجة ولكنها لا اثر لها في نفسية هذه الفتاة قطعياً بل ازدادت بكاء ، ولم يكن بين العروسين أي تجاوب سوى هذا الدمع الفياض هذا هو الترجان الوحيد المعبر خير تعبير عن خواطرها ، فبعد ذلك ادرك « المهادي » ان قضية عروسه هذه ليست قضية مظهر تهواه من مظاهر الحياة المعنوية أو المادية بل ولا الأدبية ، وإنما ثبت عنده ثبوتاً جازماً أن الفتاة مصابة بأمر نفسياني فعلى هذا الأساس دنا منها المرة الثالثة ، وخاطبها بكل صراحة بأنه الآن لا يريد منها شيئاً سوى ان تصارحه بايضاح وتبين له العلة النفسانية التي استولت على شعورها .

وبعد ان ألح عليها وأكد لها انه سوف يمكنها من رغبته ويبلغها امنيتها مهما كلفه الأمر ، عند ذلك رجعت الفتاة الفرج وتوسمت في زوجها المروءة ، وصارحته بما هو آت : « انني فتاة يتيمة توفي والدي قبل ان أبلغ سن التمييز وكان وكيل عمي الذي عقد لك النكاح وهو شقيق والدي ولقد كان بيني وبين ابن عمي «مُفَرِّج» إلفة زائدة من ايام الصغر فلما كبرنا جميعاً انقلبنا إلفة الصبا الى غرام وعشق ، ووصل بنا الشوق الى حد انه لا يسلو عني لحظة واحدة وانا بالمثل ، وقد كان عمي يعلم ذلك وهو عازم

أن ينكحني ابنه ولكن ابن عمي عندما تأكد من رغبتك بزواجي
وحرصك على الأقران بي عند ذلك أترك على نفسه بصفتك ضيفاً عزيزاً
عليه ، فتركني لك وأنا أعلم ان حياته أصبحت مهددة بما أعرفه عنه من
المودة المتبادلة بيننا ، وان حياتي أنا أيضاً مهددة كل التهديد اذا لم يسعدني
الحظ باطلاق حريتي وعودتي الى ابن عمي وإني أرجو ان يكون لي من
إباء نفسك وكرم خلقك ما يشفع لي ويجعلك تترك سبيلي وأنت ايها
الشاب الأمير باستطاعتك ان تجد من بنات العرب من هي خير مني ،
وأما أنا فلا يمكن ان أجد من هو خير من ابن عمي مفرج .

فبعد أن انتهت الفتاة من حديثها أجابها المهادي فوراً فقال :

« ابشري إني سأتركك لابن عمك وكوني امينة ومطمئنة أنني لن أبشر
جسدك ولن تمسك يدي فانت حرام علي كحرمة والدتي علي وإنما الذي
أريده منك أن تخفي الأمر حتى أذهب الى قومي ومن ثم أبعث لك
طلاقك بصراحة واشرح لابن عمك هذا السبب الذي تركتك من أجله» .

لقد باتت الفتاة وهي هادئة البال فسيحة الآمال ، كما بات المهادي
وهو مرتاح الضمير أيضاً ولقد كان شديد الغرام فيما سبق بهذه الفتاة ، أما بعد
أن وصل اليها وأصبحت زوجة شرعية ومن ثم اتضح له غرامها بابن

عما ومودتها المتبادلة معه . فقد رأي أن الإقدام عليها وزواجه منها شيء يخالف الشيمة العربية . فلا يسعه إلا العزوف عنها وتركها وشانها لهذا الشاب الكريم الذي بلغ به الكرم لضيغه أقصى حد من حدود المروءة .

لقد مكث المهادي عند العروس الجديدة أياماً قليلة ليستر فيها أمره أمام الناس ، وبعد ذلك ذهب الى قومه فلما وصل اليهم انتدب رسولا من عربيه ليبلغ مفرجاً طلاقه لهذه الفتاة ، ويشرح له الأسباب التي دفعته الى طلاقها ويشكره ابلغ الشكر على معروفه الذي صنعه له ويؤكد له أنه أصبح أسيراً لفضله وأنه لا ينسي هذا الجميل مدى الدهر ويريده تأكيداً أنه لم يطلق الفتاة وبنفسه لها أدنى غرام ويوضح له أن الغرام والمودة قد امحى اثرهما من نفسه .

وأكد لصاحبه أيضاً قائلاً أنني بعدما علمت أن هذه الفتاة مرشحة لتكون زوجة لك يا مفرج ، أصبح عزوفي عنها مائة بالمائة فحسب بل امسى امراً ضرورياً يتحتم على تنفيذه هذا وقد عادت الى اهلها ونكحها ابن عمها ومضت ايام وسنون ومفرج وزوجته في رغد من العيش وبسرور وهناء ليس بعده سرور . استمر هذا التعميم على مفرج وابنة عمه مدة من الزمن واخيرا مال عليهما الدهر وهلك

ما شيتها وتشتت شمله وذهب ماله وبقي اجوف خالية يده من جميع
متاع الدنيا .

فهذه الفاقة الشديدة والضرورة الماسة اوجدت في نفس مفرج
عاملاً قويا يحدوه على ان يلتمس السبيل الذي يلتجىء إليه لينقذ نفسه
من قيود الفقر الذي هو اثقل القيود على نفوس البشر وخاصة النفس
الكريمة الأبية ، فبعد ان ضاقت الدنيا بوجهه وتعذرت عليه شتى
الأسباب الإيجابية فلم ير الآن بدا إلا أن يذهب الى صاحبه « المهادي »
الذي يحزم انه في مجبوحة من العيش وحياة مزدهرة وسرور ليس بعده
سرور : هذا وقد ذهب «مفرج» الى ضيفه السابق المهادي ونزل بضيافته
ليلاً هو وعائلته وأبناؤه الثلاثة فلم ير المهادي ساعة أبرك عليه وأسعد بل
ولا أشرف وألذ من زيارة مفرج له لا سيما بعدما رأى أثر الفقر على وجهه
ووجوه ابنائه المجعدة الشاحبة وكان المهادي يعتبر مجيء مفرج له من دلائل
سعادته ومن علامات توفيقه في الحياة وطيب حظه وأكبر ما يتمناه
المهادي أيضاً ان صاحبه أتاها من فاقة شديدة حتى يشاركه في ما يملك
ويغدق عليه من الدنيا لينسيه الفقر ويدخل على قلبه السرور ، وظاهر
أمر مفرج يعطي المهادي دليلاً واضحاً على فاقته ، لهذا بادر المهادي مسرعاً
بأمره لإحدى زوجتيه وهي صاحبة البيت الكبير أن تخلي البيت بما فيه

من فرش وأثاث وتتركه لضييفه وصديقه مفرج ليسكنه هو وعائلته وقد نفذت زوجته أوامره فوراً وسامت البيت وما فيه لزوجته ضيفهم وخرجت بنفسها ولم تحمل معها من البيت قليلاً ولا كثيراً ، وقبل أن تبارح بيتها تذكرت أن ابنها يسهر مع فتیان العرب ولا يعود إلى مضجعه إلا بعد منتصف الليل ، وعادة إذا عاد يبيت على طرف الفراش الذي تبيت عليه والدته . لذلك نهت والدته الفتى التي هي زوجة المهادي زوجة ضيفهم وأعلمتها أن ابنها الآن يمرح مع الصبيان في مكان بعيد عن منازل العرب وبعد منتصف الليل سوف يعود هذا الصبي إلى البيت وأكدت عليها أن لا تنام حتى يأتي ابنها وتشعره بأن والدته بارحت البيت وذهبت إلى بيت أهلها وقد تعهدت الضيفة لأم الصبي أنها ستظل يقظة حتى يأتي الصبي وترشده بالأمر الواقع ، وقد كانت الضيفة صادقة بتعهداتها ، ولكن النوم كما يقول المثل سلطان جائر ، ولكنها سهرت قليلاً ثم غلب عليها النوم فنامت نوماً ثقيلاً وذلك لطول السفر والمسير البعيد فأهملت وصية أم الفتى ، فأتى الشاب كالمعتاد ورفع طرف فراش والدته ونام عليه وبقي نائماً في طرف الفراش والضيفة على طرفه وكلاهما ملتحفان في غطاء واحد وفراش واحد هذا وقد كان « مفرج » يسمر مع صاحبه « المهادي » صديقه القديم ، والمهادي حريص على أن يؤنسه ويسليه ويدخل على قلبه

السرور والمرح بقدر ما يمكنه ، وبعد أن مضى أكثر من نصف الليل استأذن الضيف من صاحبه المهادي ليذهب وينام تأذن له صاحبه وسار يشيعه حتى أدخله على بيته الذي وهبه له ، فلما كشف الفراش وجد زوجته نائمة وبجانبها فتى يناهز العشرين فاندثش من هذا المنظر الشاذ فخبط برجله على قلب الشاب خبطة قوية بغير شعوره فشبهق الفتى شهقة فارق بها الدنيا ، فاستيقظت زوجته فوجدت هذا الفتى مصروعاً بجانبها ونظرت إلى زوجها وإذا غيرته وحاسته طاغيتان على عقله فصاحت بوجه زوجها « ويلك قتلت ابن الأمير » عندها استعاد الزوج رشده واستفسر من زوجته وهو لا يزال في ثورة الغضب « من هو ابن الأمير ؟ ما الذي يجعل ابن الأمير يأتي إلى فراشي ؟ ومتى عرفت ابن الأمير ؟ »

الزوجة « هذا ابن المهادي أخبرني عنه أمه بأنه يأتي إلى بيت أمه ويرقد على طرف الفراش وقد نبهتني أمه بذلك ولكن استولى عليّ النوم وورقدت »

مفرج : « يا لها من مصيبة كبرى فكيف المخرج من هذا المأزق الحرج »

الزوجة : « مالك إلا أن تذهب إلى المهادي وتخبره بما قدر الله وقضاه » .

مفرح : « لا يحصى لي من ذلك » .

ذهب مسرعاً قاصداً المهادي فوجده جالساً في الموضع الذي كنا فيه سوياً فدنا منه وقص عليه الحادثة ، وكان مفرح مرتبكاً عندما قص عليه القصة ، بينما كان المهادي بمنتهى الهدوء ومثانة الأعصاب ، وراح يُطمئن مُفرجاً بأن الحادثة لا قيمة لها عنده وأنه أمر قدره الله وطلب من مفرح ألا يعلم أحداً قطعياً وأن يحذر زوجته ألا تبدي هذه القضية لأي شخص كان حتى ولا لأولادها وهب مسرعاً وحمل ابنه على ظهر فرسه وألقاه في الموضع الذي يمرح به الصبيان ويلعبون به في ليلهم ، وعاد راجعاً كأن لم يكن شيء من ذلك كله ، فلما تجلى النهار وجد الناس ابن المهادي ميتاً في ملعب الفتيان فكل من رآه سكت خشية أن يتهم ابنه به حتى ارتفع الضحى وشاع الخبر عند العرب جميعاً وتسرب إلى والد المقتول الذي هو أمير القوم ، الآن انفعَل المهادي واستمل غضبه المصطنع وصاح على عربيه وطالبهم جميعاً بدم ابنه أو أن يخبروه بالشخص القاتل ، ولكنه لم يجد من يجيبه على كلامه ، وأخيراً عقد جلسة حضرها عموم الشخصيات من كبار قومه ودار الحديث فيما بينه وبين هؤلاء الكبار وآخر الأمر تم البحث على تنفيذ ما يلي :

أن تحصى نفوس العرب جميعاً وخاصة الاغنياء منهم ويجعل على كل

فرد منهم ناقة من أطيب الإبل ، . وافق القوم على ذلك ، فما غابت شمس ذلك النهار إلا وقد اجتمع ما يقارب ثلاثمائة ناقة من خيرة الإبل عند بيته فساقها القوم وسلموها لأميرهم المهادي دية لابنه ، استأمنها المهادي وذهب إلى الضيف الصديق وأشعره بأن هذه الإبل هي ملك له وإنما تبقى الآن مبدئياً بين إبل المهادي حتى تنقشع هذه السحابة المصطنعة . أما أم الفتى التي هي زوجة المهادي فإن المهادي ساق لها عدداً من الإبل ديةً منه لا ينهاه بعد مضي مدة من الوقت ادخل المهادي هذه الإبل على صديقه القديم واصبح مفرج من كبار أثرياء البادية ولم يزل لِمُفَرِّج في جوار صاحبه المهادي وبقي الاثنان كالأخوين لا يفترقان ، وإذا جلس المهادي ومفرج في مجلس يضم الإثنين كان صدر المجلس والحديث لِمُفَرِّج هو صاحب المكان والمهادي كأنه غريب ، مضت سنوات غير قليلة وهما خيلان صادقان .

فإذا أردنا ان نبحث عن أساس الصلة التي بنيت على أساسها صداقة المهادي ومفرج فإننا نجد ذلك ناشئاً عن غرام المهادي بتلك الفتاة وعلى ضوء تلك الحادثة الغرامية توطدت أواصر المودة والولاء بين كل من المهادي القحطاني ومفرح السبيعي ، لأنها ولاشك كانت محكاً لأخلاق الشخصين ولقد عبرت عن عراقة أصل وشيم كلا الصديقين .

ولكن الحادثة الغرامية الآتي ذكرها ، تختلف كل الاختلاف عن
حادثة المهادي ، وان تشابهت الأسباب والوسائل فإن غاية الاثنين متباينة
تبايناً كلياً :

وإليك شرح الثانية الوخيمة القذرة :

كان للمهادي فتاة جميلة الصورة ابتلى بحبها أحد أبناء «مفرج» فذهب
يلتمس الوصول إليها بغير السبيل الشرعي ^(١) فلا يترك فرصة من الفرص

(١) لا اعلم لماذا حرص هذا الشاب على الوصول إلى هذه الفتاة عن طريق
السفاح ؟ ولم يحاول ذلك عن طريق النكاح المشروع . لا بد من ان يكون هناك
عوامل اساسية تحول دون الوصول إليها بالزواج الشرعي فقد تكون هذه الفتاة
(محيرة) لابن عمها ومعنى (المحيرة) هو ان ابن عمها الأدنى يقول : «إني محير ابنة
عمي فلانة» معناه انه منعها منعاً باتاً ان تنكح رجلاً غيره . فعند ذلك لا يستطيع
عمه ان ينكح ابنته من اجنبي إلا برضى ابن اخيه . فات زوجها من غيره بدون
إذن منه يصبح مهدداً بالقتل من قبل ابن اخيه ، كما ان الزوج نفسه يصبح عرضة
للتنكيل . وهذه العادات لا زال لها بعض الأثر في البادية وهي في طريقها إلى
التلاشي . المقصود ان ابن مفرج ما سعى وراء هذه الفتاة وحاول الوصول إليها من
طريق الفاحشة إلا والسبيل المؤدي إليها بطريقة شرعية غير متيسر . ولا ندري
ايضاً فيما اذا كانت الفتاة غير محيرة وكان بإمكان الشاب ان يطلبها من والدها بكل
سهولة ولكن نفسه الحبيثة لا ترى لذتها إلا من طريق الحرام .
ونحن نميل إلى الرأي الأخير لما يظهر لنا من دناءة نفسية الفتى ونجده اقرب
للصواب .

التي تكون فيها الفتاة آمنة مطمئنة وفي خلوة من الناس : إلا اغتتم هذه الفرصة مع الفتاة وبدأ يغازلها ويداعبها ويحاول أن ينال من عرضها بقدر ما يمكنه .

هذا والفتاة تخبر والدتها بالواقع من أول الأمر الى أن تمادى السفیه في جهله وشقاوته . وكانت والدۃ الفتاة أيضا تخبر والد الفتاة ، وقد كان يوصي زوجته بأن تحرص ابنتها على ألا تفشي هذا السر لأي أحد كان . وأن تحرص ايضا على أن تبتعد عن الشاب بقدر ما تستطيع ، وقد كانت الفتاة منفذة لأوامر والدها ومطبعة لوصيته عملياً قبل ان يأمرها بذلك ، فازدادت بوصيته حرصاً فوق حرص . ولكن حرصها لم يفدها شيئاً امام الشقي ، فكان يزداد تمادياً في سفاهته وضلاله .

مضت مدة طويلة وعفة الفتاة مهددة بخطر من هذا الشاب الفاسق . وأخيرا تقلص صبر الفتاة وبكت امام والديها واعلنت لهما بصريح العبارة أن الشاب أصبح منها قاب قوسين أو ادنى ، واوضحت لهما انه على استعداد كامل ان يفترسها عند اول خلوة يخلو بها ، وبصفتها انثى بطبيعتها ضعيفة امام الرجل فلا تستطيع أن تدافع عن نفسها اذا هم هذا الفاجر بها وان مقاومتها لا تثمر شيئاً .

هذا وقد كان والدها على أحرّ من الجمر فلا يعلم ماذا يفعل؟ وماذا يتخذ من الحيلة لحل مشكلته؟ فهو إن صرح لصديقه والد الشاب بالجرمة التي ينتوي ابنه تنفيذها فإن صديقه سيعاقب ابنه اشد العقاب لا محالة ، والمهادي لا يريد أن يصاب ابن صديقه بسوء بسببه ولا بغير سببه لأنه يعتبر ابن صديقه كأنه ابنه بل ربما يرى له من حرمة الجوار ووفاء الصداقة الشيء الذي يفوق حرمة الابن عند والده ، ولكن المصيبة الكبرى ان الشاب لا يراعي للجوار حرمة فهو لا يضع نصب عينيه إلا الفرصة التي تمكنه من هذه الفتاة ، ليمجم عليها ويستبيح عرضها بأية وسيلة كانت ، هذه هي أمنية الفاجر التي كان يحلم بها . والمفهوم أن والد الفتاة علم من طريق ابنته العلم اليقين بنية المجرم التي يحوكمها لابنته لهذا اضطر أن يحجب ابنته عن الخروج ، وان خرجت لطريق ما تولى حراستها بنفسه . ومضى وقت غير قصير والحالة مستمرة على ذلك والشاب المعتدي ليس له شغل يشغله إلا مراقبة الفرصة السانحة التي يثب بها على الفتاة ووالدها يلاحظ حركات المجرم بعينه فما يزيده ذلك إلا حرصاً على حراسة ابنته .

ومضى وقت غير قليل والحالة متواترة على هذا الشكل ، وأخيراً فرغ صبر الشيخ وطالت عليه ليالي الحراسة من هذا المعتدي الغشوم فهب

يلتمس انجع الوسائل والأسباب التي يأمن بها على عرض ابنته . فرأى أن
أيسر الطرق وأهداها هو إما أن يرحل عن جاره « مفرج » ويتركه هو
وابنه المسيء أو أن يرحل جاره عنه ويبعد عنه الخطر المهدد لعرض
ابنته . هذا هو المخرج الوحيد الذي ينجو به من آفة هذا الطائش الذي
سعى بإفساد ما أصلحه الصديقان سنين عديدة .

أصبح المهادي يرى أن فراقه لصديقه أمر لا يحيص منه فهب يلتمس
حيلة يلمح بها لصاحبه بالرحيل عنه لأنه شق عليه أن يصرح له بذلك فوجد
أن هناك لعبة تسمى عند البادية « البيه » وهي المسماة عند الحضر
« الدامة » فطلب المهادي من جاره ان يتسلل وإياه ويلعبا هذه اللعبة . فلبى
مفرج طلب صاحبه ولعبا معاً . وعندهما كان ينقل المهادي إحدى
آلات هذه اللعبة من موضع الى موضع كان يقول لمفرج « ارحل وإلا
رحلنا » .

انتبه جاره لهذه العبارة لأن المهادي اعادها عدة مرات واندesh
دهشة عظيمة لأن المهادي لا يمكن أن يصرح بمثل هذه العبارات الا أن
يكون هناك دافع قوي ألجأه إلى ذلك ، ومفرج لا ينسى أنه أراد في
أول الأمر أن يستأذن من المهادي ويذهب إلى عشيرته (سبيع) أراد
ذلك بعد أن وهبه المهادي الإبل التي دفعها عشيرته دية لأبنة . ولكن

المهادي أبى ورفض ذلك وأصر كل الأصرار على أن يبقى بجواره حتى يفرقها الموت . فكأنني بلسان حال مفرج يقول : ما هذا الانتكاس الذي جعل المهادي يكرر عبارته « ارحل وإلا رحلنا » ولقد أيقن مفرج اليقين القاطع أن هناك حادثاً خطيراً اضطر المهادي إلى أن يقول تلك العبارة .

ولما كان مفرج غريباً بين عشيرة المهادي فإنه لم يستطع أن يسر لأحد أمره ويشكو إليه مصيبته التي ألمت به وهي رغبة المهادي بفراقه ، لم يجد مفرج أحداً يشكو إليه إلا زوجته التي تبادل معها الرأي فاضطر إلى أن يخبرها بكلمة المهادي له « ارحل وإلا رحلنا » فاجتمع رأي الزوجين على أن هناك أمراً عظيماً شعر المهادي بضرره فرغب بالفراق حسماً للخطر .

وقد استقر رأيهما على أن يذهب مفرج إلى المهادي ويستأذن منه بأن يرحل إلى قبيلته ، فذهب إليه وقال له : إني مشتاق إلى زيارة أهلي الذين مضى على مفارقتي لهم عدد من السنين . فقال المهادي : حسن ، لك ما تشاء . فلما سمع مفرج جواب صاحبه الذي يدل على عدم الاكتراث بفراقه بل رآه يستقبل النبأ بكل فتور ولا يبدي أي أسف أيقن يقيناً لا ريب فيه أن صاحبه يكم في صدره أمراً خطيراً وأنه يرغب في الفراق رغبة

أكيدة.

ذهب مفرج وهو يحس بحرارة الألم وأعد رواحله فوراً ورحل .
وفي طريقه مر على صديقه المهادي فودعه ثم واصل سيره مولياً وجهه شطر
قبيلته، وكل ما يتمناه هو أن يعرف الأسباب التي أثرت على عواطف صديقه
الحميم فجعلته ينفر من جواره بعد أن كان يعز عليه فراقه . فكر طويلاً
ليعرف هذا السر الغامض . فتكاثر عليه الظنون وقال في نفسه ربما
يكون بعض الأعداء قد وشى بي عند صاحبي ، ولكنه يعرف أن
صديقه رجل رزين لا يمكن أن تؤثر عليه وشاية الواشين، فحصر تفكيره
بناحية واحدة ، واتجهت ظنونه نحو أولاده الثلاثة، ورسخ في ذهنه أنه
لا بد أن واحداً من هؤلاء الفتيان سولت له نفسه بانتهاك حرمة صديقه
المهادي . وقد اختمرت في ذهن مفرج هذه الفكرة ولكنه أحب أن
يستوثق منها .

وكان مفرج يعرف أن المهادي شاعر مطبوع فقال في نفسه لا بد
من أن المهادي ستفتنق قريحته ويعزف على ربابته ^(١) القصيدة التي تعبر

(١) الرابة : آلة موسيقية عند البادية وهي ابلغ شيء يطرب من نغماتها العربي
فيا إذا كانت القصيدة بتطرق معناها إلى حزن وشكوى وآلام فلا يمكن ان
يسمع العربي او يرى ما ينير شجونه وآلامه مثل الرابة والحقيقة ان لها اثرا عظيماً =

عن حقيقة أمره وواقعه الحالي وعلى ضوء هذا التفكير سار مفرج بنفسه وترك زوجته وأولاده وقصد منزل صديقه المهادي حيث وصله ليلاً فبقِيَ متوارياً من خلف رواق البيت ، فلما انتصف الليل وأيقن المهادي أن العرب ناموا جمعاً هناك تناول ربابته وأشد هذه الأبيات :

(١) يَقُولُ الْمَهَادِيُّ وَالْمَهَادِيُّ مُهْمَلٌ^(١) لَوَى عَلْتِي جَمِيعَ الْوَرَى مَا دَرَا بِهَا

(٢) • أَنَا إِن يَبْنِيهَا بَانَتْ لُرْمَا قَةُ الْغَدَا

وَإِن كُنْتِهَا ضَاقَ الْحَشَا بِالثَّهَابِهَا

(٣) ثَمَانُ سَنِينَ وَجَارُنَا مُجْرِمٌ بِنَا وَهُوَ كَمَا وَاطِي جَمْرَةٍ مَا دَرَا بِهَا

= في نفسية العربي ، خاصة إذا كانت القصيدة محزنة . ولا يمكن ان يعرف احد ما للربابة من تأثير في شعور العربي وعواطفه إلا من يتذوق نغماتها ويعرف معاني القصيدة الشعبية التي تلحن على أوتارها .

وحذار ان يظن القاريء ان الربابة التي يحملها (النور) المنحطون هي نفس تلك ، ليس كذلك لأن الأولى لا يترنم بها إلا الأبطال او من يحذو حذوهم في اندية العرب ومجتمعاتهم ، وتنتقل إلى معان جمة في عموم حياة البادية الاجتماعية والحربية والادبية مع انها الآن لا اثر لها خاصة في بادية نجد . اما الثانية فهي آلة هزلية تحتوف بها فئة سافلة من حثالة البشر .

(١) عرف عند عموم رواة العرب بأن اسمه (مهمل) لا محمد ولكنني ارجح ان اسمه محمد لانه إذا كان (مهمل) فلا معنى لاسمه ، واعتقد انه قلب من محمد إلى مهمل .

- (٤) رَحَلْ جَارُنَا مَا جَاهُ مَنَّا زَرِيَّةَ وَلَوْ جَتْنَانُمُهُ مَا جَاهُ مِنَّا عَتَابَهَا
- (٥) نَرْفُو نَحْمَالُ^(١) الْجَارُ إِلَى دَاسِ زَلَّةُ كَمَا تَرْفُو بِيضِ الْعَذَارَى ثِيَابَهَا
- (٦) تَرَى جَارَنَا الْقَالِطُ^(٢) عَلَى كُلِّ طَلْبَةٍ وَلَوْ كَانَ مَا يَلْقَى شُهُودِ غَدَابَهَا
- (٧) الْأَجْوَادُ إِذَا قَارَبَتْهُمْ مَا تَمَلَّهْم وَالْأَنْذَالُ إِذَا قَارَبَتْهَا عَفَتْ مَا بَهَا^(٣)
- (٨) الْأَجْوَادُ مِثْلَ الْعِدِّ مِنْ وَرْدِهِ ارْتَوَا^(٤)
- وَالْأَنْذَالُ لَا تَسْقِي وَلَا يَنْسِقِي نَبَا
- (٩) الْأَجْوَادُ مِثْلَ الْبَذْرِ فِي لَيْلَةِ الدُّجَا
- وَالْأَنْذَالُ ظُلُمًا ضَايِعٌ مِنْ سَرَى نَبَا
- (١٠) الْأَجْوَادُ مِثْلَ الزَّمْلِ لِلشَّيْلِ تَرْتَكِي^(٤)
- وَالْأَنْذَالُ مِثْلَ الْحَشْوِ ، كَثِيرُ الرِّغَا نَبَا
- (١١) وَلَيَّ عَجُوزٍ مِنْ سَبِيْعِ آلِ عَامِرٍ مُضِئَةً غِرَانَهَا فِي شَبَابِهَا^(١)
- (١٢) أَقْسَمْتُ يَا أَرْضِ خَلْتُ مِنْ مُفَرِّجٍ مَا أَبْغَاهَا لَوْ هُوَ زَعْفَرَانٍ تَرَابَهَا^(٢)

(١) الجمال : العيب . (٢) القالط : الفائز . طلبه : دعوه . (٣) ما بها : ما بهم . (٤) العد : البئر .

(٢) الزامل : الجمال القوية . الحشو : اولاد الجمال الصغيرة . الرغابها : الصياح أي كثير الصياح والمثلل .

(٣) ولي . ابتعدي . غرانا . اطفالها .

(٤) ما ابغاهها . لا اريدها .

شرح الابيات

(١) « يَقُولُ الْمَهَادِي وَالْمَهَادِي مُهْمَلٌ

لَوَى عَلَّتِي جَمِيعَ الْمَلَأَ مَا دَارَاهَا »

يقول انني انا المهادي ابتليت بمصيبة عظيمة وقد طويت عليها نفسي ولم يطلع عليها أحد من بني البشر . ومن المسلم به أن أعظم المصائب أثراً في النفس هي المصيبة المكتومة التي لا يجد صاحبها من يديها له .

(٢) « أَنَا إِنِّي بَيَّنْتُهَا بَأَنِّي لِرِمَاقَةٍ ^(١) الْعِدَا

وإِنْ كَثَّيْتُهَا ضَاقَ الْحَشَا بِالْتِهَابِهَا »

يشير صاحبنا الى البلية التي ابتلى بها وهي مراودة ابن جاره لفتاته من ناحية ومفارقه لصديقه العزيز عليه من ناحية اخرى ويقول : إنها علي من أدهى الملمات والرزايا ويعطينا دلالة على شدة تأثره بها فيقول إنه لا يستطيع أن يفشيها فيشمت به أعداؤه كما أنه فرغ صبره من تحفظه وكتمانه لها .

(١) الأعداء الشامتون .

(٣) « ثَمَانُ سِنِينَ وَجَارِنَا مُجْرِمٌ بَنَّا

وَهُوَ كَمَا وَاطِي جَمْرَةٍ مَا ذَرَأَ بِهَا »

يؤكد الشاعر أن هذه الإساءة التي صدرت من ابن مفرج ليست قضية أيام أو أشهر ولا إساءة سنة أو سنتين بل إنها ثماني سنوات والإساءة مستمرة بشكل عنيف ورغم هذه المدة الطويلة يؤكد لنا المهادي أنه لا زال يتجلد ويصبر ، ويقول من المصيبة أن والد المجرم أي صديقه مفرج لا يعلم شيئاً عن المصيبة التي ابتلي بها بسبب ابنه والعار الذي أراد أن يلبسه الابن أباه . ويصف لنا حالة صديقه مفرج أنه أشبه ما يكون بالمرء الذي وضع قدمه على نار متوارية عن نظره وهو لا يراها ولا يحس بحرّها لسبب ، إما أنه ينتعل نعلًا يقيه أذاها أو بسبب موت جلد قدمه فأصبح لا يتألم وإن كانت النار تأكل لحمه وذلك على رأي أبي الطيب المتنبي في الشطر الثاني من هذا البيت :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح يميت إيلام

وهو إذ يصف مفرجاً بهذا الوصف يعتقد أنه لو علم بالجريمة التي يحاول ابنه ارتكابها لكانت المصيبة على مفرج أكبر وأعظم مما هي على المهادي لهذا يقول :

(وَهُوَ مِثْلُ وَاطِي جَمْرَةٍ مَا دَرَا بِهَا)

(٤) «رَحَلُ جَارِنَا مَا جَاهُ مِنَّا رَزِيَّةٌ
وَلَوْ جِئْنَا مِنْهُ مَا جَاهُ مِنَّا عِتَابُهَا»

يقول إن جاره رحل من عنده بدون أن تأتيه أذية منه بل يقول ولو
فعل جارنا بنا الدنيئة وأساء إلينا بغيرته لنا فلا يمكن أن نعاتبه على
إساءته لنا بل نتسامح ، ونغض الطرف عن جريمته مهملها عظمت
وكبرت .

(٥) «نَرَفُوْ خَمَالُ الْجَارِ إِلَى دَاسٍ»^(١) زَلَهُ^(٢)
كَمَا تَرَفُوْ بِيضَ الْعَذَارَى ثِيَابَهَا»

يزيد تأكيداً في هذا البيت بأن حرمة الجار في نفسه عظيمة عظيمة
بالغة ويوضح لنا أن جاره لو تمادى في إساءته فإنه يقابله بأحسن منها
ويحاول أن يستر هذه الإساءة حتى لا يطلع عليها الناس لهذا قال
«نَرَفُوْ كَمَا تَرَفُوْ بِيضَ الْعَذَارَى ثِيَابَهَا» أي كما أن المرأة إذا انشق

(١) داس : بمعنى إذا فعل . (٢) زلة . بمعنى خطيئة .

ثوبها الذي يستر عورتها وتتجمل به تحرص كل الحرص على أن ترفو هذا المكان حرصاً على تجملها وسترأ لعورتها ، وكذلك يقول نحن نفعل ما استطعنا لنستر جريمة جارنا ، فيما إذا أخطأ وتجاوز الحد بخطيئته وضرره

(٦) « ترى جارنا القايط^(١) عَلَى كُلِّ طَلْبَةٍ^(٢) »

وَلَوْ كَانَ مَا يَلْقَى شُهُودٌ غَدَابَهَا ،
يقول لنا المهادي إن الجار مقدس عنده وإنه إذا ادعى بقضية ما وطالب بها فإنه يحكم له بصحة ما يدعيه ويعتبر أن دعواه هذه قضية مسلم بها حتى ولو أنه لم يستطع أن يأتي بالبينة التي تثبت دعواه ولا بالشاهد الذي يشهد له بثبوت حجته . ومنطق المهادي يقول : إنه لا يطالب جاره بشيء ، بل يتركه له وهو راض ومطمئن الضمير .

(٧) « أَلْأَجْوَادُ إِذَا قَارَبَتْهُمْ مَا تَمَلَّهُمْ »

وَالْآنَذَا لَ إِذَا قَارَبَتْهَا عَفَتْ مَايَهَا
يمتدح الشاعر نفسه دون أن يصرح بذلك فيقول : ان الرجل الطيب المعدن تجذبك خصاله اليه فكما اقتربت منه ازددت رغبة فيه ومحبة له وإعجاباً به . ويعطينا دليلاً صادقاً بأن الأبحاد والأجواد لا يشعر

(١) القايط : اي المقدم . (٢) طلبة : اي دعوة .

صديقهم ولا جارهم بأي سأم ولا ملل مهما طالَّت اقامته عندهم . وفي الشطر الثاني يفيدنا أن الانذال اذا قرب منهم المرء عافهم ورأى أن سلامة عرضه منهم هي الكسب الوحيد لهذا تراه أشار بقوله : (وَالْأَنْذَالُ إِذَا قَارَبَتْهُمْ عَفَتْ مَا بَهَا) والأصح أن يقول « عفت ما بهم » ولكن ضرورة الشعر ألجأته إلى ذلك .

(٨) « الْأَجْوَادُ مِثْلُ الْعَدِّ (١) مَنْ وَرَدَهُ ارْتَوَى
وَالْأَنْذَالُ لَا تُسْقَى وَلَا يُنْسَقَى بِهَا »

معنى هذا البيت منسجم تماماً مع معنى البيت الذي قبله . إلا أنه يوضح أن الأخيار أقرب ما يكونون شبيهاً بالبشر الغزيرة الماء التي لا ينقص ماؤها من كثرة الواردين منه مهما زاد عددهم وأما الأنذال فهم على عكس ذلك .

(٩) « الْأَجْوَادُ مِثْلُ الْبَدْرِ فِي لَيْلَةِ الدُّجَى
وَالْأَنْذَالُ ظُلُمَاتُ تَابِهِ مَنْ سَرَى بِهَا »

وهذا أيضاً قريب المعنى من البيتين الأولين . فهنا يصف لنا مدى فضل الاخيار على الانذال ويهديننا إلى التباين البعيد بين الطرفين فيقول :

(١) العد : البشر الغزير ماؤه .

إن الأختيار لهم علامة فارقة تميزهم عن غيرهم من سائر الناس وانهم أشبه ما يكونون بالبدر في كمال نموه . ثم يعود ويصف الأنذال فيقول: انهم كالليل المدلهم الذي لا يستطيع احد ان يسير فيه . وإن سافر فيه مسافر للضرورة فإنه سيخطئ الطريق لشدة ظلمته وقلة العلامات التي يهتدي بها المسافر .

« ١٠ » « الْأَجْوَادُ مِثْلَ الزَّمْلِ ^(١) لِلشَّيْلِ تَرْتَكِي
وَالْأَنْذَالُ مِثْلَ الْحَشْوِ كَثِيرَ الرِّغَا بِهَا
في رأي الشاعر ان الاختيار منها تكن المصائب بهم جليلة وخطيرة فإنهم يتحملون صعوبتها كما تتحمل الجمال « الزمل » الحمولة الثقيلة . ثم يذهب بنا الشاعر إلى وصف نفسية الأنذال ويقول : إنها منحنطة الى آخر ما يعبر عنها ، فكما انه وصف الأختيار بالجمال لاحتماهم المشاق فكذلك وصف الأنذال « بالحشو » والحشوي ابناء الإبل الصغار التي لا تستطيع ان تتحمل من الحمولة ما تتحمله الجمال القوية .

١١ « وَلِيٌّ ^(٢) عَجُوزٍ مِنْ سَبِيْعِ الْعَامِ
مُضِيْعَةٌ غَرَّأَنَهَا فِي شَبَابِهَا ،
أرى أن هذا البيت أبلغ ما في القصيدة إذ أن فيه حكمة وبياناً قوياً .

(١) الزمل : الجمال الشديدة القوية . (٢) ولي : اي ابتعدي .

فالمهادي هنا يريد أن يوضح لنا أن السر الذي جعل ابن جاره فاسد الأخلاق إلى حد أنه يحاول فعل الفاحشة بابتنته وهو يعلم أن المهادي عند والده بمنزلة أعظم من منزلة الأخ الشقيق ورغم هذه الأخوة الصافية الصادقة المتبادلة بين الطرفين لم يرتدع عن مراودته لأبنته . فالمهادي يؤكد أن السر الوحيد الذي أفقد هذا الصبي المناعة الخلقية هو عدم تربية والدته له . فهو يعتقد أن والدته لو أحسنت تربيته أولاً وهذبت أخلاقه وأفهمته ما للجار والصديق من حرمة وحقوق في نفوس العرب ، لو أرشدته إلى ذلك منذ نعومة أظفاره لما انحطت نفسه إلى هذا الحد ^(١) .

وهو يقصد بقوله « وليّ عجوز » أي قبحك الله من عجوز عندما كنت شابة أهملت توجيه ابنك حتى كانت أخلاقه سيئة بهذا الشكل ^(١)

(١) لقد حمل المهادي المسؤولية كلها على والدته الفتى لاعتبارها الأم ، والأم بلا شك هي مدرسة الحياة الأساسية فان صلحت صلح الابن وبالعكس وهذا ما ذهب إليه الشاعر حافظ إبراهيم بقوله :

الأم مدرسة إذا اعددتها اعددت شعباً طيب الأعواق

(٢) لم أجد المصدر الذي يفيدني عن هذه العجوز التي يشير إليها هل هي تلك الفتاة التي اغترته إبان صباها واستولت على له . أم هي غيرها ، وبذلك تكون تلك الحسنة قد فارقت زوجها مفرج بموت أو طلاق . انني اجهل الأمر .

وفي هذا البيت دلالة واضحة على ان هذه العجوز من عرب سبيع
آل عامريعي بذلك انها من قبيلة سبيع المتفرعة من بني عامر وسبيع
بادية مدينة الرياض .

١٣ « أَقْسَمْتُ يَا أَرْضِ خَلْتُ مِنْ مُفَرَّجٍ »

ما أَبْغَاها لو هو زعفرانٍ تَرابِها ،

يقسم بطل الحادثة على نفسه بأنه لا يمكن ان يسكن في الأرض التي
رحل عنها صديقه مفرج لأنه لا يرى المكان الذي كان يسكنه جاره
مفرج إلا ويزداد حزنه وشوقه إلى صاحبه . لهذا يقول إن الأرض التي
أرى فيها آثار جاري وصديقي يتحتم عليَّ هجرانها والنزوح عنها حتى ولو
كان ترابها زعفران والزعفران اشبه ما يكون بالورد رائحة وهو اصفر
اللون .

والقصيدة اكثر من هذه الايات وانما تركنا البقية واخذنا ما فيه
شاهد ودليل على صحة الحادثة .

لقد ترنم الشاعر في قصيدته ، وانتهى منها ، وصديقه مفرج خلف
بيته يستمع لهذه القصيدة ولم يفقه شيء من اولها الى آخرها ، فعاد مسرعاً
إلى اهله ، ولم تنق عينه النوم حتى اسفر الصبح .

لقد اتضح له بأن احد اولاده اساء الى عرض صديقه المهادي ، اتضح

له ذلك من معنى البيت الثاني عشر الذي يلوم فيه العجوز على عدم تربيتها لأبنائها . وإنما الذي اشكل على «مفرج» الآن هو معرفة المجرم من ابنائه وهل هو فرد منهم ام اثنان ام جميعهم ولكنه دبر حيلة استطاع بها ان يعرف المجرم منهم ، وذلك انه ينفرد بكل واحد منهم على حدة ويداعبه مداعبة القرين لقرينه حتى يجبرئه على نفسه بحيث يصبح الولد لايهاب والده ثم بعد ذلك يقول : «إنني يا بني أتمنى ان اكون شاباً في شبابك وقوتك لكي استطيع ان أغري بعض الفتيات بشبابي ، ثم يستطرد ويقول : « كم كنت اتجرع الغبن والحسرات عندما ارى بنت المهادي تلك الفتاة الجميلة التي لا اتمنى في الدنيا إلا ان اكون شاباً مثلك حتى اتمكن من ان اتمتع بها بأي شكل كان .

بهذا المعنى كان الشيخ يتحدث مع ابنائه كل واحد منهم على حدة . فأما البريء من اولاده فكان يؤنبُ والده ويلومه بقوله : « هذا يا والدي عيب عليك ان تحكيه كما انه عيب علينا ان تحدثنا . انفسنا بارتكاب الفاحشة ، فلو حدثتنا انفسنا بعملية كهذه لما فعلناها مع ابنة صديقك الذي نرى له من الولاء والاخلاص والحق والواجب ما نراه لك يا والدنا ، » .

هكذا كان جواب كل بريء من ابنائه ، عندما يختلي به ، فلما وصل

إلى صاحب الجريمة وداعبه كما كان يفعل مع الآخرين عند ذلك
قفز المسيء وقال : « والله يا والدي لو أقننا عندهم ليلة واحدة لأزلت
بكرتها » .

فقال الولد وهو يتسسم ابتسامة مصطنعاً : وهل كان ذلك عن رضا
منها ؟ قال الابن : لا بل كنت ناوياً أن اغتصبها .

قال الشيخ وهو يكظم غيظه : « ماهي الطريقة التي كنت ناوياً
تنفيذها لاغتصابك هذه الفتاة ؟ »

قال الابن : « كنت أترصد الفرصة التي أغتنمها ومن ثم اهاجم
عليها والخنجر بيدي اليمنى والحبال التي أشدها بها بيدي اليسرى ،
وهي بطبيعة الحال سوف تخاف وتسلم نفسها وبهذه العملية يستطيع ان
أقضي وطري منها بكل سهولة » .

عندما انتهى الشاب من قصته الدنيئة قفز الشيخ وذهب مدبراً عن
ابنه ثم استدّار من خلفه وفي غفلة من الابن جرد سيفه وضرب عنق ابنه
المجرم ثم أدرج رأسه في قميصه ، وترك جثمان ابنه في مسافة بعيدة
عن اهله .

عندما وصل « مفرج » إلى أهله نادى بهم أن احضروا لديّ
فحضر الولدان وامهما ، فسألهم عن عدم وجود الفتى المقتول

متجاهلاً .

فأجابه أحد ابنائه بقوله : آخر عهدنا به حينما ذهب بصحبتك .

فقال : وهو لا زال بصحبتني الآن . ثم صمت قليلاً فغشي الجميع جو من الهدوء ومن بعد افتتح الشيخ الحديث مع زوجته وأولاده وقص عليهم اسباب صداقته مع المهادي وتاريخها إلى ان وصل إلى الأمر الذي أوشك ان يكون سبباً لانفصام عرى الصداقة .

فقال : إنها لصداقة متينة الأساس ، راسخة الأصل ، سامية الفرع بعيدة المدى ، ولكن شاء أن يكدر صفوها ويقضي على كيانها عضو من اعضائي وهو لا شك عضو فاسد إن تركته سرى فساده إلى الجسد كله فأفسده لهذا استسغت قطع هذا العضو كي لا يسرى فساده إلى بقية الجسد (١) .

فبعد ذلك صرح لزوجته وولديه بالأمر الكائن . ثم انتدب أحد ولديه وكلفه ان يحمل رأس اخيه ويذهب به إلى المهادي ويضعه بين يديه

(١) ربما اني تصرفت بشيء من لفظ مفرج ولكنني لم اخرج عن جوهر المعنى الذي يرمي اليه .

فلبى الفتى كلام أبيه ، وحمل رأس أخيه حتى وصل المهادى فوجده
جالسا في بيته فسلم عليه ثم طرح رأس أخيه بين يديه ثم انصرف حسب
ارشادات وتعاليم ابيه .

لقد دهش المهادى من هذه العملية وشعر آنذاك أن
صاحبه أدرك السر الذى جعله يلمح له بتلك الجملة « ارحل وإلا
رحلنا »

الآن ازدادت آلام المهادى وعظمت مصيبته عما كانت ، وإني
أجهل كما يجهل كثير من الرواة ما فعل المهادى بعد ذلك . هل ذهب
إلى صاحبه وأقسم عليه ان يعود الى جواره أم انه لحق به وبقي جاراً له
كما كان مفرج جاراً له بالأمس ؟.

هذا واني لا استبعد ان يكون عند القراء شيء من الشك في صحة
هذه القصة لما فيها من الروعة والتفاني في التضحية ولكن ليطمئن القراء
ان هذه القصة قد بلغت اقصى ما يعبر عنه من الشهرة والتواتر عند
ساكني الجزيرة وخاصة عند البادية . وعرب البادية بعيدون كل البعد
عن التزوير والإختلاق .

بئر قدم صديقه وفاء بعهده

وقعت بين عام ١١٩٠ و ١٢٠٠ هـ

كانت أوامر الصلة بين كل من « ماجد الحثري »^(١) وصديقه مُفَوِّزَ التجعيف « وطيدة الاساس وثيقة العرى إلى أقصى حد . فكنا متحابين محبة لا تشوبها شائبة من المطامع الفردية ، وكل فرد يرى لصاحبه من الاحترام والتقدير ما يراه لنفسه ، ويوداه من الخير ما يوده لذاته فهما كنفس واحدة لا يفرقهما إلا الموت ، تجمعهما الفطرة العربية . كما ألقت بينهما رابطة الفتوة والفضيلة ، وكان ثمة تبادل وتجاوب بين شعور كل منهما من الطموح والقيم الأخلاقية المثلى ، فكانت صداقتهما صداقة عفيفة شريفة بريئة . ليست كمثلى صداقة بعض الشباب المائعين . وقد كان بينهما انسجام كلي بالأخلاق والتربية الأدبية والاجتماعية ، اللهم إلا أن ماجداً يفوق مفوزاً بقريحة نظم الشعر فقط .

ولما كانت الحوادث الطارئة في ذلك العهد تدهم البادية بين عشية وضحاها ، لذلك فقد انصبت غارة أحد الغزاة على قبيلة شَمَّر التي هي عرب ماجد ومفوز . فركب الفارسان جواديهما قاصدين طلب الإبل وقد كان

(١) كلاهما من قبيلة شمر .

فرس ماجد أسرع جرياً من فرس صاحبه فوصل العدو قبل أن يصل خليله . وعندهما سمع الغزاة صوت ماجد تركوا الإبل وولوا هاربين . فواصل غارته مقتفياً أثر العدو ، ولا زال يقاتل ويناضل حتى ظفر بفرد من هؤلاء الغزاة « منعه »^(١) واعطاه إشارة منه إما عقاله أو شيئاً من ملابسه . وهذه العلامة تكون شعاراً تقي هذا الأسير شر (عرب ماجد) فإنهم عندما يرون الأسير متدرعاً بعقال أو عباءة أو ما أشبه ذلك من الألبسة ماجد فلا يتمكن أحد أن يؤذيه قطعياً لأنه أصبح بجوار هذا البطل ، هذا وكان ماجد قد أجار من هؤلاء القوم الغزاة شجاعاً مشهوراً كان فيما سبق قتل أبا مفوز أي صديق ماجد الحميم . وقد كان مفوز يسأل الله بالحاح أن يهب له غريمه بين يديه . وقد ساق القدر مفوزاً إلى غريمه وهو هذا الشجاع الذي أجاره صديقه ماجد فما ان نظر مفوز غريمه وتأكد منه حتى أخذته سكرة الغضب التي دفعته إلى أن يقتله بدون أن ينظر إلى عقال صاحبه الذي كان متدرعاً به ، وغاية ما في الأمر أنه طعنه برمح ، وتركه ومضى في سبيله ليدرك العدو ويناضل في جنب رفيقه ماجد . أما هذا القتيل فإنه لم يفارق الحياة ولم يفقد حواسه ولا زال على آخر رمق من الحياة . وقد كان حينما طعنه مفوز قريباً من بيوت العرب

(١) منعه . أي اعطاه عهداً بالله ان لا يمسّه احد بسوء .

بحيث أنه الصبيان والنساء ومن بين هؤلاء النسوة أم ماجد التي رأت
عقال ابنها على صدر هذا الجريح المحتضر ، فحملته إلى بيت ابنها .
وأعطاه الجريح الإفادة بأن قاتله مفوز وبعد مضي دقائق سلم نفسه لباريها .
هذا وقد عاد ماجد من الغزوة منتصراً ولكنه لم يرجع إلا بعد
العشاء الأخير . وذهب الى محل بيته فلم ير ذاك البيت المشيد وإنما رأى
بيتاً مقطعة أطنابه ومكسرة أعمدته ، وعلى جانبه عجوز تنوح وتدعو
بالويل والثبور . أصغى قليلاً ليستعلم عن صوت هذه العجوز وإذا به
صوت أمه الذي لا ينكره . أقبل عليها منحنياً يقبل رأسها : « لا يا أمه
إشري اني حي شديد منتصر بحمد الله ولم اصب بأي أذى ، من الذي
افترى عليك الكذب وازعجك ، قبحه الله .

- ام ماجد : اني أتمنى انك ميت حتى يكون ذلك اهون عليّ مصيبة .
- ماجد : ماهو الخبر يا أمه ؟ - ام ماجد : الخبر هو خبر السوء
الذي لا يفوقه سوء . لقد هتك صديقك مفوز حرمتك وألبسك العار
الخالد . - ماجد : ماذا فعل مفوز يا والدتي ؟
- ام ماجد : فعل العملية الشنعا . لقد قتل منيعك ^(١) وها هو ذا
مجنندل تحت رواق البيت .

(١) أي الذي عاهدته وأخذ منك الأمان وأجرته بجوارك .

- ماجد : لا يا والدتي اتقي الله لا يمكن أن يكون مفوز قد هتك
حرمة أخيه الحميم ولكن الذي اخشاه انها مؤامرة من شباب عربنا الذين
حسدوني ومفوزاً على ما نحن عليه من أخوة صديقة وقتلوا « منيعي »
ليوقعوا بيننا العداوة .

- أم ماجد : لا يا بني ليست القضية قضية مؤامرة كما تظن وإنما هي
قضية صدق وفي ذلك شهود .

- ماجد : من هؤلاء الشهود ؟ أنا لا ارضى شهادة كل العرب ولا
اصدقهم ابداً إن قالوا إن اخي مفوزاً ينتهك حرمتي .

- أم ماجد : يا بني يجب ان تكون اوفر عقلاً من ذلك وتصغي لقولي .
- ماجد : سمعاً وطاعة يا والدتي . هاتي ما عندك .

- أم ماجد : بينما نحن نساء العرب وصبيانهم نسير على إثركم حاملين
الماء لنسقي عطشاكم ونسعف جرحاكم ، لقينا هذا القتل مطعوناً طعنة
أدت الى ما ترى . فظننا أنه من عربنا لا من اعدائنا فحرصنا على ان
نعرفه فلم يعرفه منا احد . ولكن روحه لم تكن قد فارقت جسده ، كما
انه لم يفقد عقله فحدثنا وهو بحالة النزاع قائلاً : انا فلان^(١) وقد « منعني »

(١) لم أجد احداً يفيدني بمعرفة اسم الشخص القتل ولا قبيلته وذلك لطول
العهد الذي اسبل اذياله على هذه الحادثة حتى كادت ان تدرس لولا تناقل الاحقاد
لها عن الاجداد وقد كانت القصيدة الآتية خير ضامن لخلود هذه القصة .

ماجد الحثري في وجهه واعطاني أمان الله، كما انه قلدني بعقاله وامرني ان اذهب الى بيته . فأتيت قاصداً أهله ولكن قابلني « مفوز التجفيف » الذي لا انكره فوثب عليّ عندما نظرتني وطعنني برمح، ولم يبرح من عندي إلا وهو يعتقد انني ميت . وهأنذا ميت لا محالة ولكن احملكن يا نساء الحمي شهادتي هذه لتبلغنها ماجداً الذي أنزلني بأمانه ويعهده ولا زلت بذمته .

كان ماجد يستمع حديث أمه ترويه عن مستجيره والدنيا تسود في وجهه ، وبقي صامتاً مدة كأنه مغشى عليه . ثم أفاق فأصغى الى أمه وتكلم بصوت منخفض وقال : يا والدتي إن المرء عندما يكون في حالة النزاع وسكرات الموت لا يملك من عقله وشعوره شيئاً فهو يهذي بالشيء الذي يمليه عليه خياله ، هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية فأنني لا استبعد أن يكون المرء الذي طعنه قد قال له انني مفوز التجفيف مضلاً إياه حتى يوقع بيني وبين أخي مفوز الشر ، ثم برهن ماجد على صدق نظريته فقال لأمه : إن الشيء الذي يجعلني لا اصدق بصحة هذا الخبر هو أن الذي طعنه تركه حياً حتى يلتبس عليك الخبر فلو كان مفوز هو الذي طعنه لحز عنقه عن جسده وتركه ميتاً .

صرخت أم ماجد في وجه ابنها وقالت : إنك جينت عن لقاء مفوز ولن تستطيع أن تقتص منه ياساءته اليك فبقيت تلتمس الأعذار المنجية

من لقائه. ولكنني آسفة على اللبن الذي أَرْضَعْتُكَ إِيَّاهُ وعلى حَضَانَتِي التي أَوْلَيْتُكَ إِيَّاهَا (١).

- ماجد : لا يا والدتي أنا ابنك النجيب الذي تعهدين والبطل الذي لا يتسلل إلى قلبه خوف من مخلوق مهما بلغت شجاعته وإقدامه ، ولكن القضية وقعت في مفوز الذي هو كما تعلمين انه رُوحِي وقطعة من فؤادي ، ومفوز يا والدتي مستعد أن أفتيده بنفسِي وبما أملك من المال والعيال ولكنني لا أَرْضِي أن أفتيده بدرهم من شرفي وحرمتي وكرامتي .

- أم ماجد : وأنا هذا الذي أعده منك يا بني كما أنني أزيدك تأكيداً أن لمفوز عندي من الولاء والمحبة مكانة لا تقتصر عن منزلتك ولكن الأمر أصبح مأساً بالكرامة ومنتهكاً للحرمة ، وكثيراً ما يضحى العربي بابنه وفاءً بعده دون كرامته (٢)

(١) تذكرنا أم ماجد بالحديث الطويل الحماسي الذي تكلمته اسماء ابنة أبي بكر مع ابنها عبد الله بن الزبير إبان محاصرة الحجاج له بمكة .

(٢) هذا قبل حادثة فلسطين أما الآن فلم يبق لهم من المجد إلا الخطب الرنانة والتغني بمجد الأسلاف الغابرين والتزلف والتماق والنفاق والاطراء لزعمائهم الحاكمين مدة بقاءهم على العرش ، أما إذا دهمت عروشهم كلارثة فسرعان ما ينقلب هذا التزلف عتواً وذاك النفاق صراحة بل وقاحة وذلك الاطراء قذفاً ولعناتاً . ولقد اعطينا هذه التقلبات العربية صورة سيئة عن المخطاط اخلاق بعض افراد امتنا العربية ولكننا لم نقطع الرجاء ولم نياس . فأرجو ان تكون هذه الكوارث قد اعطينا عبرة وعظة فنعمل على استرداد مجدنا الغابر وما ذلك على الله بعزيز .

- ماجد : أنا يا أماء الآن احادثك وانا اشعر بالخلل يدب في شعوري وعقلي وذلك لعظم الخطب فاهديني برأيك الذي يجعلني اثق ثقة لا شك فيها بأن (منيعي) قد قتله مفوز .

- ام ماجد : الوصول الى حقيقة الامر سهل جداً .

- ماجد كيف يكون ذلك ؟

- ام ماجد : ألسنت تشاركني الرأي بأن مفوزاً فتى صريح صدوق لا يمكن أن ينكر ويكذب فيما اذا سألته عن الحادثة وتحريت منه الإفادة الصادقة ؟

- ماجد بلى انه لا يمكن أن يكذب حتى ولو علم أنه ينقاد الى الموت أو يخسر صداقتي التي اعتقد انها تعادل عنده حياته .
- أم ماجد : اذاً فابعث له من قبلك رجلاً يتحقق عن الامر واني ارجو الله يا بني ألا يكون هو القاتل لمنيعنا والهاتك لحرمتنا .
- ماجد : سليه أنت يا أماء .

- ام ماجد : هاندا ذاهبة إليه .

ذهبت ام ماجد تهرول الى مفوز فلما دنت من بيته نادته فلباها بقوله : من المنادي ؟ فأجابته : أنا ام ماجد . فقال : اهلاً وسهلاً بوالدتي .
تفضلي حفظك الله .

- ام ماجد : احب يا بني ان تتفضل الى هنا لقضاء امر ما .
- مفوز : ابشري يا والدتي خيراً يكون إن شاء الله .
- ام ماجد : اخوك ماجد يا بني وكل إليّ ان اناشدك الله عن
« منيعه » فلان هل انت قاتله ام لا ؟
صمت مفوز قليلاً ثم قال : اود ان اذهب الى اخي ماجد لأفهمه
الأمر .

- ام ماجد : لا يا بني لا حاجة لذهابك الى ماجد فانا وكيلته فاخبرني
بالأمر كما كان .
- مفوز أصر على أن اقابل ماجداً لأفهمه القضية .
- ام ماجد : انتظر هنا يا بني حتى اخبر اخاك ماجداً بطلبك
للقاتل .

عادت ام ماجد الى ابنها واخبرته قائلة : يا بني ان مفوزاً يود
ان يقابلك ويخبرك بما تم في القضية .

ماجد هل اعترف لك يا والدتي ام لم يعترف ؟
- ام ماجد : لم ينكر ولم يثبت وهو الى الاعتراف اقرب .
- ماجد : ارجو ان تعودى اليه يا والدتي ولا تأتيني منه إلا بالخبر
اليقين النهائي واذا اعترف أنه هو القاتل فاحرصي على ألا يأتيني وأن

لا أراه أبداً لأنني لا أستطيع ان املك نفسي عن الفتك به فيما اذا اعترف
أنه القاتل .

عادت ام ماجد مسرعة الى مفوز فوجدته ينتظرها بفارغ
الصبر .

- ام ماجد : يا بني إن اخاك ماجداً يقرئك السلام ويرجو منك
ألا تقدم اليه وكل ما يناشدك الله به هو ان تخبره بالحقيقة عن منيعه فلان
هل انت قاتله ام لا ؟

- مفوز : يا والدتي إن فلاناً هذا هو قاتل أبي وما زلت مدة حياتي
وانا انتهز الفرص لأخذ ثأري منه . ولما قاده القدر هذا اليوم إليّ ورأت
عيني عين قاتل والدي عند ذلك اصابني شيء افقدني عقلي ولم املك من
نفسي شيئاً ، فدنوت منه فطعنته برمحى ولم اعلم في تلك اللحظة هل هو
(منيع) لأخي ماجد ام لا ، وكل ما في نفسي انني اخذت ثأري من
قاتل ابي ولم اذهب من عنده إلا وقد تركته ميتاً حسب اعتقادي . ولكن
بعد ان عدنا من المعركة سمعت عند قومنا شيئاً من الهمس والهيمنة ،
التي جعلتني اتوقع خطورة أمر مبهم لم يتضح لي كنهه إلا الآن ، وهكذا
يا أم ماجد شاءت الاقدار . وكل ما ارجوه منك ان تبلغني اخي ماجداً
وتعودي إلي بالأمر الذي يأمرني به اخي فإني مستعد لتنفيذه على نفسي

مهما يكن .

عادت ام ماجد الى ابنها وقصت عليه القصة كما كانت .

هناك تشنجت اعصاب ماجد وانتفخت اوداجه وبقي ساعة وهو يكظم الغيظ ثم يزأر كما يزأر الليث في غابته ، ثم هداً بعد ذلك شيئاً فشيئاً ونادى شخصاً من عربيه صديقاً للاثنين أو هو صديق لمفوز أكثر منه لماجد فقال له : اذهب الى مفوز وقل له : يقول لك ماجد أرجو ان ترحل حالاً واحرص على ألا تبيت بين عرب اجتمع بك عندهم في مناخ واحد . واعلمه أنه إن لم يمثل لهذه الأوامر فلن يأمّن صولتي .

تبلّغ مفوز هذه الأوامر فرحل فوراً بليته ، اما « ماجد » فبقي بين عربيه تعس الحياة كاسف البال مكسور الخاطر .

ولا عجب ان يكون ماجد على هذه الحالة فلقد فارق صديقه الحميم الذي كان يشاطره حياته في بؤسه ونعيمه . والمصيبة الكبرى التي حلت بـ ماجدهي ان الامر ليس فراق صديقه فقط ولكنه (قطع وجهه)^(١) وقطع الوجه عند العرب أكبر شيء يعاب عليه الرجل فهي عندهم

(١) اي خفر ذمة . وذلك لأن ماجداً أعطى ذلك الرجل عهداً بالأمان فجاء وخفر ذمة ماجد وهذا يطلق العرف عليه اسم (قطع وجهه) .

تبقى وصمة عار ابدية حتى يغسلها الرجل بأخذ الثأر من المرء الذي ارتكب هذه الجريمة وسود وجهه بين عربيه .

بقي ماجد يتجرع الغبن مدة طويلة ، وإنما الشيء الذي يعزي نفسه هو أنه قد فرض إرادته على غريمه وأبعده عن وجهه ونبذه عن عربيه .

هذا وقد حكمت إرادة الله أن تأتى ظروف تجمعها سوياً في منزل واحد ومشرب واحد، ومرعى واحد، لقد وقع ذلك بدون اختيار الطرفين .

والسبب الداعى لجمعها هو ان اراضي شمال نجد أجذبت بوجه عام ما عدا موضع فسيح معين يسمى « فيضة الأديان » (١) هذا المكان هو اخصب الاراضي مزدهراً « اقحوانه » عذبا مأوّه مريثاً مرعاه، ولكن هناك علة تحول دون ان يتمتع برعيه قبيلة من القبائل وهى آمنة مطمئنة وذلك أنها تخشى غارات هجوم القبائل الاخرى . لهذا بقى هذا النبات وافراً متراكماً ، ذلك أنه حماه بعضهم من بعض .

هذا وقد عظم الأمر على عموم رؤساء عشائر شمال نجد جميعاً

(١) سمي بفيضة الأديان من ذلك العهد (والأديان) معناه الأحلاف أي مكان المعاهدات .

ورأوا أنه لا بد أن يلجأوا الى طريقة محدودة تمكنهم من رعى ماشيتهم في هذه الأرض الخصبة . لهذا أوفد كل رئيس قبيلة رسولاً من عنده الى رئيس العشيرة الأخرى . وتم الإتفاق على أن يعقدوا مؤتمراً يحضره كل من رئيس عشيرة « عنزة » ورئيس « شمر » ورئيس « الظفير » . هذا وقد عقدوا المؤتمر في الوقت المعين ، وأسفرت نتيجته عما يلي :

المادة الاولى : عقد صلح فيما بينهم

« الثانية : كل قبيلة يكفلها رئيسها على ألا يبدر من أفرادها أي حادث من الحوادث المحلة بالأمن

المادة الثالثة : أن ينتخب هؤلاء الرؤساء واحداً منهم ليكون كفيلاً لعموم رؤساء العشائر على ألا يحدث من أفرادهم ولا من زعمائهم أمر يخل بالاتفاقية^(١)

المادة الرابعة : أنه لا يمكن بوجه من الوجوه أن يجبر المستجير

(١) لقد انتخب هؤلاء الرؤساء رئيساً لهم امير قبيلة شمر الشيخ « مطلق الجرباء » الفارس المشهور المتوفي سنة ١٢١٢ هـ ثمة رواية تفيد ان كل رئيس عشيرة يكفل افراد قبيلته ولم يكن مطلق كفيلاً لرؤساء العشائر كما ذكرنا ، وإنما الرواية الأولى التي تفيد ان مطلقاً كفيلاً لهم هي الأشهر المتواترة .

واحدٌ منهم ، أي لا يصح ذلك لا للكفيل العام ولا لرؤساء العشائر ولا لأفرادهم .

إن هذه المعاهدة فيها فوائد جمة منها : أنها جعلت مجالاً فسيحاً لمواشي هؤلاء العشائر لترعى في هذا المرعى الخصب والغدير العذب ، كما أن فيها من الضمان ما يقي بعضهم شر بعض ، بحيث لا يستطيع أي فرد منهم أن يعتدي على الآخر حتى ولو رأى قاتل أبيه فإنه لا يتمكن أن يمسه بسوء .

كان مجمع هؤلاء العشائر بطبيعته يجمع ما جداً ومفوزاً في صعيد واحد ولكن مفوزاً لا يهجمه ذلك لأنه أصبح في ضمانه شيخه « مطلق الجرباء » الذي هو المسؤول عن قبيلته ولكن الذي ابتلي ووقع في البؤس هو ماجد الذي كان من الأصل لا يهدأ له بال ولا يطيب له عيش . أما الآن بعد أن علم أن مفوزاً سيجتمع به في مكان محدود فلا شك أنه ستتضاعف حسراته وأوربما أنه سيفتك به داء السل الذي كثيراً ما يتولد من القبر وضعف البنية . والواقع أن حالة هذا التعس قد وصلت إلى حد يؤسف له فقد أصبح هيكلاً أجوف عظاماً وجلداً وأعصاباً ترتعش

لقد احتارت أسرته وأبناء عمه في أمره الذي أدى به إلى انحطاط

جسمه ، فبقوا يضربون أخصاً بأسداس يتحرون معرفة السر الذي أنك صحة فتاهم . والمشكل الذي زاد أسرته حيرة في أمره هو أن ماجدا هذا صامت لا يعاشرهم ولا يبادلهم الحديث ولا يشكو لهم شيئاً من الأمور التي من اسبابها يرون صحته تنقص يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة .

فكر عميد أسرته المسمى « عمرو » وقال في نفسه : ربما ان ابن عمي هذا عاشق احدى فتياتنا الجميلات وقتك به الغرام وهو خجلان من أسرته ومستحي لا يستطيع أن يفشى لنا سره هذا . هكذا كان ظن ابن عمه . لقد اختمرت في ذهنه هذه الفكرة وكان له اخت من اجل فتيات العرب فاستدعاها واوصاها ان تتجمل وتلبس احسن ما عندها من البسة والزماها الا تدخر وسعاً من اغرائها لماجد بجملها ومداعبتها اياه كي تكشف سر نفسيته الكامن ليصل « عمرو » الى النتيجة التي يعلم منها عن آفة ابن عمه ، فان كانت الآفة آفة غرام بنساء فهذا عنده شيء يسير ادراكه وباستطاعته ان ينكحه أجمال بنت يريدتها من عرب قبيلته . هذا وقد كان ماجد يميل الى الخلوة بنفسه دائماً فهو كثيراً ما يذهب الى الصحراء حاملاً (ربابته)^(٢) معه فيفتش عن كهف أو رأس

(١) راجع شرحنا للربابة صفحة (٤٢) .

جبل يتسلّى هناك وهو حريص على أن يبعد كل البعد عن مجتمعه ليتبادل الآلام هو ونفسه ويتجاوب الألحان مع صوت ربابته التي أصبحت نديّة الوحيد، وأنيسه الفذ، في حين لا يرى أحداً من عربيه ولا من أسرته يفشي إليه شكواه لأن نفسيته العظيمة وإباءه وشمه وكبرياه وحياهه، ذلك كله يمنعه من أن يبدي شكواه لفرد من البشر، فترى شخصيته الفذة كثيراً ما تصور لنا واقعها، بل تنفذ عملياً قول الشاعر السوري « بدوي الجبل » :

وأسر الشكوى حياء وكبراً رب شكوى إسرارها اعلان

هذا وقد ذهبت الفتاة تقف في أثر ما جد حينما خرج من عند عربيه قبيل طلوع الشمس يحمل ربابته قاصداً مأواه الذي يقضي فيه نهاره الى الليل كما جرت به العادة، فلما استقر بمكانه المعتاد هناك اقبلت عليه هذه الفتاة الغنوج تبختر وتمايل كما يتمايل غصن البان اذا حركته الريح فألقت عليه تحيتها الرقيقة، فصمت قليلاً ثم نهرها قائلاً : ما الذي أتى بك الى هذا المكان ؟ شئت ان تداعبه وتجيبه برقة وغنج وهي واقفة تنهياً للجلوس عنده، ولكنه لم يتركها تتحدث كما انه لم يتركها تجلس فطردها من عنده حالاً ورجماً بالحجارة.

عادت الجميلة من عند ماجد ولم تتوفق في استكنائه الخبر الذي يصل به اخوها الى نتيجة .

أما ماجد فقد أخذ ساعة وهو يفكر يمتحن تفكيره وعقله محاولاً أن يعرف قصد هذه الفتاة بمجيئها اليه الى هذا المكان النائي عن « قطين »^(١) العرب .

وبعد أن اجهد تفكيره وحكم العقل والمنطق بات عنده مئة بالمئة أن هذه الفتاة لم تأت إلا بدافع قوي وإنما الذي يهيمه الآن هو معرفة كنه هذا الدافع : لبث يحلل أسرارهِ الإيجابية : ناقشه من الجهة الغرامية كما هو ظاهر الفتاة فلم يجد له سبيلاً معقولاً لأنه يعرفها معرفة جيدة فهي بعيدة كل البعد من أن تبذل نفسها وترخص عرضها له بهذه الصفة التي شاءت أن تتظاهر بها لولا أنه زجرها . فهو لا يشك بنزاهة عرضها وعفتها ومتانة أخلاقها كما انه لا يخامرهِ الشك أبداً بأن للفتاة رجالاً ذوي غيرة على أعراضهم ومحارمهم ، فلو قدر أن الفتاة أخلفت ظنه بها من قبل عفتها الصادرة عن نفسها فلا يمكن أن تخلف ظنه من قبل رزانه عقلم الذي يمنعها من ارتكاب العار لأنها تعقل أن خلفها رجالاً يضحون بأنفسهم وأولادهم وما يملكونه من المال دون دنس العار ، إذن انحصر تفكيره بجهة

(١) القطين ، بيوت الشعر التي يسكنها العرب .

معينة فقال لنفسه : لاشك ان عميد اسرتي «عمرو» أشفق على صحي التي يراها تنقص اليوم بعد اليوم فشاء ان يدفع هذه الفتاة طائناً أني مصاب بداء الغرام والعشق الخفي .

لا ريب أنه أصاب عين الحقيقة بفراسته هذه . لهذا تراه تفجرت قريحته وفاض شعوره بهذه القصيدة :

- (١) « يا عمرو يا مدلّاة يا نازل الخوف
أوذيتني وانتَ تُنشِد من العام » (١)
(٢) « يا خوفيدَ إليّ بك الطيّب موصوف
يا زين مضمودٍ لجا ليك منضام » (٢)
(٣) « لوزينوا لي هافني الخصر بشنوف (٣)
ما أبغيه لو إنّه على النفس عزّام »
(٤) « والله لو انه يؤمن من الخوف
في منزل ما فيه كفر ولا سلام »
(٥) « وما كل ، ولوزين لي الزاد بالخوف
لو به فقار وسيح الرز بايدام »

(١) المدلّاة ، الفتى الفاتك . تنشّد ، تسأل .

(٢) زين ، مأوى . مضمود ، مغلوب على أمره . لجا ، التجأ .

(٣) الشنوف ، قصب ترين به العبادة .

(٤) الخوف ، العناية . الفقار ، السنام . سيح ، سائل . الايدام ، يقصد السمن .

- (٦) « لو حِنْطَةُ الْبَلْقَا ، وَتَمْرَةٌ أَهْلِ الْجُوفِ »
 ما تَقْبُلُهُ نَفْسٌ عَلَيْهَا الطَّنَّا زام .
- (٧) « ما تُشَوِّفُ حَالِي كِنْنَهَا حَالُ أَبَا الْعُوفِ »
 أو حَالُ مُحْجُوبٍ عَنْ الزَّادِ صَوَّامٌ .
- (٨) « شَفِيٌّ مُفَوِّزٌ نَقْوَةُ الْغُوشِ مَنْقُوفٌ »
 خِيَّالُهُنَّ مِنْ بَيْنِ عَثْعَثٍ وَرُضَّامٍ .
- (٩) « أَقْلَطُ عَلَيْهِ وَالنَّزْلُ طُوفٍ وَرَا طُوفٍ »
 أَقْلَطُ عَلَيْهِ بُرْبَعَةُ الْبَيْتِ قِدَّامٌ .
- (١٠) « ثُمَّ اضْرُبْهُ بِسَلَّةٍ تَلْهَبُ الْجُوفُ »
 ما زَيْنَتْ عِنْدَ الصَّنَانِيْعِ بِلِحَامٍ .
- (١١) « إِمَّا عَلَيْهِ الْبَيْضُ يَصْفِقُنْ بِكَفُوفٍ »
 وَإِنْ عَاشَ مَا يَمْشِي عَلَى كُلِّ الْاِقْدَامِ .

-
- (٦) الطَّنَّا ، الشَّمَم . زام ، زاد وتجاوز الحد .
 (٧) أبو العوف ، دويبة أكبر من النملة . ما تشوف ، أما ترى . حالي ، جسمي .
 (٨) شَفِيٌّ ، قصدي . نَقْوَةُ ، صفوة . الْغُوشِ ، الفتية . مَنْقُوفٌ ، أبي النفس .
 بَيْنِ عَثْعَثٍ وَرُضَّامٍ ، بين السهل والوعر .
 (٩) أَقْلَطُ ، أقدم . النَّزْلُ ، البيوت . طُوفٍ وَرَاءَ طُوفٍ ، صف وراء صف .
 (١٠) السَّلَّةُ ، نصل الخنجر . الصَّنَانِيْعِ ، الحدادين .
 (١١) الْبَيْضُ ، النسوة .

(١٢) « أَلَيْ كَسَانِي تَوْبٍ أَسُودَ وَأَنَا شَوْفُ
خَلَّةٌ يَقَعُ فِي سَهَرٍ عَيْنِي وَأَنَا نَامٌ »

(١٣) « مِنْ عَقِبٍ مَآيَ قَنْبٍ حَطِئِي صَوْفُ
خَلَّانُ لِلْحَضَرِ الْمُقِيمِينَ فَحَّامٌ ^(١) »

وإليك شرح الآيات :

(١) يَا عَمْرُو يَا لَمَدَلَاةٍ يَا نَازِلِ الْخَوْفِ
أَوْذَيْتَنِي وَأَتَتْهُ أَتَشَدُّ مِنْ الْعَامِ

يوجه بطل الحادثة مسؤوليته وكلامه إلى ابن عمه (عمرو) فهو
يقول يا عمرو يا لمدلاة يا نازل الخوف ، (المدلاة) هو الشجاع المغوار
المبالغ في اقدامه الذي لا يتقدمه بفروسيته احد ويقال (المدلاه)
ايضاً بدون التاء المربوطة يقصد بها الرجل الموثق للقوم اي
الشخص الاجتماعي الذي لا يُبل حديثه ولا يتكلم إلا عن حكمة
هذا معنى ولكن المعنى الأول بقصد الشاعر اقرب وذلك بدلالة
نعتة له بقوله (يا نازل الخوف) اي ايها الشجاع الذي تختار المنزل

(١) من عقب : من بعد . ماني ، ما أنا . حطني ، صيرني . خلَّانُ ، جعلني .

الخصب لماشيتك حتى ولو كان هذا المنزل بطبيعة حاله مخيفاً ومرهوباً من قبل صولة العدو الجاثم لك بعدته ورجاله ولكنك يا عمرو تقطن هذا المكان المخيف ولا يتخلل الى قلبك الخوف من هذا العدو القوي .

وفي العجز يقول :

آذيتني يا عمرو بالحاحك علي وكثرة سؤالك لي وذلك من العام الماضي وأنت تبحث عن أسباب ضعف صحتي .

٢ — يَا خَوْفِيْدَ الْيْ بِكَ الطَّيْبَ مَوْصُوفُ

يَا زَيْنَ مَضْهُودٍ لَجَالِيكَ مِنْضَامُ .

يكرر الشاعر المدح لعمرو ويكنيه بأخيه فيهد (يَا لِيْ بِكَ الطَّيْبَ مَوْصُوفَ) (الِّي) دائماً تكون بمعنى الذي فهي اسم موصول وقوله (بك الطيب موصوف) أي انك مثال أعلى متصف بجميع القيم الأخلاقية والطيب معنى شامل لجميع السجايا الحميدة فإذا قال قائل بلغتكم الشعبية ان فلاناً اطيب من فلان معناه ان مجموع سجايا الأول الجميلة أكثر من الثاني .
يا زين مضهودٍ لجاليلك منضام : زين بمعنى مأوى مضهود أي مقهور . لجاليلك : استجار بك يمدح عمرأ ويقول يا أيها البطل الذي تؤوي وتجير الرجل المستجير بحماك ولا يستطيع احد أن يخفر ذمتك مهما كانت جريمة مستجيرك

٣ • لَوْ زَيْنُوا لِي هَآفِي الْخَضِرُ بُشْنُوفُ

مَا أَبْغَيْهِ لَوْ أَنَّهُ عَلَى النَّفْسِ عَزَامُ ،

يشير الشاعر إلى الفتاة التي بعثها « عمرو » إليه ويقول : لا تظن انكم اذا زينتكم لي هذه الفتاة الناعمة الخضر ، المجلمة بلبس الشنوف ، والشنوف نسيج حرير ينسج على ثياب نساء العرب وعباءاتهن فهو يؤكدهمرو بأنه ليس في نفسه أقل شيء ، من الميول إلى ما يظنه به من الغرام بالنساء فتراه يزيد تأكيداً بقوله : مَا أَبْغَيْهِ لَوْ أَنَّهُ عَلَى النَّفْسِ عَزَامُ . أي انني لا أريد هذه الفتاة الحسنة قطعياً حتى ولو انها رمت نفسها علي . وراودتني عن نفسي فلا يمكن ان تستفزني مهما فعلت من مداعبتها لي ومهما يبلغ بها الجمال فإنها لا تستطيع ان تصرف همتي عن مغزاها الأسمى .

٤ • وَلَا أَكُلْ وَلَوْ زَيْنَ لِي الزَّادَ بِالْخَوْفِ

وَلَوْ بُهَ فَقَارٌ أَوْ سِيحُ الزَّادِ بَايْدَامُ

يفيدنا انه لم يكن لديه رغبة بالأكل ولو كان الأكل معتنى به عناية كاملة . وهنا يوضح لنا الشاعر ان لحوم الإبل هي من أذم ما كولات البادية ولا سيما ظهر الناقة السمين خاصة اذا طبخ مع الرز وصب عليه السمن كما وصفه لنا بقوله : لوبه فقار ، أي لو في الأكل ظهر ناقة ثم قال : لو سيح الزاد بايдам ، أي صب على الرز والخبز السمن والمرق فهو يقول : لو أتيتني بالطعام من هذا النوع فلا يمكن ان آكل منه شيئاً .

(٥) « لو حنْطَةَ البَلْقَا وَتَمْرَةَ أَهْلِ الجُوفِ »

مَا تَقْبَلُهُ نَفْسٌ عَلَيْهَا الطَّنَا زَامٌ »

بهذا البيت يعطينا الرجل صورة صادقة عن أجود وألذ ما يقتات به رجال البادية وهي كما قال ، حنطة البلقاء ، والبلقاء هذه هي الأرض التي بحدود شرقي الأردن وهي أرض زراعية من جملة زراعتها الحنطة الطيبة كما قال الشاعر . ثم يقول : وتمرة أهل الجوف ، الجوف : بلاد تعرف قديماً بدومة الجندل التي هي أحد أسواق العرب في الجاهلية تقع بين الشمال والغرب عن نجد وهي مشهورة بحسن وجودة التمر ، لهذا ترى الشاعر يقول : لو قدم له مع ظهر الناقة المطبوخ على الرز والسمن ايضاً حنطة البلقاء وتمرة الجوف لا يمكن أن تقبله نفسه الأبية كما وصف حاله بقوله : مَا تَقْبَلُهُ نَفْسٌ عَلَيْهَا الطَّنَا زَامٌ ، الطنا ، الشمم والإباء والغضب ، وزام ، بمعنى طاف وتعدى الحد فهو يقول أَن نفسه بلغت من الهم والغضب الشيء الذي تجاوزت به الحد المعتدل حتى انها أصبحت ترى هذه المآكل الشبيهة اللذيذة الطعم في طبيعتها : أَمَرَّ من الحنظل على نفسه الجبارة الأبية :

« ٧ » « مَا تَشُوفُ حَالِي كَانَهَا حَالُ أَبَا العُوفِ »

أَوْ حَالُ مَحْجُوبٍ عَنْ الزَّادِ صَوَّامٌ »

يعود الشاعر يخاطب ابن عمه عمرو بقوله : ما تشوف حالي كأنها حال أبا العوف ، أبا العوف : دويبة صغيرة اكبر من النملة قليلاً وهو

يشبه النملة كثيراً ، ويقال له في جنوب نجد القِغْس ، فالشاعر يشبه رقة حاله ونحول جسمه بهذه الدويبة التي هي من انحل الدواب ، او حال محبوب عن الزاد صَوَّام ، يقصد ان جسمه وصل من الهزال الى حد لا يصل اليه إلا الرجل الذي أصيب بمرض مزمن ومنعه الطبيب من اكل الطعام قطعياً فلا يأكل من القوت إلا ما يمنعه من الموت فقط والمقصود انه يخاطب ابن عمه عمرو ويقول له انك حينما رأيتنى بهذه الحالة الصحية السيئة ظننت ان نحولي هذا من اسباب مرضية أو بات عندك بالأكثر ان ذلك من دافع عشق وغرام بالنساء ولكن نحول جسمي هذا بعيد جداً عما تتصوره وتظنه فيَّ يا ابن عمي الذي اخطأت نظريتك فيَّ خطأ عظيماً .

وهذا المعنى من الشاعر ماجد الحثري هو طبق الأصل لأبيات على بن مُقَرَّب الأحسائي القائل :

يظن نحولي ذو السفاهة والغبا غراماً بهند واشتياقاً الى دعد
لعمرك ما هند بهمي وان دنت ولا لي بدعد من غرام ولا وجد
ولكنَّ وجدي بالعلا وصبايتي بعارفة اسدى ومكرمة اجدى

(٨) شَفِيَّ مَفَوِّزُ نَقْوَةِ الْغُوشِ مَنْقُوفُ

خِيَالِهِنَّ مِنْ بَيْنِ عَشْعَثٍ وَرَضَامُ

الآن الشاعر أعلن وصرح بالسر الذي جعله يهجر اجل الفتيات ولا يلتفت إليها وتعاف نفسه ألد المآكل واشهاها اليه والذي جعل جسمه يفتك به الهم والآلام حتى بقى هيكلاً اجوف وعظماً عارية من اللحم وعروفاً خالية من الدم ، ينبئنا الشاعر ان هذا كله من اسباب قهر مفوز له . أما تراه يقول : (شفى مفوز نقوة الغوش منقوف) ، اي قصدي وغاية ما تتمناه نفسي هو القضاء على (مفوز) وقوله : نقوة اي صفوة و الغوش الفتيان الباسلون أما قوله منقوف فـ « المنقوف » هو منتهى ما تبلغ به نفسية المرء من الإباء والشمم أي السميزع الذي لا تلين له قناة ولا يستطيع احد أن يخفر له ذمة . وكل هذا الاطراء صادر من ماجد لصديقه السابق مفوز فهو يثنى على مفوز بالشيء الذي يعلمه منه ويشيد بما يعتقد أنه موجود فيه من السجايا الحميدة وهذا من شيمة العربي فلا يمكن ان ينكر ما لخصمه من الفضائل والمزايا الحميدة مهما بلغت العداوة بينهما حتى ولو وصلت الى حد سفك الدم ، وها هو ذا يؤكد لنا بعجز البيت ثناءه على شجاعة مفوز وفروسيته ايضاً . خيالهن ما بين عثعث ورضام - خيالهن - اي فارس الخيل العظيم - ما بين عثعث ورضام - اي انه متدرب على ركوب الخيل سواء كانت الخيل تجري بأرض رملية سهلة او بأرض صخرية خشنة فهو لا يهمه ذلك بحكم فروسيته ومهارته وممارسته لركوب الخيل .

(٩) « أَقْلُطْ عَلَيْهِ وَالنَّزْلَ طَوْفٍ وَرَا طَوْفٍ

أَقْلُطْ عَلَيْهِ بُرْبَعَةَ الْبَيْتِ قَدَامَ »

هنا يوضح لنا الشاعر البطل قوة ارادة نفسه التنفيذية ويرسم لنا العملية التي سوف ينتقم بها من (مفوز) (اقلط عليه والنزل طوف وراء طوف) أي اني سوف اقدم على مفوز وان كانت بيوت البادية مطوقة بيته ومتراكماً بعضها فوق بعض فهذا بزعمه لا يجعله يخشى من الأقدام على (مفوز) والفتك به (اقلط عليه بربعة البيت قدام) هذا زيادة تأكيد لما سبق في صدر البيت الأول .

(١٠) « ثُمَّ أَضْرِبْهُ بَسَلَةً تَلْهَبُ الْجَوْفَ

مَا زَيْنَتْ عِنْدَ الصَّنَانِيعِ بِلْحَامِ »

يصف الشاعر انه سوف يقدم على (مفوز) وسيضربه بسيف أو خنجر وهو معنى قوله (سلة تلهب الجوف) أي أن هذا السلاح الذي سوف يضرب به مفوزاً سيحرق أمعاه كلهيب النار (ما زينت عند الصنانيع بلحام) أي ان حديدة هذا الخنجر أو هذا السيف ليست بحاجة الى الحداد ليصقلها أو ليسنّها فهي بطبيعتها مصقولة مسنونة .

(١١) « إِمَّا عَلَيْهِ الْبَيْضُ يَصْفِقُنْ بِكُفُوفِ

وَأَنْ عَاشَ مَا يَمْشِي عَلَى كُلِّ الْأَقْدَامِ »

يقول انه سوف يضرب (مفوزاً) الضربة القاضية فاما أن يقتله
وهذا معنى قوله (إما عليه البيض يصفقن بكفوف) ذلك أن نساء البادية
ينحن ويندن على الشجاع إذا قتل (والبيض) يعني النساء يصفقن
بكفوفهن على القتيل . (وإن عاش ما يمشي على كل الأقدام) يقول
ماجد أنه سوف يضرب مفوزاً الضربة التي إما ان تقضي على حياته مرة
واحدة وإما ان يقطع بها ساقيه فلا يستطيع بعدها أن يمشي على
رجليه سليماً . وهذا معنى قوله : وان عاش ما يمشي على كل
الأقدام .

(١٢) اللّٰي كَسَانِي ثَوْبٍ أَسْوَدَ وَاَنَا تُشُوفُ
خَلَهُ يَقَعُ فِي سَهْرٍ عَيْنِي وَاَنَا نَامُ

اللّٰي ، أي الذي سود وجهي بين عشيرتي وألبسني العار وجعلني
أسهر الليل من الهم وهو مع ذلك هادى ومرتاح ويناام مطمئناً لا يشغل
باله شيء مني : خله يقع في سهر عيني وانا نام ، أي سادعه يسهر من الغم
والغبن كما كنت ساهراً حزيناً بسبب عمله ثم يقول : وانا نام ، اي اني
بعد ذلك يطيب لي النوم .

(١٣) مِنْ عَقِبِ مَا أَنَا قَتَبٌ صِرْتُ أَنَا صُوفُ
خَلَّانَ لِلْحَضَرِ الْمُقِيمِينَ فَحَامُ

يقول إن مفوزاً أراد بعملية هذه ان يغير مجرى حياتي ، فتراه يقول : من عتب ما انا قنب صرت انا صوف ، اي جعلني اسود بعد ان كنت ابيض ، ويعبر عن ذلك بطريق التمثيل فالقنب هو الحبل الأبيض والصوف اسود وهو يريد ان مفوزاً نال من شرفه وصيره اسود بعد ما كان ابيض : خَلَّانُ لِلْحَضَرِ الْمُقِيمِينَ فَحَامٌ ، ولما كان رجال البادية يزدرون كل الازدراء الرجل الذي يبيع الفحم منهم ، فإننا نجد هذا الشاعر يقول : إن مفوزاً جعلني بمثابة الرجل الذي يبيع الفحم لأهالي المدن .

لقد سمع عمرو هذه القصيدة بأذنه وذلك انه بعدما فشلت سياسته بدفعه للفتاة هناك ، قال في نفسه : إن ماجداً شاعر سريع البديهة ولا بد من أن تجود قريحته بقصيدة يترنم بها ويغنيها على « ربابته » .

ولقد أصاب عمرو بظنه هذا حيث هب من الصباح الباكر يقتفي اثر ماجد حتى دنا من مكانه الذي يختلي به عن الناس وهناك بقي محتفياً بالموضع الذي لا يتمكن ماجد من رؤيته ، عند ذلك قام البطل الشاعر يلحن قصيدته على ربابته ولقد سمعها عمرو بأذن واعية ولكن ماذا يفعل ؟

هذا وقد كان ماجد راسماً خطته التي سيقضى بها على صاحبه (مفوز)

وبينما كان (مفوز) يسقي فرسه من الغدير أتاها ماجد من الأمام وطعنه بسيفه طعنة بتر بها إحدى ساقيه فوراً ، ثم امتطى فرسه والتجأ إلى بيت آل هذال الذين هم شيوخ قبيلة عنزة فسرعان ما هب (مطلق الجرباء) ورؤساء العشائر معه يطالبون ابن هذال بتسليم هذا المجرم الذي خرق اتفاقية المعاهدة بعمليته هذه .

لقد أخرج موقف ابن هذال بهذا الملتجئ ، ذلك أنه إما أن يفعل ما تقتضيه معاهدة المؤتمر التي تنص على تسليم المجرم ، فيسلم مستجيره وهذا عمل يخالف ما تقتضيه شيمة العرب ، وإما أن يمتنع عن تسليمه ويحميه فينكث بذلك العهد وهذا شيء قبيح أيضاً . فبقي ابن هذال لا بُدَّ له من ارتكاب أحد الشرين إما نكث العهد أو تسليم مستجيره الذي لم يسبق لأحد من العرب أن سلم مستجيره .

اجتمع رجال اسرة آل هذال عن بكرة أبيهم وتداولوا الرأي ، وكانوا بين رأيين هذا وكان ماجد يسمع كل البحث الذي دار في صدره واتضح له أن رأي أكثرية القوم يرجح الوفاء بالعهد تنفيذاً لاتفاقية المؤتمر ومعنى ذلك تسليمه (لمطلق الجرباء) الذي لا شك أنه سيضرب عنقه وذلك لأمرين : أولاً أنه « شمري » ومطلق هو رئيس عشيرة شمر قاطبة وهو الضامن لها عن مثل هذه الحوادث ثانياً : أنه الكفيل العام لعموم القبائل

فأصبح ماجد بعمليته هذه قد خفر ذمة رئيسه مطلق أكثر من غيره من رؤساء العشائر . وماجد يعلم هذا لأنه ما التجأ إلى ابن هذال شيخ قبيلة عنزة إلا خوفاً من شر (مطلق الجرباء) .

هذا وقد رأى ماجد أن ابن هذال سيفي بعهدده ويتخلى عنه ، لذلك مال إلى رئيس آل هذال وقال: يظهر لي أنكم ستفون بعهدكم ولكن أريد منكم أن تتركوا سبيلي حتى التجيء إلى غيركم .

عندها رأى ابن هذال أن في هذا الرأي خلاصه من المأزق الحرج . فقال : لا بأس نخلي سبيلك . قال ماجد: إنكم يا آل هذال أصحاب رأي وعقل فأريد أن ترشدوني إلى رئيس العشيرة الذي باستطاعته أن يحيرني ويخرق الاتفاقية . فأشاروا عليه أن يذهب إلى بيت (دَغِيم^(١) بن سُوَيْط) ويستجير به . فامتطى فرسه وهرع إلى بيت ابن سويط مسرعاً . وكان رئيس عشيرة آل سويط في ذلك العهد هو الرجل الذي نوه الشاعر بذكره في قصيدته الآتي شرحها في آخر هذه القصة . هذا وقد علم مطلق الجرباء وروساء العشائر معه بأن ماجداً استجار بابن سويط . وهناك اجتمع رؤساء القوم من عموم القبائل المتحالفة وذهبوا لبيت ابن سويط مطالبين إياه باللين تارة وبالغلظة تارة أخرى من أجل أن يسلمهم هذا المعتدي ولكن

(١) دغيم بن سويط هو رئيس عشيرة الظفير .

ابن سويط ضرب بكلام القوم عرض الحائط وكانت مطالبتهم بتسليمه ضرباً من العيث رغم ان مطلق الجرباء ورؤساء عشائر البادية كلهم اصبحوا ضده فاتفقت قبيلة عنزة وقبيلة شمر كلتاهما على محاربته فيما اذا رفض تسليم المجرم ، اضاف الى ذلك انه سيحرم ماشيته المرعى وذلك حسب الاتفاقية التي ابرمت في المؤتمر . كما انه يعتبر بعمليته هذه ناكثاً بعهده . وكان ابن سويط شجاعاً لا تلين له قناة ولا يهमे ان تتفق عليه القبيلتان بل ولو اجتمعت العرب كلهم عليه قاطبة ، ما أهمه ذلك ، كما انه لا يهमे حرمان ماشيته من المرعى الخصب ، وهذه العوامل وان كانت مهمة لا يمكن ان تجعله يسلم مستجيره حتى ولو تلف هو وعشيرته وماشيته ولكن العقبة الكؤود والمشكلة التي هي أم المشاكل هي قضية العهد ، تلك المشكلة التي جعلت ابن هذال لا يقبل ان يخير ما جداً ، هذا وقد اجتمعت اسرة آل سويط قاطبة منفردين لوحدهم يحاولون معرفة الطريقة التي يخرجون بها من نقض العهد وهم حريصون ان يجدوا لهم المنطق الصريح والحجة المقنعة أو شبه المقنعة التي اذا احتجوا بها كانت عذراً مرضياً موافقاً لقوانين العرب وعاداتهم ويكونون بالتاسهم لهذه الحجة قد انجوا انفسهم ولم يعتبروا ناكثين للعهد حسب المنطق القبلي^(١) بينما آل سويط

(١) لأن أهل البادية لهم انظمة خاصة وداير معتبرة كما ان لهم قضاة لا يحيص لهم من تنفيذ الأمر الذي يحكم به هؤلاء القضاة .

يدرسون الأمر ويفحصون بشدة عن السبيل الذي يمكنهم من حماية
مستجيرهم ولا يجعل للعرب عليهم سبيل ملامة في نكث عهدهم ، عندما
كانوا ينقبون عن الطريقة المنجية دخلت عليهم العجوز التي هي أم شيخ
القبيلة « دغيم بن سويط » وهم في هذه الحالة فصرخت في وجه ابنها
وقالت : أراك حيران في أمرك وكأني أرى ان لديك من الوهن ما
يجعلك تسلم مستجيرك ، والله لئن فعلت ذلك لأقطعن الثدي الذي
رضعت دره .

- دغيم : معاذ الله يا والدتي ، كيف تظنين بابتك النجيب هذه
الظنون ؟ وهل من المعقول اني أسلم من استجار بحماي ولاذ بجواري ؟
هذا شيء من المستحيل عليّ فعله وإنما الأمر الذي نحن في حيرة منه هو
قضية العهد الذي تعاهدنا عليه في المؤتمر الذي تنص إحدى مواده على ان
لا يجبر أحد من رؤساء العشائر احداً من المعتدين ، هذه القضية يا
والدتي هي التي بقيت حجرة عثرة في حل مشكلتنا العويصة ولما كنت
تعرفين من قوانين العرب اكثر مما نعرفه نحن الشباب كما انك مشهورة
وموفقة دائماً بالرأي السديد لهذا نرغب بأن تهدينا السبيل الرشيد الذي
نسير على ضوئه ونصل به الى الطريقة التي تقينا شر وصمة عار نكث
العهد .

- أم دغيم : الأمر سهل يا بني ولا يحتاج الى كل هذه الحيرة
وهذا العناء .

- دغيم : ليس هو بالسهل بل انه مشكلة المشاكل يا والدتي فان
كنت تعرفين حلاً لمشكلتنا فارشدينا فاننا بأمر ما يكون من الضرورة
الى الطريقة المعقولة التي تشفع لنا بهذا الموقف الحرج .

- أم دغيم : ابشري يا بني سأتيك بالحجة التي تجعلك تحير مستجيرك
وانت ناصع الجبين ابلغ الوجه مرفوع الرأس .
- دغيم : هاتِ يا أماء فإنه فرغ صبري .

- أم دغيم : أستم يا بني عقدتم مؤتمركم هذا وتعاهدتم في الوقت
الذي كنتم ذاهبة في سيلي الى الحج وأخذت بويتي (١) الصغير
هذا معي .

- دغيم : بلي يا والدتي حفظك الله .

- أم دغيم : وهل كان هذا البيت وصاحبه حاضرين لمعاهدتكم
تلك ! . أم أننا كنا في الحجاز وبعيدين عن هذه المعاهدة كل البعد .
- دغيم : بل إنك كنت وبويتك في الحجاز ونحن أبرمنا معاهدتنا في

(١) تصغير بيت .

شمال نجد .

- ام دغيم : وهل كان في المؤتمر المعقود أو معاهدتكم المشؤومة مادة
تنص على ان هذا البويت الغائب تشمله المعاهدة .

- دغيم : لا ليس فيه شيء من ذلك عفا الله عنك .

- ام دغيم : وهل في معاهدتكم مادة تنص على أن المستجير يسلم فيما إذا
استجار ولاذ في أحد بيوت النساء دون الرجال ؟

- دغيم : لم يكن ثمة مادة تنص على ذلك ابداً في المعاهدة .

- ام دغيم : إذن سلمني مستجرك هذا لأدخله في بويتي الصغير الذي
لم يحضر المعاهدة لا هو ولا أنا ، فإذا استلمت المستجير بيدي فيكون قد
تخلّى عن بيتك والتجأ إلى بيتي ، فإذا فعلت ذلك لم تكن نكثت بالعهد
وذلك من وجهتين أولاً : أن هذا البويت وصاحبته لم يحضرا المعاهدة ،
ثانياً : أنه لم يكن في معاهدتكم ما ينص على أن المستجير في بيوت النساء
من عجائز وفتيات يسلم .

- دغيم : بارك الله فيك من أم حكيمة رشيدة. لقد حللت الاشكال
وهذا هو المستجير فخذه بيدك وادخله بويتك^(١) ؛ هرعت العجوز

(١) أخذ آل سويط ميزة خاصة عند العرب بعمليتهم هذه فاصبحوا ينعتون
بأهل البويت من ذلك التاريخ حتى الآن .

وأخذت ماجدا وادخلته بويتها الذي لم يحضر المعاهدة لاهو ولا صاحبه
ومن ثم هرع أمراء القبائل وعلى رأسهم الشيخ مطلق الجرباء الذي كان
أشد القوم حرصاً ومطالبة باستلام هذا المجرم الذي خرق القوانين وانتهك
حرمة المعاهدة ولكن هذا المجرم التجأ الى حصن شديد البأس
صعب المنال. فأصبح لديه من الحصانة ما يحميه من استلام (مطلق
الجرباء) له .

واشتد النزاع وحاول الجرباء بشتى الوسائل أن يستلم هذا المستجير
ولكن محاولاته باءت بالاخفاق الذريع . وأخيراً هدد الجرباء آل
سويط بسوء ما ينجم من عاقبة سيئة وخيمة نتيجة نقضهم المعاهدة
واصرارهم على حماية المجرم، ولكن آل سويط قوم لا يقع لهم بالشنان؛
فقد أصروا على عدم تسليم مستجيرهم، واحتجوا بحجة العجوز وتمردوا على
مطلق الجرباء ورفساء العشائر جميعاً .

هذا وقد كان عمل آل سويط هذا سبباً إيجابياً لنقض المعاهدة، وفعلاً
قد انتقضت هذه الاتفاقية بسبب هذه الحادثة . وها هو ذا بطلها ماجد
الحثري يمتدح آل سويط بقصيدته هذه ويهجو آل هذال الذين لم
يجبروه فيقول:

١ « بَلْعُونْ مَا سَرُونْ أَوْلَادَ وَايِلْ

عَيُونِ الصَّخُولْ ، مَرَضِعِينَ الْأَسْلَهْ

يقول ماجد : أن أولاد وائل الذين هم آل هذال ما أجاروني وما أدخلوا في قلبي الأمان والسرور كما فعل آل سويط وهو في البيت التالي يوضح هذا المعنى فيقول :

(٢) « ما ظَلَّ لي غير السَّوَيْطَاتِ ظَايِلِ

أَدْغِمَ ثَنَىَ بالسَّيْفِ دُونِي وَسَلَّهُ »

يقول ان الذين أجاروني هم آل سويط ويخص من آل سويط أميرهم الشيخ دُغيم ويقول انه لم يبق لي من رجال القبائل القاطنين على هذا الماء مجير غير آل سويط فلا شمر ولا غيرهم .

٣ « سَوَيْطَاتُ يُعْطُونَ الْمَهَارَ الْأَصَائِلِ

وَالْمَعْرِقَةَ وَعَنَانَهَا تَبْعَةً لَهُ

الشرح : يمدح الشاعر آل سويط ويقول إنهم علاوة على ما فيهم من نجدة وحماية للجار فهم مع هذا كله كرماء اسخياء يهبون الخيل الجياد الأصائل والعرب يعتبرون أن الرجل أو الأمير الذي يبلغ به الكرم إلى أن يهب الفرس الأصيل فهذا يكون عندهم قد بلغ الذروة القصوى في الكرم لأن الفرس في ذلك الوقت ولا سيما الأصيل بمثابة الاسطول الجوي في العصر الحاضر . وهنا نأتي بالقصيدة بعد شرحها .

قال ماجد الحثري :

- ١ - بِالْعَوْنِ مَا سَرَوْنَ أَوْلَادُ وَايِلْ
عُيُونُ الصَّخُولِ مَرْضَعِينَ الْإِسْلَهْ
- ٢ - مَا ظَلَّ لِي غَيْرَ السَّوِيَّاتِ ظَائِلْ
ادْغِيْمَ ثَنَى بِالسَّيْفِ دُونِي وَسْلَهْ
- ٣ - سَوِيَّاتٌ يُعْطُونَ الْمَهَارَ الْأَصَائِلْ
وَالْمَعْرِفَةَ وَعَنَانَهَا تَبْعَةً لَهُ

وفاءه بالمرء

اضطره أن يقتل أخاه

قصة نهار ^(١) الاحدي مع أخيه صالح وقعت بتاريخ
١٣٣٠ هـ على وجه التقريب

قبل أن يوحد الجزيرة العربية المغفور له البطل عبد العزيز
آل سعود ، كان لا يستطيع أن يمشي بالصحراء إلا القوم الكثيرون
الأقوياء بعدتهم الحربية ، وإلا فيكون الماشي بها لقمة سائغة لعرب
البادية ، ولا سيما طريق مكة والمدينة ، فان ثمة لصوصاً لا معيشة لهم إلا

(١) نهار من قبيلة حرب .

من هذا السبيل ، فهم كما قالوا بمثلهم الذي يعبر لنا عن حياتهم الاجتماعية . أوضح تعبير « رزقنا على الحاج ورزق الحاج على الله » . والذي يهون الأمر نسيباً هو أن لهم تقاليد عرفية كان فيها من المناعة ما يتقي بها عابر السبيل شر بعضهم ببعض . مثال ذلك ان المسافر اذا شاء ان يذهب الى جهة ما يتحتم عليه ان يأخذ شخصاً من هؤلاء العرب الذين يمر بسبيله على ارضهم ، ويسمى هذا الشخص (رفيق) ، فهم يعطونه من المال ما جرت العادة به . وهذا (الرفيق) يتحتم عليه أن يحمي دماءهم وأموالهم ولا يستطيع احد ان يمسهم بسوء ، لاسيما اذا كان رفيقهم شجاعاً قوياً الشخصية ، او عميد أسرة ، أو له اخوان وابناء عم شجعان منيعو الجانب ، فاذا توفرت هذه الشروط بالرفيق ، كان المسافرون في أمان لا يزغزع ، وكما كان الرفيق ضعيفاً في شخصيته كان الخطر على المسافر اكثر .

وهذا الرفيق لا يقدر أن يحمي المسافر إلا من عرب عشيرته فقط . وكثيراً ما يحتاط المسافرون للأمر فيكون معهم من كل قبيلة رفيق ، لاسيما اذا كان الطريق بعيداً وتلزمهم ضرورة السفر أن يملأوا على عشرات متعددة . وهكذا كانت الجزيرة في العهود الغابرة .

هذا وقد كان فريق من أهل نجد وهم من بلدة حائل أدوا فريضة الحج وزاروا المسجد النبوي — على ساكنه أفضل الصلاة والسلام — واستعدوا للعودة الى اوطانهم ، فاضطروا الى ان يأخذوا معهم « رفيقاً » من بادية المدينة الذين هم قبيلة حرب . فساقهم القدر الى شخص يسمى «نهار الأحدي» . فتم الأمر بينهم وبينه حسب التقاليد المرعية ، وخرج القوم ورفيقهم من المدينة قاصدين اهلهم . وقبل ان تتوارى عن أعينهم جدران المدينة ، هناك اصطدم القوم « بصالح الأحدي » شقيق رفيقهم «نهار» . فطلب صالح هذا من القوم ان يعطوه « حقه » ومعنى ذلك أن له حقاً واجباً على المسافر الذي يعبر هذه الأرض التي يقطنها . فعليه أن يسلم له من المال . وهذا المبلغ حسب الاصطلاحات الجارية فيما بينهم أنه « حق » له ، يأخذه منهم جبراً . ولكن على شرط ألا يكون معهم رفيق من قبيلة صالح هذا أو من عشيرته ، اما اذا كان احد من أولئك فلا يكون له حق ، لوجود الرفيق الذي قد تعهد حمايتهم . أما وقد كان رفيق القوم نهراً أخا صالح الشقيق فأصبح ليس من واجبهم ان يدفعوا شيئاً كما انه ليس من حقه ان يطالبهم بشيء . ولكن يظهر انه شاء ان يتمرد على القوانين ويأخذ « حقه » كما يدعي من هؤلاء القوم سواء رضي أخوه أو لم يرض .

والذي يتبادر لنا من ظاهر أمره أنه لا يرى للعهود وزناً في نفسه - ودائماً ما يرى المرء الناس بالعين التي يرى بها جبلته - لهذا تراه اعتقد ان اخاه لن يرعى للعهد قيمة . ولكن اخاه اخلف ظنه .

حاول نهار مبدئياً أن يقنع اخاه بالتي هي احسن ومن طريق المنطق، مؤكداً له بأن هؤلاء القوم اصبحوا في جواره وبعهده وضمائنه، وانهم لم يخرجوا من المدينة إلا بعد ان اعطاهم عهداً وثيقاً ، فعلى هذا الأساس لا يمكنه إلا ان يفي بعهده ويحمي جواره مهما كلفه الأمر . بهذه العبارات الرقيقة كان رفيق القوم يلتمس رضى اخيه ، ويحاول إقناعه . ولكن أخاه صالحاً لم يقنع .

هَبْ نهار مرة اخرى يلتمس رضاء أخيه قاصداً إغراءه بالمادة فقال له : يا اخي إن كان يرضيك ان اتجرد عن كل ما أملك من المال وأهبه لك بما فيه هذا المبلغ الذي أخذته من القوم مقابل حفظي وحراستي لدمائهم واموالهم ، إن كان يرضيك ذلك فقد وهبتك إياه رغبة لا رهبة وذلك حرصاً على ألا تسيء الى رفاقي بالشيء الذي من شأنه أن يمس كرامتي ويخفر ذمتي . فأجابه الباغي بعنف وسخرية قائلاً : انا لست بحاجة الى ان تحسن إلي من مالك ، انا اغنى منك مالاً ونفساً ، وانا إن طالبت بشيء فلا اطالب إلا بحقي الذي سأأخذه رغم أنفك وأنف

رفقائك .

طفق نهار آخر الأمر يناشد أخاه بالله والرحم فقال : ناشدتك الله
والرحم على أن تخلي سبيل رفاقي ولا تخزني بين قومي بنقضك عهدي ،
وهتكك لحرمة جوارى . فلم تزد مناشدته هذه أخاه إلا تمرداً وطغياناً .
فابتلى نهار وامتحن بمخاطبة هذا السفیه الذي عبر عن امثاله المتني :

ومن البلية عذل من لا يرعوي عن غيه وخطاب من لا يفهم

لقد رأي نهار أنه بذل شتى الوسائل وأنجع الأسباب المجدية التي
تجعل أخاه يترك سبيل قومه : محاولاً بذلك استثارة عاطفته واستفزاز
شعوره ولكنه لم يلب له قلب . اذن فستضطره حماقة أخيه أن يقبل نصيحة
الشاعر القائل :

إذا كنت بين الحلم والجهل ناشئاً

وخيرت أنى شئت فالحلم أفضل

ولكن إذا أنصفت من ليس منصفاً

ولم يرض منك الحلم فالجهل أمثل

عند ذلك حذر نهار أخاه سوء عاقبة تمرده هذا بطريقة التلميح
والإشارة . ولكن الباغي لم يردعه التحذير ولم يأبه له ، لقد فرغ الآن
صبر نهار وعمد إلى تنفيذ أمر كان يضمرة في نفسه لحل المشكلة ولكنه

أمر ليس باليسير عليه تنفيذه وإنما الذي أرغمه على الإقدام عليه هو أخوه الطائش.

الآن خاطب نهار أخاه صالحاً بالصراحة الجلية فقال: يا ابن أبي وأمي إنه قد فرغ صبري وأنا أرجوك ، ولا شك أنك ستجبرني على ارتكاب أحد أمرين إما أن اترك شأنك لتنقض عهدي وتهتك حرمة جواربي وهذا شيء مستحيل عليك ما دمتُ حياً سليماً ، الشيء الثاني أنك ستضطرنني الى قطع رحمي وبتر ساعدي الأيمن وتيتيم أبناء أخي وهذا ليس من شيمتي احتماله ولكنه اهون الشرين عندي .

كان نهار يخاطب أخاه وهو في تلك اللحظة شاهر السلاح بوجه أخيه ، وقد كانت رصاصة البندقية في بيت النار ولم يبق سوى التنفيذ . ومع هذا كله لم يرتدع أخوه بل هجم على القوم ليسلب منهم ما لهم بالقوة فلم يسع نهار إلا اطلاق الرصاصة التي خرقت رأس أخيه فخر ميتاً . أما نهار فهب يوارى جثثانه فوراً ، ثم واصل سيره مع رفاقه حامياً لجواره وفيأ بعده ، حتى أوصلهم الجهة التي تم الاتفاق بينه وبين القوم ان يوصلهم إياها .

ثم عاد الى اهله لم ينكث عهداً ولم تخفر له ذمة^(١) .

(١) القصة مشهورة .

وفاء وتفحية بالمال والجاه والاهل

قصة عجمي بن سعدون مع كوكس^(١) الانجليزي
وقعت ابان الحرب العالمية الأولى سنة ١٣٣٣ هـ

عندما اندلعت نار الحرب العالمية الاولى كان عجمي^(٢) باشا ابن سعدون يحارب بجانب الأتراك وذلك بدافع عقيدته الاسلامية ولم ينخدع بالثورة العربية التي استمدت قوتها من الانكليز كما انخدع غيره من ساسة العرب بل كان عجمي منتبهاً لهذه الناحية وقد ادرك ان الانكليز لا يمكن ان يغدقوا المال على قادة العرب ويمدوهم بالعتاد رحمة بهم ومودة لهم ، وإنما أرادوا ان يتخذوهم مطية لهم كما كان الأمر . وقد حاول الماكر الانجليزي كوكس أن يغري عجمياً بالمال ليستغل بطولته وزعامته كما أغرى غيره ، ولكن عجمياً كان وفيّاً لمبدئه الى ابعد حد من الوفاء ، وليس للمال ولا للجاه قيمة عنده امام ايمانه بعقيدته ووطنيته ، ولو كان ممن يشتري ضميره بالأحمر الرنان لاستطاع الحاكم السياسي كوكس أن يستولي على كيانه بمئات ألوف الجنيهات التي بذلها له ، فرفضها ، ولم

(١) هو الحاكم السياسي للعراق آنذاك .

(٢) يعتبر من أعظم زعماء العرب في العراق ومن الأبطال البارزين بالفروسية ، واسرته اسرة عريقة في مجدها التاريخي وزعامتها العربية .

يقبلها بوجه من الوجوه .

لقد كنت من النفر المعجبين بشخصية عجمي السعدون لا من ناحية بطولته الحارقة وكرمه المتناهي (١) فحسب وإنما من اجل وفائه الذي أدى

(١) كان شاعر الحماسة الشعبي محمد العوني المتوفي سنة ١٣٤٣ هـ من المتفانين بالولاء والاخلاص لعجمي ومن المعجبين بشخصيته اعجاباً ربما يبلغ بصاحبه حداً من الاسراف ، وليس ثمة مجال لسرد ما قاله الشاعر من القصائد السرمدية الحافلة بالاطراء والثناء العاطر به . وإنما اغتم هذه المناسبة لاستشهد بثلاثة أبيات جادت بها قريحة الشاعر عند مناسبة اثارت شعوره فقال .

الفاطر الزرقا ترزم مع السوق حنينها اودع بقلبي هوايا
تبكي ولدا فارق عاقها عوق وأنا ابكي الصنديد ذيب السرايا
مدري حدر والاقعد أو ذهب فوق أو وين تدوي به ، ربيع الهفايا
هذه الأبيات الثلاثة قالها الشاعر بصورة ارتجالية ولم يزد عليها وذلك عندما كان جالساً في الشارع الرئيسي لمدينة حائل . وفي اثناء جلوسه مر امامه ناقة فاطر أي « مسنة » وكانت نحن حنيناً شديداً على فراق ابنها . والشاعر عندما رأى هذه الناقة اهتز شعوره وعواطفه . وذكر صديقه عجمياً وذلك سنة ١٣٣٨ هـ وكان عجمي آنذاك لا يعلم الشاعر عنه شيئاً . إذ لا مواصلات بين الاثنين . والشاعر بالبيت الأول يصف نفسه ويضعها بموضع هذه الناقة التي نحن على ابنها . ويقول انها أثارت حزني الكامن وجرححت فؤادي بحنينها عليه . وفي البيت الثاني يقول انها نحن على ابنها . وأنا ابكي الصنديد ذيب السرايا ، الصنديد . البطل المغوار . ذيب السرايا . أي قائد الجيوش والجحافل . يقصد بذلك انه يبكي على فراق عجمي الذي توفرت فيه هذه الشروط .

مدري حدر والاقعد أو نهج فوق أو وين تدوي به ، ربيع الهفايا
يقول الشاعر لست ادري اين ذهبت به الدنيا « ربيع الهفايا » أي مطعم العاجزين عن طلب المعيشة من أيتام وأرامل .

به الى ان بقي بتركيا لاجئاً سياسياً أشبه ما يكون بالمشرد وقد فارق
أملأكه في العراق وسيادته ، كل ذلك في سبيل الوفاء الذي هو من افضل
سجايا بني الانسان وأنبها ، هذا وإن اعجابني لا زال يتضاعف بشخصية
هذا البطل الوفي ، وكم كنت مسروراً عندما ساقه القدر لزيارة « دمشق »
وهو في سبيله لتأدية فريضة الحج وذلك في ٢٨ - ١١ - ١٣٧٤ هـ وقد أقام
في عاصمة بني أمية مدة لا تقل عن اسبوع وكنت كثير الاتصال به وهو شخص
دمث الخلق كثير الصمت .

وقد حرصت أن انقل شيئاً عما حدث له من الحوادث التي تستحق
التسجيل ، ولكنني لم أجد عنده تلك الرغبة بالأحاديث عن نفسه ، وفي
جلسة من تلك الجلسات التي قضيتها معه كان الحديث بيننا يدور حول
الانكليز وما يبذلونه من المال تجاه تنفيذ مآربهم ، وأظن اني كنت
البادئ بالحديث بهذا الصدد .

وبهذه المناسبة سرد عليّ البطل حادثة وقعت بينه وبين الحاكم
السياسي في العراق المدعو « كوكس » الذي حاول ان يغري عجمياً بالمال
فأعياه ذلك .

كان رسوله الى عجمي شخصاً عربياً من قبيلة عجمي اشترى ضميره
بالمال يدعى « فرحان الرحمة » حدثني عجمي بأن هذا الرسول ابلغه رسالة

الحاكم شفهياً وهذا نصها :

« ان الحاكم الانكليزي على استعداد أن يدفع ثلاثمائة الف جنيهاً ذهباً انكليزياً لحضرة عجمي باشا على شرط أن يتخلي عن ساحة الوغا ويترك محاربته للانكليز » .

لاشك ان العرض مغر اضغفاء النفوس ، ولكن عجمياً اكبر نفساً وأعف يداً وأعز جانباً من أن يشتري ضميره بشيء من مظاهر الدنيا الفانية مهما حاول المستعمر أن يغريه فإن وفاءه وإيابه يرفضان ذلك وفعلاً قد رفض هذا العرض بكل اباء وشمم .

عندما شعر كوكس بأن صاحبه ليس من أولئك النفر الذين يصطادهم بمغرياته ، هناك هب يلتمس سبيلاً آخر ليصطاده من قبله فبعث اليه رسولا ثانيا يدعى « هادي الشنين »^(١) ليأخذ وعداً من عجمي « لكوكس » شريطة أن يكون تعيين الزمن والمكان شيئاً متروكاً اختياره لعجمي ، كما أن « كوكس » اشترط على نفسه أن لا يرافقه اي فرد من الجنود الانكليز . واليك جواب هذا البطل الوفي للمستعمر المحتال :

« إن من دواعي شرفي واغترباطي ان يتنازل لي المستر « كوكس »

(١) هادي من المنتفك عرب الشيخ عجمي .

الى حد ان يطلب مني تعيين الزمان ^(٢) والمكان الذي نجتمع به ، اذ أني وإن كنت زعيماً من زعماء العرب ، ولكني أرى منزلي بسيطة بالنسبة لسمو منزلة المستر كوكس وعلو قدره ، ثم استرسل الشيخ بكلامه الى ان قال : ولكني أناشد المستر كوكس باسم بريطانيا العظمى التي هو قطب من أقطاب ساستها . فهل يقبل حضرته أن يجتمع معي او ينظرني بعينه فيما لو كانت الغلبة للعرب والاسلام كما كانت بالأمس . ومن ثم أسعدني الجدل الى أن اتيت غازياً لوطنه لندن كما أتاني غازياً لوطني الآن ؟ وطلبت منه الاجتماع كما يطلبه هو مني فسله « يا هادي أيقبل هذا لنفسه ؟ » أم يرى أن لا كلام بيني وبينه إلا السيف كما اعتقده الآن ؟

حفظ هادي هذه العبارات الوجيهة في لفظها المليئة في معناها ومن ثم القاهها كاملة أمام كوكس .

وقد سألت عجباً وماذا كان الجواب من صاحبه ، فقال :

انه لم يعد اليه الرسول بجواب ايجابي ، وانما أفاده بأن كوكسا

(٢) يقول الشيخ عجمي اني سألت « هاديا رسول المستعمر فقلت كيف يتق بي هذا الانكليزي الى حد انه يأتيني بمفرده ؟ فقال هادي لعجمي : لقد استغربت هذا الامر منه حتى اني صارحته بنفس هذا المعنى الذي كلمتني بصدده فأجابني بقوله « اني لا اخشى القدر على نفسي من امثال هذا فيما اذا اعطاني وعداً حتى ولو كنت نفردني . لأن الوعد من الوفي كهذا يقوم مقام العهد . »

عندما تبلغ هذه الرسالة الشفوية وجم قليلاً ، وفي هذه الحالة اصفر وجهه واحمر حتى بدت عليه ملامح الكآبة جلية ظاهرة.

ماذا يا ترى في وجهه هذه كان يحدث نفسه ؟ اتراه يقول لنفسه ان كان زعماء العرب وقادتهم كلهم من نمط هذا الرجل فإن سياسته وحكومته سوف تفشل في الاقطار العربية ؟

هذا وقد كان داهية الأتراك وزعيمهم مصطفى كمال يعرف مدى رجولة الشيخ عجمي وبطولته وحاجته اليه لهذا اتجه يخطب وده ويلاطفه وينعته بما هو له أهل . والى القارىء نص رسالة مصطفى كمال التاريخية الموجهة منه الى الشيخ عجمي .^(١)

وقد ترجمها لنا بالعربية الدكتور امين رويحة بما يلي :

حضرة شيخ مشايخ العراق عجمي باشا . استبشرت بتشريفكم الى ديار بكر ، وكنت قد سمعت عن سجاياكم ورجولتكم وارتباطكم بمقام الخلافة المقدس ، وانا عندما كنت في الحرب المنصرمة في قيادة الجيش الثاني في ديار بكر وقيادة الجيش الرابع في حلب مما أحدث لكم في قلبي محبة كبيرة . ان افتراق الأمتين العربية والتركية وهما عينا العالم الاسلامي أوقع كلاً منهما في ضعف . وقد اصبح من فرض العين علينا الجهاد في

(١) أثبتنا صورتها في الطبعة الأولى ليرجع اليها من شاء .

سبيل حرية واستقلال أمة محمد (١) ، وإنتي أعلن أني بجانبكم في
جهادكم للخلاص من أثر الكفار والالتفاف حول مقام الخلافة المقدس
مع صيانة الصفات والعنعنات العنصرية ، واني اترك لشخصكم النجيب
بيان مطالعاتكم في هذا الشأن بواسطة قيادة الجيش الثالث عشر لتبادل
الأفكار واقدم لكم فائق الاخلاص .

التوقيع - مفتش الجيش الثالث
مصطفى كمال

١٥/حزيران/١٩٢٥

والشيخ عجمي الآن يقطن البلاد التركية حيث أدى به وفاؤه الى ان
ناضل في صف الأتراك الى آخر لحظة ، ولم يقف به وفاؤه الى ان قاتل
بجانبيهم في بلاده العربية فحسب بل ذهب يناضل بجانب الجيوش التركية
في قلب بلادها الى ان هجر وطنه العراق
وهكذا ذهب البطل ضحية لوفائه حيث خسر زعامته في العراق
واملاكه التي لا تحصى وبقي في تركيا لاجئاً ، وقد تجنس بالجنسية
التركية :

(١) اني لاعجب من هذا الماكر التركي الذي استفز شعور هذا السمينع
بالعقيدة الاسلامية كما استفز شعور الكثير من المسلمين وذلك عندما كان ضعيفاً
في بداية أمره . وبعد أن بلغ ما بلغه من العز والنصر أعلن كفره بمحمد
ودستور محمد ﷺ .

وبما لا جدال فيه أن نفسية عجمي الأبية ترى أنها سعيدة في
وضعها الراهن ، فهو وإن خسر شيئاً من زعامة وثروة ، فقد ربح الحمد
الخالد والمجد الأبدي ، وكأني بنفسه الجبارة تلحن قول الشاعر
ابن الاطنابة :

أبت لي شيمتي وأبى وفائي وأخذني الحمد بالثمن الريح
واقدامي على المكروه نفسي وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي^(١)

(١) وأعظم المصائب على الشيخ عجمي السعدون هو أن الحكومة التركية
التي كان يقاتل بجانبها بدافع الرابطة الاسلامية قد تجردت عن ذلك المبدأ المقدس
وذهبت بجانب الانجليز الذين يعتبرونه عدواً لهم رقم واحد . وعلى هذا التقدير
أصبح بطل القصة منكوباً وغريباً من شتى الوجوه ولا غرو فهذا شأن كل من
أشربت نفسه لأنفس المعاني وأسمائها . وهذا ما ذهب اليه الشاعر العربي :
غريب عن الأوطان في كل موطن ألا كل من رام النفيس غريب

من أروع أمثلة الوفاء بالعهد

وقعت عام ١٣٣٥

لا شك أن الوفاء بالعهد عند العرب من أهم المثل العليا ، فوجد العربي يتمسك به حتى مع أشد أعدائه ومن المستحيل أن يغدر وينكث بعهد ولو ظفر بقاتل أبيه ومما يؤيد لنا صحة ذلك قصة (رفاع بن ركب^(١)) من قبيلة مطير التي وقعت له مع عدوه اللدود (جذيل بن لغيصم الأسلمي الشمرى) ذلك أن (جذيلًا) غزا قبيلة مطير وحصلت بين الغازي والمغزو مقاتلة عنيفة ، كان من نتيجتها أن وقع قتلى بين الطرفين ومن هؤلاء القتلى (أبو رفاع بن ركب) وكان (رفاع) شجاعاً لا ينام على الضيم . طلب من قبيلته أن تغزو قبيلة شمر خاصة عرب جذيل^(٢) من أجل أن يأخذ بالثأر وكأن لسان حال رفاع يحدثنا أنه لا يريد بغزوه هذا اكتساب ابل من قبيلة شمر ولا طمع له إلا برأس (جذيل) الفارس الذي اشتهر بقتل أبيه .

ذهب غزاة مطير برأسه هابس بن عشوان الفارس المشهور^(٣) ومن

(١) رفاع : فارس من مشاهير فرسان قبيلة مطير .

(٢) جذيل : من فرسان قبيلة شمر .

(٣) هابس بن عشوان من زعماء قبيلة مطير ومن فرسانها البارزين الأفذاذ توفي رحمه الله في معركة وقعت بين قبيلته وقبيلة العوازم عام ١٣٤٨ وكان البطل ضحيتها .

بينهم رفاع الذي كان أحرص القوم على لقاء قبيلة شمر ليأخذ بالنار منهم سواء (بجذيل) أو بمن يضارعه أو يفوقه من قبيلته ، لأن العرب ولا سيما أهل البادية كثيراً ما يعملون بالعرف الجاهلي الذي ينافي قوله تعالى : (ولا تزر وازرة وزر اخرى) فالبدوي لا يهيمه إلا ان يأخذ النار بأكبر شخصية في الأسرة فهذا هو كمال الغاية وإن كان ثمة اكبر منه فلا يزال يطلب الثأر وينتهاز الفرصة التي يحاول بها قتل هذا الكبير حتى يظفر به ، فإن تعذر ذلك بسبب من الأسباب كان مرجعه على القاتل ، ولقد كان جذيل هو عظيم أسرته ، فعلى ذلك توفرت فيه الشروط وأصبح إذا ظفر به عدوه لا نجاة له البتة ، يضاف إلى ذلك أن رفاعاً كان شديد الحقد والحرص على أن يقتل جذيلاً بيده ، ذلك أنه طلب بإلحاح من كل فرد من قبيلة مطير الغازية راجياً منهم جماعة وأفراداً أنه إذا ظفر احد منهم بجذيل أن لا يقتله بل يسلمه له حتى يقتله بيده أسوأ قتلة . هذا غاية ما يتمناه رفاع ويطلبه من قومه ولكن قومه ردوا عليه بقولهم : إنا لا نعلم أيكون النصر والغلبة لنا أم للعدو ؟ ثم انه لو قدر لنا النصر على العدو فان « جذيلاً » ليس بالرجل الجبان الذي نتمكن من استلامه من دون مكافحة ومناضلة ، بل انه رجل مشهور بفروسيته فعلى ذلك من المستحيل ان نظفر به إلا بأحد أمرين : إما قتيلاً بعد قتال عنيف ومعركة دامية بيننا وبين قومه ، وإما أن نأخذه (منعاً) أي بعهد فان أخذه أحد منا بعهد فليس من المعقول

أن ينكث بعهدده ويسلم لك من اجل أن تأخذ بشارك منه . هكذا كان جواب القوم اجمعين ، كان هذا مدار حديثهم وهم في مسيرهم فظلت غزاة مطير تحت السير قاصدة قبيلة شمر ، ولكن قبيلة مطير ما علمت أن قبيلة شمر ايضاً تحت السير قاصدة غزوها حتى انكشف لها الأمر حينما اصطدم الغزاة بالغزاة . وكانت شمر أقل غزاة من مطير . لقد حصل بينهم تبادل حديث ، عند ذلك عرفت كل قبيلة منها الأخرى وحمي الوطيس آنذاك . وبعد ان اشتد الوغا وطالت المعركة كانت الغلبة لقبيلة مطير ولكن هذه الغلبة كانت « منعاً » لا « شلعا » والفرق بين « المنع » و « الشلح » هو أن الأول بعهد والثاني بدون قيد ولا شرط . كما أن معاهدة المشاة غير معاهدة الفرسان الذين يقاتلون وهم على صهوات الخيل أو ظهور الإبل وإن كان الحكم واحداً في منطقة وإنما تختلف المعاهدة الأولى بحكم تجمعهم بحيث تكون المعاهدة معاهدة جماعة لجماعة بينما تكون الأخرى معاهدة أفراد لأفراد ، ويكون وقتئذ لكل فرد من الغالبين أن يمنع الذي امامه من المغلوبين . ولعل قدرة الله ساقط جديلاً حتى كان منيعاً لرفاع الذي لا شيء في الدنيا أحب اليه من ان يظفر بجذيل قاتل أبيه . وأروع ما في هذه القصة هو ان جديلاً يعلم انه وقع في قبضة عدوه رفاعة الذي لارحمة له عنده ولا شافع تقبل شفاعته لديه . انه كان يعلم ذلك قبل ان يقع في قبضته . والسبب ان تقاليدهم في هذا الموضوع تقضي بأن الفارس الغالب

عندما يطرد المغلوب ويرى أنه لا يستطيع ان يستولي عليه شلماً أي بالقوة وبدون قيد ولا شرط يلجأ عند ذلك الى ان يستولي عليه بالمنع أي بالمعاهدة ، فيقول الغالب للمغلوب : انزل بوجهه فلان ، فيجيبه بقوله : سمعني الله ، أي اعطني عهد الله . فيجأوا به الغالب بقوله : عليك الله وأمان الله والخائن ينتقم منه الله . هذا هو المنع عند العرب لفظاً ومعنى وقد يكون ثمة اختلاف باللفظ غير أنه لا يخرج عن هذا المعنى . لهذا نعود فنقول ان جديلاً يعلم أنه وقع في قبضة عدوه رفاع ذلك لأن رفاعاً خاطبه باسمه الصريح وقال له : انزل في وجهه وأمان رفاع . الذي لا يتمنى شيئاً في الدنيا أعظم من أن يظفر به ليقضي من حياته . ولرب قاتل يقول : ولم يسلم جديلاً نفسه لعدوه رفاع ، ولا يقاتل حتى يقتل حراً عزيزاً لا أسيراً مقهوراً أو ينجو ؟ وكثيراً ما ينجو المقاتل المستميت كما قال أبو بكر رضي الله عنه : إطلب الموت توهب لك الحياة . وجوابنا على ذلك هو ان جديلاً يعلم أن عدوه لا يستطيع ان يقتله بعد ان اعطاه العهد وذلك لما يعلمه من عظم شأن الوفاء في نفسية العربي ، خاصة كرفاع الشهم الكريم الذي يعلم انه لو نكث بالعهد وقتل «جديلاً» لكان أول من ينبذه ويمقته بنوعه بل ربما أنه لا يستطيع أن يقطن بين كل قبيلة مطير ، كما انه لا يمكن ان يقبل بالزواج من نسائه رجل من العرب يرى في نفسه أنفة وإباء وشماً . فعلى هذا الأساس كيف يرتكب هذه الجريمة الشنعاء ؟ ولو أنه ارتكبها

لشفي غليله وأخذ بشأره ولكنه يكون قد وقع بما هو أكبر وأعظم
عند العرب وهي وصمة العار الخالدة لا عليه فحسب بل وعلى ابنائه وأحفاده .
لهذا لم ير رفاع بدأ من أن ينفذ اتفاقية المعاهدة لا من قوة تجبره
وتخضعه على ذلك ولكن قوة إيمانه بقوله تعالى : « وأوفوا بعهد الله إذا
عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا »
إن إيمانه بذلك من ناحية وتأنيب ضميره ووجدانه له من ناحية أخرى
واحترامه أيضاً لقوانين العرب ووسايرها ، كل هذه العوامل هي التي كانت
سداً منيعاً لا يستطيع أن يتجاوزه البتة . لهذا ترك « جذيلا » يرجع إلى
أهله شديد القوى سليم الجوارح موفور الكرامة . وربما يكون جذيل
بمنزلة الأخ الشقيق لرفاع وذلك حسب الاصطلاحات المرعية فانه
كثيراً ما يكون الأعداء كالأخوان الأشقاء لا سيما إذا صدقت حادثة
كهذه ^(١) .

(١) القصة مشهورة .

فصل الامانة

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا
(قرآن كريم)

لا إيمان لمن لا امانة له . ولا دين لمن لا عهد له .
(حديث صحيح)

تحدث الاستاذ محمد جاد المولى ، في الجزء الرابع من كتابه
« الخلق الكامل » ، صفحة ١٥٦ عن أثر الأمانة في اعلاء شأن الأفراد
والأمم وقال : « الأمانة هي ينبوع السعادة ومصدر الفلاح » ..
والحق ان كتاب الاستاذ تحفة يجب على الاديب ألا تخلو مكتبته منه .

لقد حث الاستاذ جزاه الله خيراً على الاستمسك بالامانة والمحافظة
عليها ، الى ان قال : اعتصم الغريون بها ففازوا ، واستضاءوا بنورها
فاهتدوا ، وترددوا في اسواقها فكسبوا ، وجمعوا بها الاموال ، والفوا
عليها الشركات فأقاموا في بلادهم الاعمال الجليلة . واوجدوا المستحدثات
النافعة حتى صيروها جنة الدنيا وبهجة الناظرين .

ثم استدرك الاستاذ فقال :

« أما الشرقيون فصفرت منها يدهم^(١) فباءوا بالحياة ، فعلينا ان نتمسك بها لنحيا حياة طيبة . »

لا شك ان الاستاذ جاد المولى لو اتاحت له الفرصة التي تمكنه من العلم بالحياة العربية على الوجه الصحيح ، لما جاء بعبارة هذه القاسية ، بل لبات عنده على ما اعتقد من الايمان الراسخ والقناعة الكافية ما يجعله يطمئن الى ان نقرأ من ناطقي الضاد ، قد بلغت نفوسهم الزكية من التمسك بالأمانة والتدرع بها الى اقصى ما تبلغه نفوس بني الانسان .

ان في فصل الامانة من كتابنا هذا نوارد حدثت من بعض افذاذ العرب وحقائق محسوسة مؤكدة ، ربما لا يتصور العقل حدوثها الا من طبقات الأنبياء أو من هذا حذوهم .

ولو بلغ هؤلاء الأتقياء من العلم بالصناعة الحديثة والثقافة العصرية بشتى فنونها ومعانيها ، ما بلغه رجال الغرب لسادوا مشارق الارض ومغاربها ، ولعادوا إلى قيادة الركب من جديد كما كانوا بالامس ذلك لأن مواهبهم الكامنة الأصلية وجوهرهم العريق ومعدن نفوسهم

(١) ليس كل الشرقيين كما يزعم الاستاذ ، ولعله يرى في هذا الفصل ما يسره ويجعله يعلم ان الغربيين لم يتقدمونا بأمانتهم ولكن بسعة اطلاعهم على اسرار العلم الحديث ، وكان الأحرى به أن يبحث على العلم ويرغب فيه فنحن صفر اليدين منه .
حقاً ، لا من الامانة كما يتخيل الاستاذ .

الطيب الخصب ، صالح للانتاج .

اذن فليس العرب بحاجة الى شيء في الدنيا أكثر من حاجتهم
الماسة الى العلم الذي يصقل العقول وينير البصائر ويشحذ الهمم، ويذكي
شعلة الطموح ويخلق في نفس الفرد والجماعة قوة تؤمن بالحرية التي هي أسمى
وأنبى وأشرف ما في الحياة .

وهب أن أمة ما ، بلغ أفرادها من الفضيلة والنبيل أقصى ما يصفه
الواصفون ، ولكنها حرمت من العلم ، فأنى لها ان تسترني مجدها كاملا
وتناضل الاستعمار الفكري والاقتصادي بايمان راسخ وعزيمة صادقة إلا
بقدر ما تستلهمه من نور العلم واليقظة والوعي .

ضحى بماله دون كرامة رفاقة

قصة عايد التميمي الأولى حدثت عام ١٢٨٨ هـ

يعتبر عايد من أفذاذ شخصيات بلاده وهو كثيراً ما يمارس حرفة التجارة ، فيتاجر تارة بالمجوهرات ، فيذهب بجرأً ليشترىها من ذوي الاختصاص بها ، ويتاجر طوراً بالإبل والغنم فيسافر برأً ليلتاعها من البادية .

وقد دعت الحاجة هذه المرة ليشترى إبلأً من بادية سورية فيذهب ليتاجر بها في بلاد مصر . فقصده قبيلة « السبعة » (١) حيث حل ضيفاً على رجل يدعى (حمد بن شتيوي) واشترى ما شاء الله ان يشتري من ابل ، ثم رحل من عند مضيفه قاصداً مصر .

كان عايد قد ابتعد عن العرب وقطع مسافة غير قصيرة ، بعد ذلك هب مضيفوه وركوا خيولهم وساروا خلفه يقتفون أثره . ولما ادركوه رحب بهم عايد ، وقد ادهشه لحافهم به . ثم ساد الصمت حتى شربوا القهوة (١) .

(١) عايد من ساكني مدينة عنيزة وهو تميمي النسب .

(٢) هي إحدى قبائل عنزة التي تقطن شمال سورية .

(٣) من العادات المتبعة عند العرب أن المرء أو الجماعة اذا قصدوا شخصاً لغرض ما لا يتحدثون به حتى يشربوا القهوة .

وبعد ذلك اشعروا عابداً انهم فقدوا خمسمائة ريال كانت مخبأة في صرة لونها كذا وموجودة في مكان كذا ، وواصلوا كلامهم الى ان قالوا : وإنه لا يخامرنا الشك في امانة شخصكم الكريم وإنما أنت رجل في معيتك عشرات الرجال من الرعاة والمستخدمين فنخشى أنها وقعت بيد فرد من هؤلاء السوقة . لهذا نرجو منك أن تسمح لنا فنفتش جميع قومك .

- عايد : اطمئنكم أن هذا المبلغ محفوظ لدي بكامله ذلك ان احد رعاة ابلي ناولني اياه وهو يزعم انه وجده بين امتعتي فأخذته واحتفظت به وقلت في نفسي امران لا ثالث لهما : إما أن يكون هذا المبلغ لأحد عربكم ، أو انه امانة وضعت معي لفرد نسيت ان اسجل اسمه . وقلت إن كان الأمر الأول فلا بد من ان يأتي صاحب المال ويسأل عنه . ولكن مضت مدة طويلة ولم يأت من قبلكم أحد . عند ذلك نفضت الصرة واحصيت ما فيها من الدراهم ثم اضعفتها الى ما عندي من الأمانات وقد صح عندي الأمر الآخر (١) . أما الآن وقد بان لي خطأ رأيي الأخير فتفضلوا باستلامها .

قام الرجل وسلم المدعين المبلغ كاملاً ثم انصرفوا الى اهلهم ، كما ان

(١) أي انها امانة مرسله معه لتكون على سبيل المضاربة .

عايداً أدلج قاصداً مصر لبيع بضاعته فيها .
أما المدعون فقد اتضح لهم خطأ رأيهم بعد مضي مدة قليلة من
الزمن وذلك أنهم وجدوا دراهمهم بصرتها ملقاة في موضعها وعندما
وجدوها هناك شعروا بخطئهم مع ضيفهم . كما ادرکوا ان الرجل سلم
هذا المبلغ من ماله سترأ لعرض حاشيته وحفاظاً على كرامتهم ان يفتشوا
واحداً واحداً . فضحى الكريم بهذا المبلغ صيانة لكرامة النفر الذين
في معيته . وخير وسيلة ركن اليها أولئك الذين ظلموا ضيفهم عن غير قصد هو
ان اشتروا بهذا المبلغ غنماً باسم (عايد) وتولوا رعايتها والعناية بها كما
لو كانت اموالهم ، وبعد مضي ثلاثة سنوات قدم اليهم عايد ليشترى منهم
ابلاً . هناك قام مضيفه الاسبق « حمد بن شتيوي » وطرح نفسه بين يدي
ضيفه عايد واعتذر عما بدر منه ، ثم أكد له ان المال الذي أخذه منه
قد اشترى به غنماً وهذه الغنم قد طرح الله بها البركة حتى ربت وزادت .
- عايد : أنا لا استلم الغنم كلها وانما استلم رأس مالي فقط .
- حمد : انها ليست ملكاً لنا بل هي ملكك وقد بارك الله بها بسبب
نيتك الطيبة .

واخيراً كان الوفاق على أن تشمن تلك الأغنام فيطرح منها
خمسائة ريال رأس مال عايد فيأخذها وما تبقى يقسم بينهما على التساوي
وتم الحكم بذلك ورضيه الطرفان .

وفاء وامانة

قصة صالح المجراد حدثت عام ١٣٨٩ هـ

(صالح المجراد) شخص من حاشية الأمير بندر^(١) بن طلال ابن عبد الله بن رشيد . وفي الحين الذي قتل الامير محمد^(٢) العبدلله ابن أخيه بندراً كان صالح هذا غير موجود في تلك اللحظة ولكنه عندما بلغه الخبر ذهب فوراً الى قصر الإمارة الذي فيه اخوان بندر المحاصرون وهذا القصر من الاساس فيه بندر وإخوانه باعتبارهم قصر الحكم ولكنه عندما قتل بندر تخلى عن إخوانه كثير من حاشيتهم لأن الرأي العام الشعبي كانت أصواته مع محمد العبدالله القاتل لبندر .

أما صالح المجراد فقد أراد اخوته أن يحجزوه لئلا يذهب الى اخوة بندر المحاصرين بقصر الامارة ولكنه اصر على أن يذهب الى ولاية نعمته . وفي رواية أن اخوته عندما رأوا اصراره أرادوا أن يستعملوا القوة معه ويمنعوه قهراً ولكنه عندما رأى ذلك منهم قابلهم بالمثل وانتضى سيفه

(١) هو الأمير الرابع الذي تولى الامارة الرشيدية ١٢٨٥ هـ والتاريخ يعتبره أول مسؤول اعتدى على قطع الرحم بين الأسرة الرشيدية .
(٢) محمد تولى الامارة سنة ١٢٨٩ هـ وتوفي ١٣١٥ هـ وعهده يعتبر العهد الذهبي الزاهر بالنسبة لأمرآة آل رشيد .

وقال : إني سوف اذهب الى القوم الذين لا زال معروفهم وفضلهم
بعنقي واني عازم على ان اربط مصيري بمصيرهم حتى الموت . فلما رأى
اخوته اصراره وشدة عزمه تركوا سبيله فذهب للقصر ورفاقه في أشد
الحصار : ولما طال عليهم الحصار وليس ثمة معين ولا ناصر هناك اضطروا
أن يهربوا من القصر : وعندما قرروا ذلك قال لهم صالح : اذن اكون
آخر من يفر من القصر من أجل أن اشغل العدو عنكم في المقاومة حتى
تبلغوا مأمنكم ، فهربوا وبقي الى آخر لحظة في القصر . وبما تجدر الإشارة
اليه انهم عندما يشعرون من المقاومة بل يشعرون من الحياة في تلك الحالة
الضيقة احضروا عقد لؤلؤ ثمين وقالوا هذا أمانة عندك ليكون لذريتنا
من بعدنا فيما اذا أصابتهم الدنيا ، وبقي العقد عندهذا الوفي الأمين ،
وأبى أن يسلمه لأولادهم عندما كانوا دون بلوغ سن الرشد . وشاءت
قدرة الله ان يتوفى أولادهم جميعاً وهم احداث وكانت النتيجة ان
يهلك جميع ورثة بندر ولم يبق لهم عاصب يرث تركتهم من الوجهة الشرعية
اقرب من الأمير محمد العبد الله الذي هو عم لبندر الطلال لهذا كان من
وفاء صالح المجراد وأمانته أن أخذ العقد وسلمه بيد الأمير محمد واعلمه
ان هذه أمانة عنده وضعها اخوة بندر في تلك الساعة الضيقة عندما أرادوا
الفرار ، واستلمت منه الأمانة هذا العقد ولكن الأمير محمداً كان

حاقداً عليه من الأساس بصفته موالياً متفانياً بمحبة الأمير الأسبق بندر واخوته ، لهذا وصل الحقد والغضب بالأمير محمد الى أن جعله لا يولي صالحاً عملاً من اعمال الأمانة مع انه لو ولاه لوجده وفياً اميناً وذلك وفقاً لحكمة العربي المشهور « معن بن زائدة » الذي تولى الأعمال في خلافة بني أمية كما تولاها من بعد في خلافة العباسيين وقد عاتبه الخليفة المنصور العباسي بقوله : « انك يا معن اسرفت بوفائك للأمويين » فقال معن : يا امير المؤمنين ان الذي يفني مع الذي لا يُرجى جدير به أن يفني مع الذي يُرجى .

أما صاحبنا صالح المجراد فقد توفي منبوذاً ومبعداً عن الحكم ولم يتول أي عمل من أعمال الأمير محمد ، ولكنه كان مرتاح الضمير مطمئن القلب ، فإن استطاع الأمير أن يجرده من جاهه ، فإن اساطير التاريخ الخالدة ستكسو صالحاً حللاً قشبية أبدية لا تزول بزوال اصحاب السلطة الفانية .

أجل ، ان جاء السلطان سيزول يوماً من الدهر سواء طال الزمن أو قصر ، أما القيم الاخلاقية فإنها ستبقى أبدية خالدة ^(١) .

(١) رويت هذه القصة عن اكثر من واحد .

أُمّة ورباطة جأش

قصة عايد التميمي الثانية حدثت عام ١٢٩٥ هـ

سافر التميمي هذه المرة بجرأ قاصداً المتاجرة بالمجوهرات وكان معه نفر من التجار زملائه في المهنة . وقد اشترى كل فرد منهم ما شاء الله له من هذه البضاعة وعادوا جميعاً بإحدى السفن البحرية .

وفي اثناء مسيرهم هذا ظل كل فرد منهم يتحدث عن طيب بضاعته التي اشتراها وجودتها ، وكان التميمي معجباً ببضاعته فجاء بمجوهراته واطلع رفاقه عليها ثم هم أن يعود بها الى حقيبتته ولكن خادمه وضع بساط مائدة الطعام أمامه فأخذ التميمي المجوهرات ووضعها فوق الخوان^(١) ومضى يتغدى ، وبعد أن انتهى من غدائه ذهب لغسل يديه وترك بضاعته كما كانت على طرف الخوان .

وبعد ذلك أتى خادمه وجمع اطراف الخوان وحمله بما فيه من فضلات الطعام والقاها في اليم . عاد التميمي ليأخذ مجوهراته فلم يجدها فسأل خادمه عنها فقال الخادم : لا اعلم شيئاً سوى انني اخذت الخوان والقيت ما فيه من فضلات الطعام في البحر .

(١) الخوان ، سفرة المائدة .

- عايد : اذن اكتم الأمر ولا يطلع على ذلك احد .

- الخادم : امرك يا سيدي .

رجع عايد الى زملائه بكل هدوء ورباطة جأش . وبعد أن مضى ساعة على الحادث ذهب يسوم بضاعة رفاقه بمكسب ثلاثة بالمئة فأطلق الأول عليه البيع فالثاني فالثالث إلى ان اشترى جميع مجوهرات رفاقه في السفينة . وتسليم الثمن طبعاً سيكون بعد وصوله البلاد فكانت بعملية هذه حجز جميع 'صناف المجوهرات عنده . ومن حسن حظ التميمي أن حصل للمجوهرات موسم عظيم فكان ربحه بهامئة بالمئة ، وبعد ان كان رأس ماله عشرة آلاف جنيهاً ذهباً ^(١) أصبح الآن يملك اربعين ألف جنيه ذهباً . ومما يدلنا على صفاء نفس التميمي وحسن نيته ذلك أنه ذهب الى محمد العسافي ^(٢) صاحب الألفي جنيه حيث سلمه ستة عشر ألف جنيه :

دهش العسافي من هذا المكسب الذي لم يحلم به ولكنه سرعان ما عزفت نفسه الطيبة الطاهرة عنه ، ذلك عندما شرح له التميمي الأمر :

(١) اعني رأس مال مجوهراته التي القاه ا خادمه في البحر كان عشرة آلاف ومن هذه العشرة الفا جنيه لصالح العسافي استلمها التميمي من العسافي على نية ان ان يتجر بها التميمي والمكسب بينهما .

(٢) وهو ايضاً من ساكني مدينة عنيزة .

هناك رفض قبول المكسب كما رفض أيضاً قبول رأس ماله الأساسي
لاعتقاده أن ماله الأسبق هو ضمن المجوهرات التي القاهها خادم التميمي
في اليم^(١).

حاول التميمي أن يقنعه ليقبل المال ولكن العسافي رفض ذلك
كما أن التميمي أيضاً رفض ابقاء المال عنده . ووفق الاثنان يتنازعان
كل منهما يود أن يتجرد من هذا المال . وانتهى الأمر بأن ذهب المتنازعان
الى القاضي .

ادعى العسافي بدعواه وقال : ان هذا المال لا يحل له منه قليل ولا
كثير وأن ماله الأساسي القاه الخادم في البحر ، فقال التميمي : نعم
إن ماله ألقى في البحر ولكنني عندما اشتريت المجوهرات من
زملائي التجار اشتريتها على اساس ان مالي باق وعلى هذا الأساس
باع التجار بضاعتهم لي . ولو علموا ان رأس مالي القاه الخادم في
اليم لا اعتبروني مفلساً ولكن من المستحيل ان يبيعوني من
بضاعتهم شيئاً .

حكم القاضي بصفة ما ادعاه التميمي وامر العسافي باستلام المال
وهكذا يبلغ سمو النفس والعفة بافذاذ الرجال . ولست أدري ايها أعف
نفساً؟ وغاية ما اقول انها فرسا رهان رحمها الله .

(١) القصة مشهورة .

إعاد اللفظة الى وريته الميت

حدثت في سنة ١٣٠٧

ذهب علي العبيد^(١) إلى بيت الله الحرام ليؤدي فريضة الحج وهم بالعودة إلى بلاده « حائل » وفي أثناء ذلك وجد في أسواق مكة تركة تباع لشخص من بلاد « طهران » قدم إلى مكة ووفاه أجله فيها ، وتولى مبيع متاعه جماعة من رفاقه الإيرانيين بمحضر من « مطوفه^(٢) » ساكن مكة الذي أجعل اسمه .

هذا وقد ابتاع علي من حوائج هذا الإيراني متاعاً ، وضمن هذا المتاع كيس طحين . وعندما غادر مكة وشخص الى بلاده حائل ، دعتة الحاجة وهو سييله أن يخبز من هذا الطحين فلما فتح الكيس سقطت منه صرة ضخمة فيها مبلغ من الدنانير ، عندما شعر علي بذلك وذهب ونادى جميع رفاقه في هذه السفرة وقال : أشهدكم على نفسي بأني وجدت بهذا الكيس دنانير وهذه الدنانير ليست إلا ملكاً لورثة الإيراني صاحب

(١) علي العبيد هو رجل من جبل طي ، من المدينة المسماة الآن (حائل) .

(٢) المطوف هذا هو شخص يسكن عنده الحجاج ويتولى العناية بهم ، وسكنهم في مكة وفي منى وعرفات كما يتولى توجيه الحجاج في زياراتهم الموضع المقدسة .

الكيس ، وقد ترك علي هذه الأمانة كما كانت حتى أتى موسم الحج في السنة الثانية ، فذهب إلى مكة واتصل بمطوف الإيراني وأخذ يسأله عن اسم الإيراني وبلدته واسرته . وذهب المطوف بدوره يسأل الحجاج الإيرانيين فوجد من يهديه عليه ولست أعلم هل كان بين هؤلاء الحجيج أفراد من أسرة الميت الذين يحق لهم وراثة تركته أم أنهم بعدما عادوا لبلادهم أخبروا أسرة الميت ومن بعد ذلك أتى الوارثون واستلموا الأمانة من علي . هذا أمر يخفاني تفاصيله كما أنه يخفاني أيضاً مقدار المال الموجود بهذه الصرة وإنما الذي عرفته أن المال مبلغ مغري . وأن علياً سلم هذا الجراب وما فيه لورثة الإيراني ^(١) .

(١) رويت هذه القصة عن السفير الشيخ عبد العزيز بن زيد رحمه الله وهي مشهورة خاصة عند أهل بلدة حائل .

امام متناهي

وقعت بين عامي ١٣٢٨ — ١٣٣٢

قصد حج بيت الله الحرام شخص يدعى ابن جليدان^(١) عنزي النسب من الدهامشة ، فرمى به القال الى ان مر بشخص يقطن قرية صغيرة تسمى (الحليفة)^(٢) فوجد بها شخصاً يسمى ابن لویشان وهو عنزي النسب أيضاً ومن عرب السبعة ، فاحتاج الاول الى مخيط فأعطاه صاحب الحليفة مخيطاً بغية أن هذا المخيط (عدولة) معناه أنه يكون كأمانة عنده يتباعه وينميه وهذه العملية أكثر ما اشتهر بها ونجح هم أفراد قبيلة عنزة لأنه امتاز نمر منهم بسلامة النية وشدة الأمانة .

أخذ ابن جليدان المخيط فلما قضى حاجته منه ابتاعه على فرد من عشيرته (بحجة) من الصوف ثم ابتاع الصوف واشترى بشفنه سخلة فكبرت السخلة وانجبت سخلة اخرى مثلها الى ان تناسلتا وبلغ المجموع

(١) القصة مشهورة وانما لم اوفق لمعرفة اسم الرجل المؤمن ، وغاية ما هنالك انه يقال له ابن (جليدان) .

(٢) (الحليفة) قرية تقع شمال المدينة المنورة وجنوباً عن مدينة حائل .

رعتين من الغنم^(١) ثم ابتاع بعضاً من هذه الغنم واشترى ابلاً فبارك الله بالابل ايضاً الى أن بلغت رعتين ، ونهاية الأمر بلغ مجموع هذه الأمانة رعتين من النوق وثلاثين جملاً وخمساً من الخيل الجياد ورعتين من الغنم . والجدير بالذكر ان هذه الأمانة بلغت ما بلغته اليه من البركة ولا احد يعلم عنها شيئاً ابداً إلا الرجل الذي أمن عنده المخيط ، وعندما بلغت هذه الأمانة الضئيلة ما بلغت من النمو والبركة آنذاك جمع المؤمن أولاده ونخبة من عشيرته وقال لهم : اني اشهدكم الله على أن هذا المال الذي ترونه من ابل وأفراس وغنم كله ليس لي منه قليل ولا كثير وإنما هو ملك لفلان ساكن قرية الحليفة وأصله مخيط ابتعه ونمته حتى بارك الله به هذه البركة ، وأردف الشيخ كلامه الى ان قال : اني اخشى ان يتوفاني الله قبل أن يستلم صاحب الأمانة امانته لهذا فاني عازم بعد الاعتماد على الله على أن أذهب بنفسي لأسلم الأمانة الى اهلها .

ولما كانت الحروب بذلك العهد قائمة على قدم وساق بين القبائل فقد كان من الصعب أن يؤدي العنزي هذه الامانة الى اهلها بدون ان يخاطر بنفسه ويعرضها الى المغامرة والتهلكة ، لأنه كان يقطن

(١) الرعية من الغنم من مائة وعشرين وما دون .

(٢) الرعية من الابل هي من ستين ناقة وما فوق .

في الأراضي السورية وصاحب الأمانة في أرض نجد وبينه وبين صاحبه مسافة بعيدة وهناك قبائل معادية لقبيلته ، ولكن رغم هذا كله لم يعقه عائق من ان يرسم لنفسه خطة تدل على منتهى أمانته ووفائه ذلك أنه ترك هذه المواشي عند أهله وذهب بنفسه على ظهر راحلته حيث اخبر أهله بأنه مسافر من اجل ان يتصل بصاحب الأمانة فيخبره بماله ، واكد لأهله قائلاً : « اني معرض نفسي للتهلكة ولا أعلم هل أتمكن من الاتصال بصاحب الأمانة ، أم اصادف غزاة تقتلني فان قدر الله علي شيئاً من قضائه وقدره ، فانكم يا بني مسؤولون عن هذه الأمانة حتى تؤدوها الى صاحبها » . بعد أن بلغ بنيه هذه الوصية ذهب مسافراً بمفرده قاصداً صاحب الأمانة ليخبره بها ، وعندما كان سائراً في سبيله صادفته غزاة من قبيلة شمر فوجدته لقمة سائغة فأخذت راحلته وتركت سبيله فرجع الى اهله راجلاً . والعجيب انه لم تنثن عزيمة هذا الامين بل كر مرة اخرى قاصداً صاحب الأمانة ، ولكنه في عودته هذه قد احتاط لنفسه بالأمان والحماية أكثر من سفرته التي أخذت راحلته فيها ، ذلك أنه في هذه المرة عاد بصحبة المحمل « الشامي » (١) فأصبح الآن بحصن منيع لا خوف

(١) « المحمل الشامي » هو كناية عن جماعة يحجون من القطر السوري ، وكانت تتولى حمايتهم الدولة العثمانية بفيلق من جيشها بحيث لا تستطيع العرب ان تسهم بسوء حتى يؤدوا مناسكهم ويعودوا راجعين الى اهلهم .

عليه ، ولا زال برفقة هذا الجيش حتى وصل قرية صاحب الامانة ولست أدري هل وجد الشخص نفسه الذي أمنه « المخيط » أم أن ذاك توفاه الله ووجد ذريته ، هذا أمر لم أتأكد منه رغم اجتهادي وحرصى وإنما الرواية المؤكدة الذائعة تفيد أن الامين بلغ صاحب القرية بما له عنده من المواشي التي نمت وتفرعت من ذلك الاصل الضئيل .

وقد كان صاحب القرية قنوعاً كريماً حيث انه رفض قبول جميع هذه الابل والافراس والغنم لنفسه ، بل انه قال للرجل المؤمن : ان هذا الرزق قد ساقه الله بسبب نيتك الصالحة وجهودك الموفقة فعلى ذلك يجب ان نتقاسمه بيننا سوياً ، فتقاسما الابل والغنم والافراس فيما بينهما (٢) .

(٢) القصة مشهورة .

امانة وورع

قصة عُقلى^(١) بن شبيب حدثت بين عامي ١٣٣٧ — ١٣٤٣ هـ

كان لعقلى جار^(٢) فرحل عنه ونسي عنده زناداً^(٣) فبقي محتفظاً بزناد جاره . وصدقة سافر ونفر من عربيه ليكتالوا من احدى المدن^(٤) المجاورة لهم . وعندما نزلوا عن رواحلهم وشاؤوا أن يطبخوا لأنفسهم طعاماً يقتاتون به احتاجوا للزناد ليشعلوا نارهم ولكنه لم يكن مع هذه القافلة زناد سوى الزناد الذي ترك شبه امانة (عند عقلى بن شبيب) : وأراد القوم أن يأخذوه من عقلى فلم يرض بصفته أمانة عنده فألحوا عليه لحاجتهم الماسة اليه فرفض إلا أن يشتروه منه فقبل القوم ذلك . فطلب عقلى ان تكون قيمة الزناد ضريبة موزعة

(١) عقلى عنزي النسب ، من قبيلة السبعة ومن فخذ القمصة القاطنين شمال دمشق ، وصاحب الترجمة يمت بصلة رحم لزعيم قبيلة السبعة ونائبها في البرلمان السوري الحالي الشيخ راكان بن مرشد .

(٢) لم أوفق لمن يدلني على اسم جاره .

(٣) الزناد ، هو أداة تستعمل لايقاد النار وكان يقوم مقام الكبريت قبل اختراعه .

(٤) ربما كانت مدينة حمص إذ انها اقرب المدن لمنازل قبيلة السبعة .

عليهم أجمعين

وتم شراء الزناد على أن يدفع كل فرد من هذه القافلة حفنة من طحين البر .

لقد كانت القافلة كثيرة العدد، لهذا توفر عند عقلي كمية لا يستهان بها من الطحين فباعها واشترى بثمانها شاة وبارك الله بهذه الشاة وزاد بعد ذلك مال الأمانة حتى بلغ ستين نعجة وعشرين من الابل ، هذا وصاحب الأمانة لا يعرف شيئاً عما تم بها ، وربما كان نسي زناده ولم يخطر له ببال .

ولكن «عقلي» كان أميناً ورعاً حيث ذهب يسأل عنه حتى وجده فسلمه الابل والغنم وذلك بعد مضي عدة سنوات من تركه للزناد عنده ^(١) .

(١) رويتها من الشيخ مقحم بن مهيد رئيس عشيرة الفدعان حالياً وولده نواب العشيرة في البرلمان السوري وهما النوري وتركى .

سلم الأمانة لأهلها وهم له اعداء

قصة غنام الشباطي (١) الغريزي حدثت عام ١٣٣٨ هـ

أودع عبد العزيز (٢) العريفي غنماً عند الشباطي فتمت هذه الغنم وكثرت وشاء المؤمن أن يسلم الأمانة لصاحبها ، ولكنه لم يتمكن من الاتصال به إذ أن بلده حائل كانت مطوقة من قبل المغفور له الملك عبد العزيز وجنوده الاخوان . (٣)

وكان الشباطي ممن يؤمن بمبدأ الاخوان فهو على هذه الحالة أصبح لا يستطيع أن يأتي للبلاد التي فيها العريفي صاحب الأمانة فحار الرجل بالأمانة لا يعرف كيف يفعل بها . وبينما كانت حيرته على أشدها هجم عليه أفراد عشيرته قاصدين نهب هذه الغنم على اعتبار أن العريفي الآن أصبح في الجبهة المعادية لعشيرته فتكون هذه الغنم على رأيهم غنيمة لهم يتقاسمونها وكل يأخذ نصيبه منها .

(١) غنام من قبيلة شمر .

(٢) عبد العزيز من سكان بلدة حائل واسرته من الاسر المشهورة في البلاد .

توفي رحمه الله عام ١٣٥٢ هـ .

(٣) الاخوان اسم اطلق على مجموعة من البادية انضوت تحت لواء الملك عبد العزيز رحمه الله إبان قيامه لانشاء المملكة وترك حياة البادية وسكنت الهجر

فلما رأى الشباطي عزيمة قومه على سلب الأمانة ، لجأ إلى الحيلة ، فلم يبد لهم أية معارضة لرأيهم بل تظاهر بأنه مستعد أن يسلم الغنم إليهم ليتقاسموها غنيمة كما يزعمون ، ثم أسرع فساق الاغنام وشخص الى مدينة حائل ليسلم الامانة لصاحبها . فلما دنا من المدينة قبض عليه جنود أمير حائل وعذبوه أشد العذاب حيث اتهموه بأنه جاسوس لعشيرته على إماراة الرشيد . وبعد التعذيب والتنكيل شفع له صاحبه العريفي من بطش الامير الذي سجنه وهدده بالقتل . وبعد أن سلم أمانته لصاحبها عاد إلى عشيرته فلقي منهم الجفاء والهجران واتهم عندهم بالنفاق . ولكنه لم يبال بأقوال هؤلاء ولا أولئك وإنما كان همه ان يؤدي أمانته ليطمئن ضميره العفيف الورع الطاهر (١)

(١) رويت هذه القصة من السفير الشيخ عبد العزيز بن زيد رحمه الله كما حدثني بها سليمان بن عبد العزيز العريفي صاحب الغنم

ضحى بماله دون كرامته

وقعت بين عامي ١٣٤٠ و ١٣٤٥ هـ

شاء بدوي من بادية بلدة « الرياض » أن يضع أمانة من الدراهم تبلغ خمسمائة ريال فرنسي فاختار شخصا يسمى ابراهيم البصري من أهالي « مدينة الرياض » فوضع هذا المبلغ عنده . ثم ذهب الى أهله في البادية وبعد مضي مدة من الزمن عاد البدوي الى الرياض وذهب الى شخص بجوار دكان صاحبه يطالبه بالمبلغ معتقداً أنه هو صاحبه الذي وضع عنده الامانة ، وهذا الشخص يسمى (عبد الرحمن بن محمد آل الشيخ) ، حاول ابن الشيخ أن يقنع البدوي ويوضح له غلطه ولكن البدوي يزعم أنه لا يشك ابداً بأن المبلغ عنده ورآى ابن الشيخ ان محاولته شيء يجعل البدوي يشك بأنه يحاول ان يوهمه بغير الحق ليختلس امانته .

هناك فكر ابن الشيخ فرأى أنه بين أمرين : إما أن يطول الجدل بينه وبين هذا البدوي وينتهي بأن يذهباً إلى القاضي ويتخاصمان عنده وهذا شيء لا تقبله شيمة عبد الرحمن ابن محمد بصفته من احفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب مجدد الدعود الاسلامية في نجد ولا يليق بمكانته العلمية والاجتماعية ، ولا يرضى ان يتحدث عنه مجتمعه انه اتهمه بدوي بانكار

اماتته مع علمه اليقين بأنه سوف يدحض حجة البدوي وذلك ان الحكم الشرعي في مثل هذه الامور صريح فالمرجع عليه الصلاة والسلام يقول « لو يعطى الناس بدعواهم لا دعى رجال دماء قوم واموالهم ولكن البينة على المدعي واليمين من انكر » فعلى هذا لا يستطيع البدوي ان يثبت على ابن الشيخ ما يدّعيه كما ان ابن الشيخ لا يطالب بغير القسم ؛ ولما كان يعلم من نفسه البراءة فانه كان بامكانه ان يقسم اليمين ويخلص نفسه من هذا المأزق الحرج . ولكن نفسه الكريمة ابت ذلك لان فيه مجالاً لأقوال الفضوليين من قيل وقال ، والشاعر العربي يقول :

قد قيل ما قيل إن صدقاً وإن كذباً

فما اعتذارك من قول إذا قيلاً

إذن كان يتحتم عليه الأمر الثاني وهو أن يضحي بماله دون كرامته سداً للذريعة واتقاءً للشبهات والمرجع عليه السلام يقول : « من اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه » فعلى ذلك استحسن أن يسلم البدوي خمسمائة ريال وهو طيب النفس مع العلم أن هذا المبلغ في ذلك العهد يقابل عشرات الألوف في عهدنا الحاضر لأن اكتساب عشرات الألوف في عهدنا الحاضر أمر يسير خاصة في مدينة الرياض التي تضاعفت فيها أرباح التجارة إلى حد لا يسعنا التعبير عنه بحال من الأحوال ، لا سيما

في الأراضي والعقارات ، لهذا أقول : إن هذا المبلغ الذي سلمه هذا الرجل البريء الكريم لهذا البدوي ربما يكون نصف رأسماله إن لم يكن كله .

ذهب البدوي إلى عشيرته وبقي في صحرائه سنة كاملة لم يأت فيها إلى الرياض . وبعد مضي هذه المدة عاد إلى الرياض وبينما هو مار في قلب الشارع الذي يقع فيه دكان صاحبه ، ناداه صاحبه الأول وقال له : « أأنت فلاناً الذي وضع عندي الأمانة في سنة كذا ؟ قال البدوي : نعم . قال : ولم تركتها عندي كل هذه المدة ؟ أرجو ان تستلمها مني وتريجني منها لأن مدتها طالت عندي والمرء في هذه الحياة عرضة للآفات والحوادث الطارئة وإنني أخشى ان يأتيني أمر أو أن يحدث بهذه الأمانة شيء لا أرضاه لنفسى ، كما أنك لا ترضى أن يكون مالك عرضة للخطر والحوادث المفاجئة » .

دهش البدوي من حديث صاحبه ، وخرج فوراً إلى صاحب الدكان الثاني ليتحقق من خطيئته فوجد الشخص الذي أخذ منه المبلغ في العام الماضي جالساً في دكانه ، عند ذلك تيقن أنه ارتكب خطأً كبيراً بعمليته تلك وافترائه على هذا الرجل الكريم . ولكن ماذا يفعل ؟ فقد مضى الأمر وانقضى .

أخذ بيد صاحبه الأول وهو ابراهيم البصري وقال : « أرجوك أن

تسلم أمانتي هذه لجارك لاني اقترضت منه ما يقابلها .

أخذ البصري الأمانة وسلمها لابن الشيخ وقال له : إن هذا المبلغ أمرني البدوي فلان أن أسلمك إياه مقابل سلفة اقترضها منك .

لم يذكر ابن الشيخ أنه أقرض بدوياً هذا المبلغ ، فردّ على جاره وقال : إنك مخطئ ، أنت والبدوي لأنني لا أذكر شيئاً من هذا القبيل .

وبينا ابن الشيخ وجاره يتداولان الحديث ، في تلك اللحظة دخل البدوي^(١) عليهما وانحنى على رأس ابن الشيخ يقبله ويعتذر منه ، هذا والبصري لا يعلم ما هو الأمر ولكنه قد اتضح له فيما بعد .

أقول : من صلاح نية عبد الرحمن بن الشيخ وتوفيقه ان قضيته كانت مع بدوي أمين ولو لم يكن البدوي صاحب أمانة لأخذ المبلغ من البصري وسكت عليه ولكن شاء الله أن يرد البدوي مال هذا الشريف الأمين عليه ، كما شاء أن يبقى له ذكرى عمله الطيب خالداً أبداً . ومن التوفيق أيضاً ان البصري أمين ورع ولو لم يكن ذلك لسكت .

حينما ذكرت هذه القصة للشيخ عبد العزيز بن زيد^(٢) اسمعني قصة

(١) كنت اتنى لو عرفت اسم البدوي أو اسم عشيرته على الأقل ولكنه قد تعذر علي ذلك . والحادثة مشهورة عند ساكني الرياض القدامى .

(٢) سفير المملكة العربية السعودية في دمشق ، توفي رحمه الله عام

١٣٧٨ هـ ١٩٥٨ م .

من نوعها حدثت بين ضابط من ضباط الأتراك في العهد (العثماني) وبين
تاجر من تجار دمشق .

دخل الضابط التركي الى احد الحمامات العامة ، وكان يعتقد أن في
جيبه ثلاثمائة (غازي)^(١) مربوطة في منديل أحمر ، ثم نزع ألبسته وتدرع
بمنشف الحمام فلما استحجم وانتهى ، ذهب بعد ذلك الى ألبسته وأخذ
يبحث قبل كل شيء عن الغوازي التي كان يظن انه دخل الحمام وهي موجودة
في جيبه . فقتش في جيوبه فلم يجد شيئاً ، فصاح في صاحب الحمام قائلاً :
إني سرقت . فسأله صاحب الحمام : ماذا سرق منك ؟ قال : كذا مبلغاً من
المال مربوطاً في منديل أحمر . قال صاحب الحمام : اننا سنتخذ التدابير
التي تمكننا من إدراك ما فقد ، وهذه التدابير هي أن لا يخرج أحد من
الحمام إلا بعد التفتيش الدقيق له . وبما زاد إيمان صاحب الحمام بأن هذه
العملية كفيلة بالوصول الى الغاية ، ذلك انه متأكد أن هذا الضابط من
حين دخل الحمام لم يخرج من الحمام أحد كما انه لم يدخله من بعده إلا
رجل واحد وهو شيخ السروجية المدعو محمد سعيد ، ولما خرج الشيخ
السروجي من الحمام وجد عند صاحب الحمام ضجة غير طبيعية . فسأل
عن السبب فأفيد أن الضابط التركي سرق من جيبه ثلاثمائة (غازية) ومن

(١) الغازي في ذلك العهد هو بمثابة نصف جنيه عثماني حسب ما يقال .

المصادفة الغريبة أن السروجي كان يحمل معه نفس المبلغ فوقع في نفسه ما وقع . ولكنه قال : لعل أسأل الضابط عن لون المنديل الذي صرفه المبلغ . فسأله فأفاده الضابط بوصفه وإذا هو صورة طبق الأصل للمنديل الذي يحمله .

شعر السروجي بعد ذلك أنه وقع في التهمة لا سيما وهو داخل بعد الضابط كما أنه نزع ألبسته بقرب ألبسته ، فلم يبدأ من أن يأتي للضابط فيقول له : اشرك إن دراهمك عندي وذلك أني وجدتھا واقعة على الأرض فالتقطتها واحتفظت بها .

وسلم للضابط المبلغ صيانة لشرفه وذهب الضابط الى ثكنته ليضع هذا المبلغ الذي ضاع منه في مكانه .

ولكن عندما فتح صندوقه ، وجد المبلغ بمكانه كما يعهده . عند ذلك ادرك أنه مخطيء وأن السروجي سلم هذا المبلغ حفظاً لشرفه وسمعته ، فذهب فوراً الى السروجي وسلمه ماله واعتذر منه .

وهكذا التاريخ يعيد نفسه . ولكنني اعتقد ان حادثة عبد الرحمن ابن محمد بن الشيخ اعظم من هذه الحادثة . وإن كانتا متشابهتين من حيث المعنى ولكن الأولى تمتاز على الأخرى بشيء واحد وهو ان البدوي لا يستطيع ان يدين ابن الشيخ بالبيئة الشرعية فيما لو ذهب الى القاضي

وابدى كل منها حجة . اما السروجي المسكين فإنه مرغم على عملته
هذه ؛ فإنه لو لم يفعلها مختاراً فان الشارع ربما يرغمه إرغاماً بحكم
القرائن التي تدينه من شتى الوجوه ^(١) .

اجرة الاجير

حدثت سنة ١٣٤٠ هـ

هذه قصة فرهود بن هَندَا مع راعي غنمه « الحديدي » وفرهود
هذا عنزي الأصل من « السبعة » عرب سورية لا سبيع عرب نجد ، من
فخذ يسمى « الدوام » وهذا الفخذ يتفرع من « العبدة » والعبدة ^(٢) قبيلة
كبيرة تتفرع منها السبعة . وقد استأجر فرهود شاباً من عشيرة
الحديدين ^(٣) من فخذ يسمى « الأبرز » ليرعى غنمه مدة معينة يدفع له عليها
جعلاً معلوماً إما من المال او من الماشية .

(١) أخبرني أحد الاخوان أن حفيد شيخ السروجية الذي جرت له القصة
هو الاستاذ عز الدين التنوخي عضو المجمع العلمي العربي واستاذ اللغة العربية في
كلية الآداب وقد زرته في بيته فأكد لي القصة ورواها لي بالتفصيل كما وردت في
السياق وأفادني بأن القصة جرت في سنة (١٢٥٠ هـ) والحمام الذي جرت فيه هو
حمام « السلسلة » الباقي الى الان في دمشق .

(٢) العبدة : يقدرون بألفي بيت يرأسهم ابن هديب .

(٣) الحديديون : يرأسهم ابن كرخ .

ولقد رعى الحديدي غنم فرهود مدة لا اعلم مداها من الأيام وإنما الذي علمته من الشخص الذي روى لي القصة وهو « جوال ابن وايل ^(١) » : إن الأجرة التي استحصلها الحديدي من « فرهود » عبارة عن حملين صغيرين ، وذهب الحديدي وترك هذين الحملين عند « فرهود » (عدولة) أي أمانة ومضت سنون وهذان الحملان ينموان وما زالت تتضاعف بركتها ^(٢) مع الأيام حتى بلغ العدد سبعين نعجة وتسعاً من الابل وذلك بعد مضي مدة لا تتجاوز خمسة وعشرين سنة . فلما نمت عند فرهود هذه الماشية ما وسه آذاك إلا ان يسعى سعياً حثيثاً للبحث عن صاحب هذه الأمانة . وظل فرهود ينقب عنه وما برح يسأل يالحاح حتى تأكد أن الشخص توفي الى رحمة الله ، عند ذاك سأل عن ورثته فوجد لصاحبه أخاً فما كان منه إلا أن سلمه جميع الغنم والابل .

وهذه القصة تذكرنا بما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن

(١) هو الذي روى قصة كليب الدمشقي مع صاحبه السيعي . راجعها في صفحة ١٦٠ من هذا الكتاب .

(٢) من الواضح أن هذين الحملين لا يزيدان نمواً فيما لو تركها « فرهود » كما هما . ولكنه كان عندما يكبر الواحد منها يبذله بشاة او يبيعه ويشترى عوضاً عنه شاة من اجل النسل والنمو وهكذا دواليك حتى وصلت الغنم الى ما وصلت اليه من الوفرة والنمو .

رسول الله ﷺ : « أن ثلاثة نفر انطلقوا حتى آواهم المبيت الى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار . فقالوا : إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعو الله تعالى بصالح أعمالكم ، فدعا الأول بیره بوالديه فانفجرت الصخرة شيئاً لا يستطيعون الخروج منه . ودعا الثاني بعفاهه اتقاء لله فانفجرت الصخرة غير انهم لا يستطيعون الخروج منها . وقال الثالث : « اللهم إني استأجرت أجراً واعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب ، فشمرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين فقال : يا عبد الله أدّ إلي أجري فقلت : كل ما ترى من أجرك : من الابل والبقر والغنم فقال : يا عبد الله لا تستهزئ بي ! فقلت : لا استهزئ بك ، فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئاً . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفجرت الصخرة فخرجوا يمشون » .

لقد رسم رسول الله ﷺ في هذا الحديث الشريف لأصحابه بقصة هؤلاء الثلاثة أرفع مثل في البر والعفة والأمانة .. فما أروع أن يصل أحد افراد أمته في عصر متأخر في الأمانة الى مستوى ذلك المثل الرفيع^(١) .

(١) رويت القصة من جوال بن وايل السبيعي .

قاتل الله الطمع

وقعت بين عامي ١٣٤٨ — ١٣٤٩ هـ

يوجد قرية من قرى مدينة « حائل » اسمها « فيد » وأكثر سكانها من بني تميم ، أودع أحد سكانها حملاً من الضأن عند شخص يدعى « سلمان الصل » من قبيلة عنزة من الدهامشة وقد وضع المؤمن هذا « الحمل » ضمن غنمه ورعاه بعناية لا تقل عن عنايته بماشيته إلى أن بارك الله بهذا الحمل حتى كبر وصار كبشاً فبدل الكبش بنعجة فأنجبت هذه النعجة غنماً بلغت بركتها إلى حد أن ابتاع منها الرجل المؤمن عدداً كثيراً ووضع مكانها « نوقاً » فتناسلت هذه النوق إلى أن بلغت خمساً وسبعين ناقة كما بلغ ثمن أوبارها وثن بعض ما ابتاعه منها مقدار مائة وستين جنيهاً عثمانياً .

وبعد أن بلغت البركة إلى هذا الحد لم يسع هذا الأمين إلا الذهاب إلى صاحب الأمانة أي ساكن القرية حيث سلمه سبعين ناقة كما ذكرنا وخمساً وستين جنيهاً عثمانياً .

ومن المؤسف أن صاحب القرية^(١) لم يعامل هذا الأمين الورع بما يستحقه من التقدير والانصاف ولم يهبه شيئاً يقابل جهوده وأمانته من هذا

(١) لم أوفق لمعرفة اسم ساكن القرية .

المال الذي أتاها وهو لا يحلم به وربما وهبه بعضاً منه .
عاد الأمين إلى أهله وبينما هو في سبيله عاتداً مر على بلدة « حائل »
ودار الحديث بينه وبين أحد سكانها فقص الأمين قصته عاينه فأرشده
الرجل إلى أن يقيم دعوى على صاحب القرية وفعلاً رفع الأمر إلى أمير
البلاد « عبد العزيز بن مساعد » والأمير بدوره أحال الدعوى إلى القاضي
الشرعي وهو في ذلك العهد المرحوم « الشيخ عبد الله بن بليهد »^(١) فاستدعي
صاحب القرية من قريته وجرت المحاكمة بينه وبين صاحبه الأمين فحكم
القاضي بأن يأخذ البدوي الأمين نصف الابل والجنميات مقابل أتعابه
ويترك النصف الأخير لصاحب القرية .

(٢) « ابن بليهد » من علماء الجزيرة توفي غفر الله له عام ١٣٦٩ بمدينة الطائف .

أمانة بلغ أجلها قرناً

في عام ١٢٥٨ هـ أودع امير بلدة «بريدة» المدعو عبدالعزيز المحمد ناقة عند شخص يدعى (طلق الشعيلي) من قبيلة عنزة من فخذ يسمى السويلمات وذلك في الحين الذي كانت قبيلة (طلق) تقطن اراضي نجد وقد اتت ظروف كان من شأنها ان نزحت هذه القبيلة واستوطنت الاراضي العراقية فبعدت اراضي صاحب الأمانة عن المؤتمن ، هذا والمؤتمن لا يزال معتنياً بأمانته أشد العناية الى ان بارك الله بها ونمى الخير منها نمواً سنذكر مقداره في آخر القصة . . وقد توفي كل من عبد العزيز صاحب الأمانة وطلق الذي أودعت عنده الناقة ، ولم يبق إلا احفادهما ، وبعد ذلك قدم أحفاد (طلق) الى (بريدة) حيث وجدوا أحد أحفاد عبد العزيز صاحب الأمانة المدعو عبد الله بن عبد المحسن بن عبد العزيز فسلموه ثمانين ناقة وثلاثاً من الخيل الجياد ، وفي عام ١٣٥٠ هـ سلم احفاد المؤتمن لأحفاد صاحب الأمانة عشرين ناقة واربعين نعجة .

(١) بريدة احدي مدن نجد والقصة رويتها عن عبد العزيز العبد الله الصغير ، وهو يزعم انها مشهورة . ولئن كنت أشك في صحة رواية الراوي فاني لا اشك في صحة وقوع القصة .

من مصارفات الحديث

قصة كليب العنزي الدهمشي من فخذ آل عياش
مع صاحبه السبيعي

هذه القصة تلقيتها مبدئياً من الشيخ (راكا^(١) بن مرشد) في السفارة السعودية في تاريخ ١٥-٦-١٣٧٤ هـ — ٧-٢-١٩٥٥ م وقد كان الحديث بين السفير (عبد العزيز الحمود بن زيد) وبين الشيخ (راكا^(١) بن مرشد) يدور حول أخلاق العرب وما يتصفون به من صفات سامية كالأمانة والوفاء بالعهد وحسن الجوار وما الى ذلك . وقد كان السفير يروي للشيخ (راكا^(٢)) قصة (٢) عنزي من فخذ الدهامشة وقعت له مع (راعي الخليفة^(٣)) وفيها بلا شك ما يدل على احترام الأمانة في خلق العربي . وعندما انتهى السفير من رواية القصة بإيجاز ، قال الشيخ رাকা^(١) : أريد أن أروي لك قصة قريبة العهد فأصغي السفير لاستماع ما يرويه الشيخ فقال (راكا^(١)) : من مدة اسبوعين كنت في صحراء المملكة السعودية اصطاد غزلاناً على متن السيارة . وفي أثناء مسيري هذا وجدت (خرجاً) مطروحاً في

(١) رাকা^(١) رئيس عشيرة السبعة ونائبها بالبرلمان السوري حالياً .

(٢) هي قصة مشهورة راجعها في هذا الفصل صفحة « ١٢٥ » .

الصحراء فأوقفت السيارة وأمرت السائق أن يأخذ هذا الخرج فأخذه فإذا به خرج بدوي فيه أشياء تافهة تدل على أن هذا الخرج لفرد ما من البادية . قال ثم سرنا قليلاً فوجدنا (شداداً) مطروحاً ايضاً في الأرض قال ثم تابعنا المسير ولكن ضميري كان غير مرتاح لمسيرنا هذا لأنني خفت ان يكون صاحب هذه الأشياء رجلاً طرحته مطيته في الأرض كما طرحت هذا الشداد والخرج عن ظهرها . قال : فعند ذلك امرت قائد السيارة ان يعود من حيث اتى ، فلما وصلنا الموضع الذي وجدنا فيه الخرج بقيت انا ورفاقي في السيارة يمد كل فرد منا بصره وننقب عن الشخص صاحب الخرج والشداد فرأينا بياضاً يلوح على البعد فلما دنونا منه وجدناه شخصاً مرمياً على قفاه فاقد الشعور . قال الشيخ : فحاولنا ان نبحث معه لنعلم من هو ؟ ومن أي قبيلة يكون حتى نحمله ونوصله الى عشيرته ؟ ولكن الرجل لم يكن لديه من القوى العقلية ما يجعله يفيدنا بشيء مما نريد وذلك لشدة ما اصابه من الألم .

يقول الشيخ وبينما نحن على هذه الحال نظر إليه أحد الرفاق وهو المدعو «جوال بن وايل» وقال له ألسنت فلاناً ؟ قال المنكوب : بلى ، بصوت خافت ضئيل . يقول راكان : قلت لصاحبي : متى كانت معرفتك به ؟ فأجابني بأنه عرف هذا الرجل منذ ستة أشهر . وذلك أنه ساقه القدر ونزل ضيفاً عنده أي عند (جوال) وكان في أثناء ضيافته يسأل عن شخص من عرب

السبعة وهو رجل كان اشترى منه عنزين من مدة تزيد على ثلاثين سنة . وبعد أن دفع ثمنها انطلقت واحدة منها وضاعت من يد المشتري فبقيت الثانية قلقة لفقد رفيقتها . فخشي المشتري أن تضيع الأخرى وتلحق سيل الأولى . لهذا اضطر إلى أن يترك العنز الثانية عند صاحبها البائع لتكون «عدولة»^(١) .

لقد كان الشيخ راكان يسرد هذه الحادثة على مسمع من السفير ابن زيد وكان كاتب هذه الأحرف جالساً ، فالتفت إلى السفير فأشار بقوله: إن هذه الحادثة من الأمور التي يحرص على تدوينها فلان - يعني - وكنت قد أعددت الورقة والقلم لكتابة القصة لأنها من الحوادث التي من واجبي أن أسجلها في حقل (شيم العرب)، وعندما انتهى الشيخ راكان من رواية الحادثة طالبت منه اسم الشخصين المؤمن والمؤتمن . كما طالبت منه أن يفيدني عن مقدار ما بلغ نحو هذه الأمانة في هذه المدة فأجاب الشيخ (راكان) بأنه لا يعرف عن ذلك شيئاً غير أنه ارشدني الى الرجل الذي يعرف القصة من

(١) العدولة هي شبه أمانة توضع عند فرد ما من عرب البادية إما نعجة أو عنز أو أقل من ذلك أو أكثر . المقصود أن هذه الأمانة يضعها صاحبها عند الشخص الذي يكون مظنة للامانة وهذا الشخص يحرص على حفظها وتنميتها أكثر من حرصه على ماله . والمؤمن يكون من حقه أن يتمتع باستغلال ابن وسمن وصوف هذه الامانة ابلاً كانت أو غنماً .

أساسها . وهو المسمى (جوال بن وايل)^(١) المقيم حالياً بدمشق في فندق الأندلس الكبير . وبما أنني كنت ولم أزل شديد الشغف والحرص على تسجيل أمثال هذه الفضيلة لذلك ذهبت في الغد الى الفندق المذكور . فوجدت به رجلاً غريباً جالساً في صالة الفندق وعلى محياه طابع الصدق والوقار . كما وجدت الشيخ راكان الذي أرشدني إلى (جوال) . فدنوت منه وسألته عن القصة فراوها لي كما رواها لنا من قبل الشيخ راكان . فعدت أسأله عن اسم الشخص المؤتمن - أي الذي اودعت عنده العزان - قال اسمه كليب ولا علم لي باسم أبيه كل ما أعرفه أنه يدعى كليب من أصل عنزي^(٢) من الدهامشة . ومن فخذ يسمى آل عياش . سألته عن عدد الماشية التي نمت وترعرعت عنده من الأصل الذي كان أساسه تينك العززين . قال جوال : إن كليباً عندما ضافني كان معترفاً لي ان تينك العززين نمنا إلى أن بلغنا خمسين نعجة وخمسة عشر من الإبل ودراهم لا يذكر جوال عددها .

(١) جوال هو من عشيرة غزوة من فخذة البعد وهو رئيس عشيرة الرماح . ويبلغ عدد العرب الذين يرأسهم تسعين بيتاً .

(٢) هي في الأصل غزوة واحدة على اعتبار أن الثانية ضاعت . ولكن يروى جوال عن كليب أن تلك الغزوة لما ضاعت وجدها عند فرد من عرب قبيلته وأراد الذي وجدها عنده أن يبيعها لنفسه ولكن كليب ادعى أنها امانة عنده فأخذها منه بالقوة بعد مقاتلة عنيفة .

عدت استفهم جوالاً عن اسم الرجل السبيعي الذي أودع هاتين
العززين عند كليب الدهمسي قال جوال: إنه لا يعرف اسمه لأن كليباً عندما
ضافه ما استطاع أن يهتدي إليه لأن القضية كما أسلفنا لها ثلاثون سنة وكليب
في الأصل ما كان يعرف اسم صاحب الأمانة وغاية ما يعرفه أنه من عرب
السبعة ولديه فرس حمراء. هذا كل ما يعرفه عن صاحب الأمانة.

يقول جوال: لا أستبعد أن كليباً إلى الآن لم يهتد إلى صاحب العنز
فهو لا يملك أدلة قاطعة يستطيع على هداها أن يصل إليه.
وقد سألت الشيخ راكان عن الرجل المدعو كليباً الذي وجدته ملقى
على الأرض، سألته: ماذا تم في أمره؟
قال راكان: إننا حملناه معنا في السيارة حتى وضعناه عند عشيرته وذلك
آخر العهد به.

فائدة لم نسع اليها

في تاريخ ٧ - ٦ - ١٣٧٥

عندما كنت في دائرة عملي في السفارة العربية السوديّة في دمشق في تمام الساعة الحادية عشر فرنجياً من التاريخ المشار اليه هناك دق جرس الهاتف فتناولت السّاعة لأستوضح من هو المتحدّث؟ فإذا به الأخ سليمان الإبراهيم القاضي^(١) وبعد تبادل الحديث افادني الأخ أن لديه عزيمة سفر الى مدينة جدة في صباح الغد ، كما أبدى لي شعوره الطيب فيما إذا كان لدي حاجة هناك ، فإنه الأخ المتواضع الذي يقوم بقضاء حوائج إخوانه بضمير مطمئن ونفس متواضعة ، ولقد شكرت الأخ القاضي على نبّله وتواضعه الذي لا يستغرب منه كما أفدته بأن لا بد لي من حاجة عند شخص ما في (جدة) وأكدت له بأنني سأمر عليه في مكتبه مساء لأوضح له حاجتي ، وتنفيذاً للوعد ذهبت اليه وسأته رسالة مفتوحة ، وطلبت منه أن يقرأها ليفهم ما تحتوي عليه من الغاية ليتولى تنفيذ مضمونها فيما اذا وصل «جدة» وكانت الرسالة موجهة لتاجر في جدة وهو الأخ عبد الله

(١) سليمان من مدينة عنيزة ومن اسرة القضاة الذين نبغ منهم الشاعر الشعبي المشهور محمد العبد الله القاضي المتوفي عام ١٢٨٥ وهم تيميو النسب واسرته من اشهر الأسر العريقة في بلادها ، وسليمان حالياً مقيماً في دمشق يمتهن حرفة التجارة .

العلي البسام الذي أستوضح منه إفادتي عن قصة أمانة تستحق الذكر كان لها صلة بين البسام وبين شخص آخر ، وحيث أن الشخص الذي رويت عنه القصة غير ملم بها من الناحية التاريخية ولا عن تفاصيلها . لهذا رأيت أن استفسر من البسام بحكم علاقته المباشرة بالقصة حسب ما رويتها من الراوي .

عندما قرأ القاضي رسالتي وفهم ما فيها من غاية أصبو إليها ، انخرق إليّ وقال (اني أحدثك عن قصة قريبة العهد . وفيها من الأدلة الناصعة والبراهين الواضحة على امانة فاعلمها الشيء الذي يسترعي الانتباه ويجدر بالكاتب ان يسجلها بمداد من الذهب) ، ثم استرسل القاضي وقال : وإن لدي من الوثائق الخطية ما يؤكد صحة القصة من الناحيتين التاريخية والواقعية .

هذا وقد كنت أصغي لاستماع حديثه بكل لهف وشوق . فقال القاضي : ثمة شخص يدعى (سليمان المحمد الخليف ^(١)) كان يتعاطى مهنة التجارة بين المملكة العربية وبين بادية سورية ، وقد ذهب بتجارته الى قبيلة السبعة ^(١١) وذلك من مدة خمسة عشر عاماً فحل

(١) سليمان من مدينة عنيزة وهو لا زال على قيد الحياة .

(١١) هذه القبيلة من عشيرة عنزة .

عندهم مدة اتباع ما ابتاعه من بضاعة واشترى ما شاء الله أن يشتري من المواشي عوضاً عن بضاعته ثم رحل عن هؤلاء العرب ولم يعد اليهم بعد ذلك .

وقد نسي (منديلاً) في منزله الذي رحل منه ، وبعد ذهابه عن المنزل أتت حرمة من نساء القبيلة فوجدت هذا المنديل مطروحاً في الموضع الذي رحل منه التاجر ، فايقنت اليقين القاطع بأن هذا المنديل للتاجر الذي رحل من عندهم ، فأرادت أن تلحق به لتسأله أمانته ، ولكنه قد بعد بعداً لا يمكنها الوصول اليه ، فرأت أن خير وسيلة تلتمسها هي أن تحتفظ بهذا المنديل أمانة عندها بل إنها لم تحتفظ به كأمانة مجدة ومعطلة الفائدة ، بل قررت أن تتصرف به وتستثمره بقدر ما تستطيع من الجهد ، لعل الله يبارك به ، وينمو ريعه وتنمثر بركته ^(٢) .

ولما كانت الأعمال كما ورد في معنى الحديث الشريف مقروناً بنجاحها بصدق نية صاحبها ، فلا عجب إذ لقيت هذه المرأة نجاحاً باهراً في حسن تصرفها في هذا المنديل التافه ذلك أنها ذهبت به وباعته بكمية من الصوف وغزلته ونسجته حبلاً . ومن بعد باعت الحبال بدراهم . وبدورها

(٢) اشارة الى قول النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى» الخ . هذا الحديث يعتبره رجال السنة من أبلغ الأحاديث معنى .

ذهبت واشترت بهذه الدراهم سخله ، عند ذلك كرست الانثى التقيية
جهودها نحو العناية بهذه السخله حتى وضع الله البركة في ذرية السخله ،
بل قل في مساعي هذه الانثى الطاهرة القلب الصادقة النية ، الى أن تفرع
من هذا الجزء الضئيل الاصل عدد جم من الغنم^(١) .

وعلى الفور كلف ابنه حمداً أن ينقب عن هذه الوثيقة لعله يجدها
بدفاتره التي في دمشق ، ولحسن الحظ أن (حمداً) كان واضعاً للوثيقة في
قلب الصندوق التجاري ومتذكراً موضعها الذي وضعها به .

يا لله !! كم تراني مسروراً ومبتهجاً عندما تناولت هذه الوثيقة ذلك
أني وان كنت لا اشك بصحة عموم القصص التي سجلتها هنا . وانما هذه
القصة لديها من البينة والبرهان ما يجعلنا نزداد ايماناً لا من ناحية صحة هذه
القصة بالذات ، فهذه شاهدة من نفسها على نفسها بحكم وجود هذه الوثيقة
الآتية ، وانما ازددت سروراً من أجل ما فيها من تأييد واضح على صحة
القصص العربية التي أوردناها هنا ولم يتيسر لنا العثور على وثائقها كعثورنا
على وثيقة هذه القصة وغيرها التي يطلع القارئ على نصها موضعاً .
واليك نص الوثيقة بنفس التعبير الذي جاءت به طبقاً للأصل :

(١) للقارئ ان يرى صورة الكتاب الآتي آخره يتضح له المجموع كاملاً من
غنم وشيء من الجمال والحميز .

بسم الله الرحمن الرحيم

في ٢٨ ربيع آخر ١٣٧٣

بسم الله وحده عن بيان ما عند سالم بن الهندي من ادوام السبعة
لنا عدد ١٣٣ عنده مائة وثلاثة وثلاثين رأس غنم منهم ثمان معز والباقي
مائة وخمسة وعشرين ضان عدد ١٢٥ وبيان الضان ٧٧ سبع وسبعين ضان
جلايل^(١) شياه^(٢) فقط منهم ٥ خمس كباش ومن الضان ٢٦ ستة وعشرين
شات جذعات^(٣) ومن الضان ٢٢ طلي^(٤) جذعان قراقر عدد ١٢٥ فصاح
عدد الضان كما هو مذكور اعلاه مائة وخمسة وعشرين والمعز ٨ ثمانية منهم
٥ خمس معز كبار وتسعين ٢ جذعان ووحده صخله الجميع ٨ وبيان
وسم الغنم ١٣٣ وبيانهم ومعهم زمال^(٥) ابيض وزماله سودا وبيان وسم
الغنم الشلقة بالإذن اليمنى وايضاً شلقة صغيرة بالأذن اليسرى من قدام
هذا عدد الغنم واوصافه ووسمه وايضاً لنا عند المذكور سالم ثلاث
بغارين^(٦) جل خصي اصفر وقعود^(٧) لقي اصفر وناقة صفراء ويزعم سالم

(١) الجلايل ، الكاملة السن .

(٢) شيان ، جمع شاة .

(٣) جذعات ، المراهقات .

(٤) الطلي ، الذكر من الضأن الذي بسن المراهقة .

(٥) الزمال ، الحمار .

(٦) أي جمال .

(٧) قعود لقي ، المراهق من الابل .

ان لنا عند واحد من الدوام خمسين ليرة سوري قيمة شاة هذا الذي عند سالم لنا وداعة ثم بعد واجهنا بامليص في ٢٦ صفر ١٣٧٢ طلب منا سالم انحنأ نقوم عليه الغنم ١٣٣ رأس والزمايل اثنين والجمال الخصي انقومن عليه بتثمين بضاعة تكون عنده شركة^(١) عضم ومنه قومنا عليه بتثمين ما يسون وهن ١٣٣ رأس غنم وزمالين^(٢) والجمال الخصي في مبلغ ستمائة واربعين دينار عراقي ومنه يورد علينا قيمة صوفها وسمنها وخرافينها والذي ينباع من شيان ويورد علينا ويقيد الوارد دينار حتى ان شاء الله يبلغ الوارد المذكور ستمائة واربعين دينار تكون الغنم ونسله والجمال والزمايل بينا نحنا وسالم انصاف نسأل الله حسن النية بين الطرفين وبالله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه . حضر سالم يقول بعد ساعات وجدنا له ثلاث معز ونعجتين ثنوات وقيمة الجميع ١٩ دينار تضاف على اصل القيمة بهذا حرر في ١-٢٢-١٣٧٣ والقعود والناقة ما جرا عليهن تثمين لنا عنده وداعه بعد يبيعن سالم القيمة مع خمسين ليرة سوري لنا عند واحد بعد يقبضن يسلمكن ياهن .

واليك نص الوكالة حرفياً :

(١) شركة العضم ، المناصفة بين الشركاء .

(٢) يعني حمارين .

بسم الله وحده نعم انا كاتبه سليمان الحمد الخليف قد وكلت الأخ
المكرم سليمان الإبراهيم القاضي وكالة شرعية وكلته على ما عند سالم
ابن الهنيدي من ادوام السبعة وكلته على ما عنده لنا من غنم وبعارين
ونقود عملة وكالة مفوض ماين مفتصل وما وصله وصول وما اجرا جاز
من بيع مواشي أو قبضهن نضره جاز وصلی الله على سيدنا محمد
وآله وصحبه وسلم^(١).

كاتبه بيده سليمان الحمد الخليف
حرر في ٢٨ ربيع الآخر سنة ١٣٧٣

(١) يعبر تعبيراً عاماً وفيه لحن كثير ونحن نقلناه كما هو وذلك حرصاً على
أمانة نقله الخطي. وصورة الوثيقة نشرناها في الطبعة الاولى .

شرح ما تضمنه الوثيقة

أولاً أن سليمان المحمد الخليف ، لم يعلم شيئاً عن هذا المنديل من أساسه ، ولم يحلم بأن منديله الضائع من مدة خمسة عشر عاماً قد التقطته يد أمينة وصيرت منه مئات من الغنم . هذا أمر لم يتخيله قطعياً ، ولكن الذي أخبره بذلك ابن المرأة المدعو «سالم الهنيدي» المذكور اسمه في الوثيقة ، فسالم هذا هو الذي أوصى أو هو كتب رسالة لعبد العزيز يوضح له مجموع ما عندهم له من المواشي وعلى ضوء هذه الاخبار قدم عبد العزيز من الجزيرة العربية ولكنه عندما وصل الى هؤلاء الأمناء ووجد ما عندهم له من الغنم وبعضاً من الابل والحمير ، عند ذلك لم يكن الرجل ذا جشع ولا طمع ، بل كان عادلاً في تصرفه منصفاً لاصحابه الامناء حيث جعل مجموع المواشي شركة فيما بينه وبين ابن صاحبة المنديل سالم^(١) بن الهنيدي ، فترى الوثيقة موضحاً بها شيئاً من ذلك والوثيقة تشير إلى أن عبد العزيز صاحب المنديل ، قد ابتاع قسطه بستمائة واربعين ديناراً عراقياً على سالم الهنيدي على اساس أن سالماً يسدده هذا المبلغ أقساطاً ، وقد دفع سالم

(١) من سياق الحديث يبدو ان المرأة قد توفيت الى رحمة الله وولدت ابنها على المال وذلك لأنني لم أر لها ذكراً في السند .

بعضاً من المبلغ والبقبة فيما بعد يدفعها سالم لعبد العزيز وبعد ان يتم تسديد المبلغ من سالم لعبد العزيز تكون المواشي ملكاً لهما جميعاً .
وهذا هو النص الذي جاء في السند .

فعلى هذا التقدير يصبح مجموع قيمة الغنم وما فيها من جمال وحمير مقدرة بألف ومائتين وثمانين ديناراً عراقياً .

رب صرفه خير من بيعه

في تاريخ ٥ جمادى الأولى ١٣٧٥

ذهبت لزيارة الأخ « ابراهيم النصار »^(١) حيث وجدته في بيته وبعد مضي دقائق من جلوسي عنده، هناك دار الحديث بيننا وكان البحث يتضمن شيئاً من القصص العربية التي نسعى لتدوينها وبصورة خاصة كان الحديث يدور حول القصص التي لها علاقة بالامانة .

وفي اثناء حديثنا هذا انتبه لي النصار وقال : لقد خطر على ذاكرتي رسالة أتتني من مدة ثلاث سنوات من قبل شخص من قبيلة عنزة يدعى محمد بن حجر من الدهامشة ووصل حديثه الى أن قال : وان صاحب الرسالة ليذكرني بشيء لا أذكره فهو يشير بها بأنه سبق أن اشترى مني

(١) ابراهيم هو من اهالي مدينة بريدة وهو تيمى النسب ومن آل ابي عليان الذين كانت لهم اماره بلدة بريدة سابقاً وهو حالياً مقيم في مدينة دمشق ويعمل تاجراً فيها .

جمالاً عندما كنت اتعاطى مهنة التجارة بالابل وذلك من مدة عشر سنوات
ويزعم أنه في ذلك العهد تبقى لي عنده من قيمة الجمل نصف دينار عراقي
ويبين أنه تصرف به في سبيل المصلحة ، حتى نمتي ونتاج من أثر تصرفه جمال
وبعض من المواشي أي الغنم .

عندما روى لي الأخ ابراهيم هذه القصة طلبت منه فوراً ان يستحصل
لي على الرسالة التي اتت له من صاحبه ، ومن التوفيق أنه كان محتفظاً بها .
لهذا ذهب فوجدها وسامها إلي حالاً . وها نحن نضع نصها بالذات بين يدي
القارئ . مكتفين بنشر صورتها في الطبعة الأولى :

حضرة الأخ العزيز ابراهيم السيد^(١) من عقيل^(٢) المحترم بعد السلام
عليكم ورحمة الله وبركاته ، أول السؤال عن عزيز خاطر كم . بعد يا اخي
نخبرك من طرف نصف الدينار الذي انقطع لك علينا من ثمن الجمل صار
لك عندنا (بعير^(٣)) ومواشي^(٤) . ولا هن كثيرة واصلك يا اخي
عُقَيْل الجعيب (٥) .

المحب الداعي : محمد بن حجر من الدمامشة
هذه طبق الأصل

(١) كلمة السيد هو لقب للأخ ابراهيم .

(٢) اما قوله من عقيل فهذا الاسم يشمل كل من يمتن تجارة الابل بصورة عامة
من اهالي نجد وهو بصورة اخص يشمل اهالي القصيم من نجد وذلك حسب الاصطلاح .
(٣) يعني جمالاً . (٤) يعني غنماً . (٥) يعني حامل الرسالة .

ضالة وجدها مؤخرأ

في الحين الذي كنت أصحح آخر ملزمة من فصل الأمانة ؛ في تاريخ ١٨ جمادي الآخرة هناك وجدت هذه الضالة الآتي ذكرها عند « الدريعي ابن متعب الحذب^(١) » ، لقد حدثني بما هو آت فقال : ثمة امرؤ من قبيلة شمر يدعى « خليف بن رويشد » أودعت عنده سخله وصاحب الوداعة رجل من ساكني مدينة المشهد^(٢) يدعى « أحمد بن ناجي » وذلك عام ١٣٣٥ هـ على وجه التقريب ، وهذه الوداعة هي طبعاً (عدولة) وقد سبق أن شرحنا معنى العدولة بهذا الفصل ، ومعناه أنه يتصرف بها المؤتمن وينميها كما يتصرف بماله وله مقابل ذلك الصوف واللبن والسمن حسب الاتفاقية . وكانت أيام غير طويلة الأمد ، وإذا المؤدع يسلم لصاحب السخله مائة جنيه ذهباً عثمانياً .

وبعد مضي زمن قريب سلم المؤتمن ايضاً لصاحب السخله خمسين جنيهاً عثمانياً وخمساً من الابل ، ويزيدني الراوي تأكيداً ان هذه الأمانة لازالت بركتها تدر ، وريعيها ينمو الى حد العام الماضي ١٣٧٤ هـ بهذا الوقت القريب بعث المؤتمن لصاحب السخله ثلاثين ديناراً عراقياً ، ويوضح لي « الدريعي » ان هذا المبلغ الأخير قد دفعه المؤتمن بواسطة ابراهيم بن سليمان الجربوع ولا زال للأصل بقية حتى الآن .

(١) الدريعي هو أحد رؤساء قبيلة شمر .

(٢) المشهد إحدى مدن العراق المسمى بالنجف .

فصل العفو

وَمَا قَتَلَ الْأَحْرَارَ كَالْعَفْوِ عَنْهُمْ
وَمَنْ لَكَ بِالْحُرِّ الَّذِي يَحْفَظُ الْيَدَا
«المتني»

من ابلغ المعاني التي قالها الشعراء والحكماء من العرب عن العفو قول
شاعر الحماسة الشعبي المغفور له « محمد العوني » الذي قال بيتاً في العفو قل
أن سبقه أحد من شعراء العرب الى معناه . وذلك في قصيدته اللامية التي
يعتذر بها من الإمام عبدالرحمن الفيصل آل سعود والد الملك عبدالعزيز
رحمهما الله عام ١٣٢٥ هـ .

والقصيدة أكثر من أربعين بيتاً . وهنا نأتي بالبيت المناسب للموضوع
الذي نحن في صددده وهو قوله :

لولا الخمال (١) وَمَا تَكُونُ مِنَ النَّوْمِ
مَا كَانَ صَارَ الْعَفْوُ لَهُ سَائِلَ سَالٍ

(١) الخمال هو الذنب ويقال ان فلاناً يحمل اي ارتكب ذنباً .

يقول الشاعر : إن الجرائم العظيمة التي يرتكبها المجرمون والذنوب والخطيئات الجليلة التي تبدر من المسيئين هي التي بسبب وجودها كان لأصحاب العفو ميزة يمتازون بها ، ومكانة مرموقة بين المجتمع ، والشاعر يؤكد أنه لو لم تكن ثمة جرائم تبدر من المجرمين ، لما كان للعفو واصحابه أدنى ذكر جميل في التاريخ الانساني .

وإذا شئنا أن نحلل فلسفة العوني تحليلاً منطقياً وواقعياً ، يحسن بنا أن نقول : إن هذه السجية أي العفو هي شيء كامن في جوهر الانسان لا يعلم أحد عنه شيئاً كبقية السجايا المثل المتوارية في معدن المرء كالشجاعة والوفاء وما أشبه ذلك ، فخذ مثلاً الشجاع لو لم تصدف حادثة تثير هذه الجبلّة الكامنة في كيان صاحبها لأصبح هذا الشجاع مجهولاً لا يعرفه أحد . وهذا ما ذهب اليه بعض الفلاسفة بقولهم « ان الابطال الصناديد والجنباء الرعايد لا تلدهم الحوادث الجسام بل تكشف عنهم الغطاء حتى يراهم الناس . وكذلك العفو لا يعرف اهله إلا في المناسبات والعفو هو ما يصدر من تسامح وغفران من القوي تجاه من هو دونه ، أما التسامح من الأدنى تجاه من هو أعلى منه فإنه يعتبر ذلة وخنوعاً .

بطل يعفو عن بطل

قصة عدوان بن طوالة (١) وعقاب بن سعدون العواجي
حدثت على وجه التقريب عام ١٢٤٥ هـ

وكان الاول يقطن شرق جبلي طي بينما كان الثاني يقطن في الجنوب
منهما والحرب بينهما دائماً سجال ، واجتمع الزعيان بطريق الصدفة وقد
كان هذا الاجتماع في بلدة (الرس) التي هي إحدى بلدان القصيم ، حيث
نزل الحصان وقومها ضيوفاً على امير البلدة ولا اعلم أيهما الأول ، وكل
ما اعلمه انها اجتمعا عند امير هذه البلاد وكان الأمير كريماً فنحر لكل
منهما كبشاً وعندما اجتمع الزعيان وجه عدوان خطابه لعقاب قائلاً :
« لقد اجتمعنا بغير اختيار واحد منا ، وإنني لأرجو أن تكون نتيجة
هذا الاجتماع حسنة للطرفين فيما اذا أحسنا التصرف وتركنا الضغائن
والعداوة القديمة .

عقاب : ماذا تقصد من كلامك هذا ؟

عدوان : اقصد أن نتعاهد نحن وانتم بهذه الغزوة ونشارك في
الغنيمة التي نكتسبها من إبل أو غنم العدو . ولاشك أنها اذا اجتمعت قوة
غزاتكم مع قوة غزاتنا فإننا سوف نتصر بحول الله على أي قبيلة نغزوها
(١) عدوان رئيس عشيرة الأسلم من شمر وعقاب رئيس عشيرة ولد سليمان
من غزة .

ولنذكر في تاريخ حياتنا أن قبيلة شمر وقبيلة عنزة تصالحتا يوماً من الدهر
وغزتا عدوهما سوياً .

عقاب : اختر لك رأياً أحسن من هذا الرأي .

عدوان : لا أعلم أصوب ولا أفضل من هذا الرأي .

عقاب : لا شك أنك رأيت قومي أكثر من قومك عدداً ، ودبرت لك
حيلة لتنجوا بها من هذا المأزق خشية أن نتصر عليك لهذا بادرتني بهذا
الحديث الذي فيه من المكر والخديعة أكثر مما فيه من الحقيقة . وإن
يكن فيه مصلحة فإنها في جانبك أكثر مما هي في جانبي . ولو علمت أن
قومك أكثر من قومي لما أبديت رأيك هذا ، بل ربما كان رأيك
على عكس ذلك .

عدوان : ما هو الرأي الذي تشير إليه وتريد أن تفعله أنت بصفتك
أكثر مني قوماً .

عقاب : أريد أن نتنازل نحن وانتم بهذه الأرض الجميلة ، ويتبارز
أبطالنا وأبطالكم ثم واصل حديثه وقال : أليس كل من قومك وقومي كانوا
يشدون الرحال من مكان بعيد لا قصد للطرفين غير محبة الفوز ولذة النصر
والتغلب على الخصم ؟ .

(١) يشير الى أرض الرس لأنها أرض برية فسيحة لا حجر فيها ولا شجر ، فهي
خير ما تكون لمبارزة الفرسان .

عدوان: « صحيح ما تقوله ولكن نحن الآن اجتمعنا في ناد واحد
لهذا أرى أن الأحسن هو رأيي السابق » .
عقاب: « نعم انه الأحسن بالنسبة لسلامتك وسلامة قومك أما بالنسبة
لي ولقومي فلا أرى فيه شيئاً يوافق مصلحتنا »
عدوان: « إذا كان ولا بد فلتكن المبارزة في صباح الغد » . عقاب:
وهو كذلك .

فلما انبثق الفجر خرج عدوان مبكراً يتبعه فرسان قومه ومر بطريقه
إلى عقاب وأبلغه أنه في انتظاره في المكان المعين ، فلما برز عدوان بقومه
ويصف بهم ورسم لهم الخطة الحربية بعد أن حرضهم على القتال حيث قال لهم:
« نحن لا نريد غنيمة إلا شيئاً واحداً وهو رأس زعيم القوم - أي عقاب
العواجي - هذا الرجل الذي تحدا أنا معتمداً على شجاعته وكثرة قومه - لهم
قائلاً : « إننا إذا قتلنا عقاباً أو طرحناه أرضاً فقد تم لنا النصر على قومه
أجمعين » ثم إنه بعد ذلك قسم قومه الى فرقتين فرقة جعلها معه ويتولى
قيادتها هو بنفسه وفرقة أخرى جعل عليها رئيساً من أفراد عشيرته ممن يثق
بجزمهم وبطولتهم .

فأما الفرقة التي معه فقد أمرها أن لا يكون لها كفاح ولا مناظلة عدا
شيئاً واحداً وهو أن يوجه كل فرد منهم همه وشجاعته وقوته تجاه رئيس

القوم الذي هو عقاب .

وأما الفرقة الأخرى فقد كلفهم أن يحاولوا ما استطاعوا أن يحولوا بين عقاب وقومه وأن لا يدخروا وسعاً من اشغال قومه عنه في الحين الذي تطوقه خيول الفرسان الآخرين الذين يقودهم عدوان بذاته وقد أبرموا أمرهم على هذه الخطة المحكمة .

أما غزاة عنزة فقد كان زعيمهم مهملأ الى آخر حد الإهمال والسبب في إهماله هذا أنه كان واثقاً ببطولته وورباطة جأشه التي لا تترجح هذا من ناحية والناحية الأخرى كان معتمداً على كثرة قومه وقلة أعدائه . وبعد أن بزغت الشمس وارتفعت قيد رمح خرج فرسان عنزة مدججين بالسيوف والرماح يقودهم البطل عقاب، وبارز. أمام قومه فذهب مسرعاً نحو الموضع الذي يعتقد أن الخصم ينتظره به حسب الوعد المعين بين الخصمين. فلما دنا من المكان ونظر خيول عدوه هب على الفور وأطلق عنان فرسه وقومه على أثره فتركه عدوان وقومه حتى قرب، منهم ثم أمر قومه بتنفيذ الخطة التي اسفرت عن فصل عقاب عن قومه حيث طوقه عدوان بالفرقة التي يرأسها كما أن الفرقة الأخرى حالت بين عقاب وقومه عن نجاتهم له فلم تستمر المعركة إلا مدة وجيزة حتى وقع عقاب اسيراً بيد عدوان وطرحه أرضاً بدون أن

يقتله ومن غير أن يمنعه بل استلمه « شلعاً لا منعاً »^(١) وقد كانت التعاليم الحربية التي أخذها قوم عدوان ترمي الى أنه متى ما طرح عقاب ارضاً فإن خيل الفرقتين كلها تتحد وتنصب على قوم عقاب حتى لا يستطيعون أن يدافعوا عنه. وهكذا نفذ عدوان هذه الخطة حتى أن فرسان عنزة عندما رأوا رئيسهم مطوقاً من خيول العدو حاولوا انتشاله فعجزوا ، هناك ضعفت عزائمهم .

هذا وقد نصر الله عدوان بن طوالة على عقاب العواجي فرأى عدوان أن من الشيمة أن يعفو عنه ويحسن إليه أيضاً ، لذلك تحدث عدوان مع عقاب وقال « إني قد عفوت عنك كما إني قد وهبتك فرسك » . أجابه عقاب « أما إذا عفوت عني فهذه شيمة العرب ولم تفعل شيئاً مستغرباً فانت تعفو عني اليوم ونحن نعفو عنك في الغد وأما من خصوص الفرس التي تزعم أنك وهبتنيها فإن هذه الفرس ليست من جياذ عشيرتي عنزة بل ان مصدرها الأساسي من خيل عشيرتكم شمر لأنني قد غنمتها العام الماضي من الفارس الشمري فلان » .

قال عدوان : « إذن الفرس نعيدها الى اهلها شمر ونشعرهم بأننا

(١) الشلع هو بدون عهد و « المنع » يكون الفارس استولى على عدوه بطريقة العهد ، فالأولى يستطيع أن يقتله ولا عيب عليه عند العرب ، أما الثانية فلا يستطيع أن يمسه بسوء .

أخذناها منك قهراً^(١) وقوة كما أخذتها سابقاً .

هذا وقد ذهب عقاب الى قومه ماشياً على أقدامه كما عاد عدوان وقومه منتصرين .

وهناك شاعر عند قبيلة شمر يسمى «مبارك التيناوي» يعلق على كل حادثة تقع بين قبيلته وقبيلة أخرى بأسلوبه الشعبي بقدر ما يستطيع وخذ ما قاله الشاعر :

يا حَيْفُ يا عدوان يا حَيْفُ يا حَيْفُ

اعتقت ربع عُقْبُ ما طَيْرُهُم حام

يوجه الشاعر لومه وأسفه المكرر إلى رئيس غزاة شمر وهو المدعو عدوان بن طوالة ويقول : أسف كل الأسف أن تغفو عن عقاب بعدما

(١) ما اشد ما ينطبق معنى بيت شاعر الاسلام حسان بن ثابت على هذين البطلين عندما امتدح قريشاً في قصيدته التي مطلعها :
إن الذوائب من فخر واخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع
الى ان قال :

لا فخر إن هم اصابوا من عدوم وإن اصابوا فلا خور ولا جزع
« فالمصرع الاول الذي يقول فيه الشاعر « لا فخر إن هم اصابوا من عدوم »
هذا ينطبق على لسان حال المنتصر وهو عدوان بن طوالة ، وأما قوله « وإن اصابوا
فلا خور ولا جزع » فهذا ينسجم ابلغ الانسجام على واقع عقاب العواجي ولا
عجب فأن هؤلاء الابطال هم سلالة اولئك الامجاد الذين غيروا مجرى التاريخ
العربي وانما ينقصهم التوجيه الصالح .

أصبح أسيراً بين يديك، ويؤخذ من معنى الشاعر أنه قد أسراً أناساً من قوم
العواجي غير الرئيس عقاب لأنه يقول : « اعتقت ربع عقب ما طيرهم
حام » معناه أنهم جماعة ليسوا بفرد، ولكن الرواية لم تصل إلينا إلا أنه
فرد. وقد روى لي هذه الحادثة شخص عنزي يدعى « عيادة الخشي »
المتوفي في مدينة الرياض سنة ١٣٦٥ هـ وهو يحسن الرواية جيداً
وموثوق به .

اعتقتُ رُبْعَ كَلَّلُوا شَذْرَةَ السَّيْفِ

من يبذر الحسنى بقطاع الأرحام

يقول: كيف نعتق من قد وضع السيف باعناقنا حتى تحطم سيفه وكل
من كثرة ما قتل من قومنا .

ثم يعود الشاعر ويقول: لماذا تفعل الإحسان مع شخص يستحق
العقوبة؟ ويزعم الشاعر ان عقاباً قاطع رحم.
لو انت يا زين البكار المواليف

أو دَعْتُ راسه موقعٍ منه ما قامُ

يرى الشاعر أن عدواناً خطأ بعفوه عن العواجي ويقول : لو أنك
ضربت عنقه حتى نأمن من صولته علينا فيما بعد لكان أكمل للفائدة .
وبعد ، فإن الذي يدرس أدب هذا الشاعر يرى أن كلامه ينقض

بعضه بعضاً ، ذلك أن البطل عقاباً قتله بعض فرسان قبيلة شمر في معركة أخرى ، فبعدما قتل نجد هذا الشاعر يبدي اسفاً شديداً على مصرعه في قصيدة طويلة جاء منها قوله .

عقابٍ طريحٍ يوم الأفراس عَجَلَاتُ
عَزَّاهُ مِنْ طَيْرٍ نَقَرُ حَجَرٍ عَيْنَهُ
الى أن قال :-

فَوَاتٍ قَبْلَ مَدَوْرَيْنِ الْجَمَالَاتِ
يَا لَيْتَ عَقَابَ الْعَرَبِ حَاضِرِيْنَهُ
يقول الشاعر : في صدر البيت الأول ، إن عقاباً قتل في حالة كانت ارتجالية ، وفي المصراع الأخير من نفس البيت يتظاهر الشاعر بحزنه وأسفه على عقاب فيقول « عزاه من طير أكل حجر عينه ، أي إنه يتوجع ويحزن على مقتل عقاب الذي سوف تأكل الطيور عينه ، وفي المصراع الأخير من البيت الثاني . يقول ، كنت أتمنى أن عقاباً أستولى عليه رجال عقلاء حتى يقدروه ويعفوا عنه . ولكنه يزعم من معنى كلامه أن عقاباً استولى عليه شباب طائشون لا يفكرون بذلك ، وهذا الشاعر قريبة أخلاقه من الفرزدق الذي عبر عنه يزيد بن المهلب بن أبي صفرة فقال : إني لأعجب من نفسية الفرزدق يهجوني أميراً ويمدحني سوقة . واليك القصيدة :

- (١) يا حيف يا عدوان يا حيف يا حيف
أعتقت ربع عقب ما طيرهم حام
(٢) اعتقت ربع كلوا شذرة السيف
من يبذر الحسنى بقطاع الأرحام
(٣) لو انت يا زين ألبكار المواليف
أودعت رأسه موقع منه مقام

-
- (١) يا حيف : اسف . يا عقب : من بعد . طيرهم حام : اوشكت ان تأكل
لحومهم الطيور .
(٢) شذرة : حد السيف .
(٤) زين : مأوى . البكار المواليف : النوق الأبقار .

عفو متبادل

قصة صطام الذهبي وفیصل العماج^(١)

في عهد فیصل بن تركي آل سعود بين سنتي ١٢٥١ - ١٢٥٥ هـ حدث بينهما شقاق كان من نتيجته أن قتل فیصل صطاماً ثم هرب واستجار بأحد امراء عتيبة المدعو ابن حجنة وكان ابن المقتول في ذلك العهد حديث سن وبعد أن بلغ رشده ذهب الي قاتل أبيه يحاول أن يظفر به ليأخذ ثأره منه فنزل عند العرب الذين يقطن بينهم قاتل والده فبقى الشاب أجيراً يسرح يابل أحد هؤلاء العرب وقضى مدة على هذه الحالة وهو راع ولا زال يرعى الابل حتى سنحت له الفرصة التي وثب بها على خصمه فطعنه بمديته ثم فر ولكنه قبض عليه وشد وثاقه وأتى به الى فیصل (أي الجريح الذي طعنه) فسأله من أنت ! فأخبره الشاب بأنه ابن صطام المقتول فلما علم فیصل بذلك طلب رئيس عشيرة عتيبة المدعو ابن حجنة فلما حضر الأمير قال : ان هذا الشاب في جوارك وفي ذمتك لأنه لم يفعل ما هو خطأ ولا لوم عليه بما فعل معي وذلك أني معتد عليه بقتلي لأبيه فإن توفاني الله من طعنته هذه فهي

(١) كلا الاثنين من قبيلة قحطان ومن فخذ السحمة .

نفس بنفس وإن سلمت منها فاني سوف أسلمه الدية ان قبلها ، ثم أمر
أن يسلم الشاب الذي طعنه ذلولاً نجية تقيه الى ان توصله اهله وذهب
الشاب الى أهله .

أما فيصل فقد انجاه الله من هذه الطعنة وذهب على أثر الفتى ليسلمه
دية والده ولكن الفتى كان كريم النفس ذلك أنه رفض قبول الدية
وعفا عن قاتل والده (١) .

(١) رويت هذه القصة عن حمود المهاج القحطاني النسب والذي لا زال ضمن
حاشية ولي العهد الامير فيصل بن عبد العزيز آل سعود .

يعفو عن من أراد ان يفتاله

قصة « عبد الله ^(١) بن علي بن رشيد وابو هادي »

وقعت سنة ١٢٥٩ هـ

بعد أن تأسست إمارة آل الرشيد وأمسى لها سلطان في شمال نجد وعصبية قوية تؤازرها ، هناك عظم الأمر على أمراء القصيم خاصة اميري البلدين عنيزة التي يرأسها في ذلك العهد زامل ^(٢) بن سليم وأمير بريدة عبد العزيز المحمد بن عليان وقد تضاعف الخطر واشتدت العداوة أكثر من اللازم خاصة بعدمعركة (بقعا) ^(٣).

(١) عبد الله هو المؤسس الاول لأمارة الرشيد التي ابتدأت عام ١٢٥٠ هـ وانتهت في ١٣٤٠ هـ وكان عبد الله والياً للامام فيصل بن تركي بن سعود ولا زال مدعياً لآل سعود وسامعاً ومطيعاً حتى توفاه الله عام ١٢٦٣ هـ وهو عصامي ابتكر المجد وورثه ولم يرثه .

(٢) هو من اشهر زعماء نجد دهاء وبطولة قتل رحمه الله سنة ١٣٠٨ وكان مصرعه في التلّيداء، تلك المعركة الحاسمة التي وقعت بقيادة امير بريدة حسن ابن منها أبا الحيل وأمير عنيزة زامل بن سليم ضد محمد عبد الله الرشيد وقد انتهت المعركة بانتصار الرشيدي عليها .

(٣) هي قرية تقع في الشمال الشرقي لمدينة حائل ومعركة بقعا ذكرها ابن بشر في الجزء الثاني من كتابه عنوان المجد صفحة ٩١ ذكر انها وقعت في جمادي الاولى عام ١٢٥٧ هـ .

لقد رأى أمراء القصيم ان خير الأسباب التي تقيهم شر هذا الخطر هو القضاء على المؤسس لهذه الإمارة إذ انه بلا شك هو الدماغ المفكر لا في الأسرة الرشيدية فحسب بل في العشيرة أجمع بالرغم من أنه في ذلك العهد لم تتكون أسرة آل الرشيد ولم تبلغ ما بلغته من وفرة العدد في عهدها الأخير . وعبدالله يعتبره التاريخ المسؤول الأول من ناحية التأسيس اما الذي وطد دعائم الإمارة فهو ابنه محمد ومن بعد عبدالله شقيقه عبيد الذي هو الساعد الأيمن له ، ولا شك أن رأي هؤلاء القوم في القضاء على الأمير عبدالله كان سديداً فهم لو نجحوا في مؤامرتهم لقضي على الإمارة الرشيدية في مهدها .

وقد كانت مؤامرة أهل القصيم لقتل عبدالله مبنية على اختيار شخص يدعى (بآبي هادي) وهذا الشخص استلم من اصحاب المؤامرة مبلغاً من الريالات مقدماً كما أنهم تعهدوا له أن يساموه مبلغاً آخرأ بعد قتله للأمير ، وأبو هادي هذا رجل حسب ما يبدو لي من سياق الحديث وما روي لي - أنه رجل ضعيف الإدراك بحيث أن أصحاب المؤامرة استطاعوا أن يخدعوه ويوهموه بأنه إذا قتل الأمير عبدالله فإنه سوف يهرب ولا يستطيع أحد أن يراه ولا يتمكن عدوه من القبض عليه وذلك بفضل ما يتدرع به من الطلاسم التي يحملها بعنقه وأكد أصحاب المؤامرة لأبي هادي أن ما يحمله

من الآيات القرآنية والطلاسم الملفقة ستكون له سد منيع يقيه مفعول السلاح لئلا يفتك بجسمه وكانت الطريقة التي تمكن أبا هادي من قتله للأمر ، هي أن أبا هادي يحسن الرقص بالرمح من الأساس كما ان حركاته وشكله وخفته كل ذلك تشفع له فيما إذا شاء أن يجعل نفسه مضحكاً لحفل ما من الناس سيما وهو من قبل كان متخذاً ذلك حرفة له أي كان يعيش من وراء هذه المهنة .

سار أبو هادي من القصيم حتى وصل مدينة حائل عاصمة إمارة عبد الله الرشيد آنذاك فحل ضيفاً هناك وفي حينه استعمل لعبته المضحكة ، ومن البديهي أن الغريب اذا قدم لبلد ما سيكون محطاً للأنظار وتتفقد الناس أخلاقه، خاصة إذا كانت البلدة قليلة السكان « كحائل » بذلك العهد ، يضاف إلى ذلك أن هذا الغريب أتى للبلاد بحركات مضحكة تجعل أهل البلاد بطبيعة حالهم يتفرجون ويعجبون من هذا الغريب الذي قدم اليهم بحركات بهلوانية .

هذا وقد مضت أيام على أبي هادي وهو يرقص أمام سكان البلاد ويضحكون عليه وكل من رآه من ساكني البلاد يعجب برقصه، ويأخذه الإعجاب ويذكره للذي لم يره فلم تمض مدة على أبي هادي إلا وهو بمثابة النادي الذي يتخذ للتسلية والمرح ، الى ان أصبح يتفرج على لعبه ورقصه

وحركاته الجم الغفير من سكان البلاد وفي النهاية بلغ الأمير عبد الله أمرُ أبي هادي ، فانتدب رسوله ليستدعيه ليضحك وجلساؤه عليه .

وعلى الفور حضر أبو هادي وطالب منه الأمير أن يلعب ويرقص كما كان يفعل ، فلبى طلب الأمير الذي يرى أن هذا هو منتهى أمنيته ، ولكن أبا هادي عندما أراد التنفيذ اختل توازنه وارتعشت اعصابه وارتبك ارتبكا كأ جعل الحاضرين يشكون في أمره وينتبهون له ، وأول من انتبه له شخص اسمه ابن نعام^(١) هو الذي أسر للأمير عبد الله أن يأمر من يلقي عليه القبض ، فلما القى عليه القبض ازداد خفة وانهارت اعصابه انهياراً جعل البيئة تقوم عليه بغير شك . عندئذ تولى الأمير التحقيق معه فاعترف له بدون تردد وبعد اعترافه اطلق سراحه الأمير وعفا عنه ولم يعاقبه بأية اذية ثم انشد الأمير قصيدته الشعبية الخالدة فقال :

(١) لِي دِيرَةٍ مَا بَهُ خَذَا الْبَرْدُ وَالْجُوعُ
لَوْلَايَ عَفِيَّتَهُ بِضَرْبِ الْهَنَادِي

يقول إن بلادي لم يكن فيها شيء من الانتاج الزراعي الذي بقيت

(١) يقول الراوي : ان ابن نعام لمح لعبد الله بكلمة تجعل أبا هادي لا ينتبه ولا يشعر بمعناها ، فقال كلمة عامية وهذا نصها « الحمرء كبيرة يا عبدالله » أي أن رثك اكبر من قلبك فانت لا تشعر بما يحوكه لك هذا الرقاص .

ساكنيها من الجوع ولا فيها ايضاً شيء من الإنتاج الصناعي والنسيج الذي
يقي اهلها من ضرر البرد ، ثم يسترسل البطل ويقول « ولكنني ازحت
هذه العوامل واجتهدت وحيتها بضرب السيف حتى اصبح لها كيان
وامست بلدة بعد ما كانت قرية ويقصد بلاده حائل — وهي بلاد حاتم
الطائي سابقاً في جبلي طي .

حَمَيْتَهَا عَنْ كُلِّ دَوَّارٍ مَطْمُوعٍ
حَيٍّ نَصَبَتْهُمْ وَحَيٍّ نَهَادِي
يقول إني حميت بلدي من كل من اراد ان يطمع فيها ، ثم
يوضح ويقول :

إن حمايتي لوطني مبنية على امرين سياسيين وهما المسألة تارة
والحرب طوراً آخر فيقول إني أسالم اصحاب القوة الذين لا يستطيع
مقاومتهم فأذهب التمس رضاهم بشتى الوسائل التي لا تحط من كرامتي
وكرامة بني وطني وقبيلتي .

الْقَلْبُ مَضْمُوعٌ وَبِالْكَفِّ قَاطُوعٌ
مَا هِيَ حَكَايَا رَقَصَتِكَ يَا بُو هَادِي
يقول : أنا لست ممن يقرقع له بالشنان حتى أخاف منك يا أبا هادي
ويؤكد أن السر الذي يجعله لا يخاف هو انه واثق من نفسه بأن قلبه قلب

شجاع لا يتزحزح البتة وفي يمينه صارم ماض ، أي السيف .
وَلَا تَحِدْ بِطَيْعٍ إِلَّا لَهُ السَّيْرُ تَمْرُوعٌ
وَالْأُفَّاءُ بِضَرْبِ مُصَقَّلَاتِ الْهَنَادِي

يقول إن الناس لا يطيعون ولا يذعنون للزعيم الذي يكون وضعه
كوضعي إلا لأمرين وهما الرغبة بالمال الذي يقدقه عليهم به أو الرهبة من
العقاب الذي يخشون تنفيذه منه .

(٥) فَعَالٌ نَوَّ الْخَيْرِ نَجْزَاهُ يَنْفُوعُ
مِنْ مَالِنَا نَكْثِرُ عَلَيْهِ الْعَدَادِ

يقول ان الذي يسالمنا ولا يريد منا إلا الخير نبذل له الخير
ونعقد عليه المال والفعل الجميل ما استطاع لذلك سبيلاً .
وَالشَّرُّ فَعَالُهُ أَنْجَازِيهِ بِجُمُوعٍ

و زِيرٍ إِلَى جَا الْفَجْرِ حُسَّهُ يُنَادِي
يقول إن الجماعة والأفراد الذين لا ينفع معهم فعل الخير ولا يصلح
معهم إلا فعل الشر هناك يقول : أفعل معهم من الشر الذي لا يتصورونه
واقابلهم بجيش عرمرم فأباغتهم به فجراً حتى أقضي على قواهم .

(٧) أَخُو عَيْنِدِ إِلَى هَيَا كُلِّ مَسْبُوعٍ
أَسْهَرَ إِلَى نَامَتْ عُيُونِ السَّرَادِي

ينتخي البطل ويمتدح نفسه ويقول أنا أخو عبيد وعبيد هذا - كما
أسلفنا - شقيقه وساعده الأيمن ويقول أنا البطل الذي تبرز رجولته
وشجاعته في الشدائد التي يفقد فيها رجولته الجبان ويؤكد أنه يسهر الليالي
تلو الليالي في الحين الذي ينام فيه قاصر الهمة .

(٨) أَحَاوِلِ الدُّنْيَا بُدَاخِلْ وَمَظْلُوعْ
بِأَمَالٍ وَالْأَمْزَهَقَاتِ الْحَدَادِ

يقول اني احسن الدخول والخروج بالسياسة لقومي ولعدوي معاً
فتارة استولي على قلوبهم بالمال الذي ابذله لهم وطوراً بالسيف في الحين
الذي لا ينفع به المال .

(٩) كَمْ خَيْرٍ عَانِ لَنَا شَاكٍ الْجُوعِ
حَادِيهِ مِنْ لَوَاعَاتِ الْأَيَّامِ حَادِي
(١٠) لَوْ مَا نَعْرِفُهُ رَاحَ مِنَّا بِمَطْمُوعْ

مِنْ رَأْسِ مَالٍ نَجْمَعُهُ لِلنَّفَادِ

يقول كم إنسان كريم التجأ إلينا وشكا ما اصابه من نوائب الدهر
ونحن لم يسبق لنا به معرفة ذاتية ومع ذلك يقول : نسعى على الفور بحجر
عثرته ونهبه ما استطعنا من اموالنا التي لانحرص على جمعها إلا لننفقها في

سبيل المجد والخير .

ونهاية القول انّ ابا هادي بقي ساكناً بجائل حتى توفي فيها . وأكدي الراوي سلمان بن رشدان بأنه كان يعرف أبا هادي شخصياً ولا عجب من ذلك لأن سلمان بن رشدان عمر سنين طويلة وقد توفي رحمه الله سنة ١٣٦١ هـ بعد ان بلغ من العمر ما ينوف على المائة سنة . والراوي من نفس بلدة حائل .

واليك القصيدة بكاملها :

- (١) لي ديرة مابه هذا البرذ والجوع
لؤلّاي عفته بضرب الهادي
(٢) حميتها عن كل دوار مطموع
حى نصبهم وحي نهادي
(٣) القلب مضموع وبالكف قاطوع
ماهي حكايا رقصتك يا بو هادي
(٤) ولا حد يطيع إلا له السير ثمروغ

(١) ديرة : بلدة . هذا : عدا . عفته : حميتها .

(٢) دوار مطموع : طماع .

(٣) مضموع اصم لا يعرف الخوف ، قاطوع ، السيف الماضي .

(٤) السير مرموع : أي لين الجانب .

- والأَّ بَضْرُبِ مُعَقَّلَاتِ الْهَنَادِي
 (٥) فَعَّالٌ نَوَّ الْخَيْرِ نَجَزَاهُ بِنَفْعٍ
 مِنْ مَّالِنَا نَكْثَرُ عَلَيْهِ الْعَدَادِ
 (٦) وَالشَّرُّ فَعَّالُهُ نَجَازِيهِ بِجُمُوعٍ
 وَزِيرٍ إِلَى جَا الْفَجْرِ حُسَّه يَنَادِي
 (٧) أَخُو عَمِيدٍ إِلَى هَبَا كُلِّ مَسْبُوعٍ
 أَشْهَرُ إِلَى نَامَتِ عَيُونِ السَّرَادِي
 (٨) أَحَاوِلِ الدُّنْيَا بِدَاخِلٍ وَمَطْلُوعٍ
 بِأَمَالٍ وَإِلَّا مُرْهَفَاتِ الْحَدَادِ
 (٩) كَمْ خَيْرٍ عَانَ لَنَا شَاكٍ الْجُوعِ
 حَادِيهِ مِنْ لَوَاعَاتِ الْأَيَّامِ حَادِي
 (١٠) لَوْ مَا نَعَرَفُهُ رَاحَ مِنَّا بِمَطْمُوعٍ
 مِنْ رَاسِ مَالٍ نَجْمَعُهُ لِلنَّفَادِ

(٥) نو ، النية . نفوع ، نفع .

(٦) الجموع ، الجيش كناية عن الجيش العرمرم . الزير ، هو الطيل يده الحاكم القوي قبيل وقوع المعركة .

(٧) هبا ، جبن . المسبوع ، الرجل الجبان . السراي ، الأندال .

(٩) عان : قاصد .

(١٠) لو ما نعرفه : ولو لم نكن نعرفه سابقاً .

عفرو وابداء وشمم

وقعت الحادثة عام ١٣٠١ هـ على وجه التقريب

تعتبر من أروع حوادث العفو قصة « نيف بن حيمر بن قشعم » مع « عجب بن عجة » وكلاهما ينحدران من فخذ واحد وقبيلة واحدة يجمعها الجد الأدنى الذي تنفرغ منه هذه العشيرة وهو المدعو « جعفر » فيقال للعشيرة آل جعفر^(١) ولا يقل عدد نفوسهم 'ن ٧٠٠٠ نسمة ويشملهم اسم قبيلة شمر « فعجب بن عجه » وقع منه اعتداء جره الى ان قتل أخا « نيف » ثم هرب القاتل من بلاده نجد والتجأ الى رؤساء عشيرة شمر (الجربان) الذين يقطنون جزيرة الفرات الواقعة جنوب العراق وقد علم نيف ان صاحبه التجأ الى هذا الموضع فتبعه قاصداً ان يأخذ منه الثأر وبقي يتحين به الفرصة وقد كان القاتل حذراً جداً ، ومن اساليبه التي يخادع بها عدوه هو انه يتظاهر بأن يبني بيت في بيته أو في مكان ما والواقع انه لا يبني في بيته ابداً ولا يبني في مكان يعرفه احد قطعياً خوفاً من سطوة خصمه ، هذا وقد كان عدوه يسبر غوره ويتتبع حركاته ليأخذ

(١) الجعفر هم فخذ من عبدة من قبيلة شمر وابن عجة من فخذ يتفرع من الجعفر يسمى الخليل ونيف من فخذ يسمى القشعم والاصل واحد .

ثأره منه، وفي ذات ليلة من الليالي نظر اليه عدوه عندما دخل بيته في اول الليل، ولكنه تركه ليهجم عليه اذا نام الناس آخر الليل غير انه خدعه في عملية هذه لأنه دخل من امام البيت تمويهاً له وخرج حالاً من خلاف البيت بصورة خفية سرعة، أما البطل فهو لا يعلم ذلك، فلما انتصف الليل هجم على عدوه ولكنه عندما أراد تنفيذ العمل لم يجد احداً في البيت فاتضح له خطأه وقد انتهت زوجة القاتل وصاحت بصوتها فانتبه العرب بعد ان فر العدو هارباً، اما ابن عجة فقد رأى أن من الحزم والحذر ان يرحل عن هؤلاء العرب الذين عرف خصمه موضعه عندهم، لهذا نزع عنهم ونزل بجوار ابن عبيد رئيس عشيرة (الدُّلَم) ولم يكن ابن عبيد أقدر على حمايته من الجرباء بل ربما أن الجرباء اعظم هيبه في نفسية «نيف» من ابن عبيد ولكن القضية أصبحت قضية تمكن من الاختفاء، لهذا يرى ابن عجبه انه يستطيع أن يوارى نفسه عند ابن عبيد أكثر من اختفائه عندما كان عند الجرباء على اعتبار ان عدوه الآن سبر غوره وعرف انه عند عرب الجرباء. هذا وقد استعمل ابن عجبه من الحزم والحذر على نفسه أكثر مما كان يستعمله عندما كان عند الجرباء حتى انه لا يأتي بيته الا في لحظات خفيفة معينة، واذا شاء أن يواقع زوجته لا يواقعها الا بعد حين من الدهر، واذا خطر على باله هذا الأمر دنا من حليلته وهو كالمطروود، وقد كانت قرينته فتاة جميلة، وقد ذكرنا عن نفسية

العربية انها دائماً لا تنظر للرجل إلا من جانب واحد وهو جانب البطولة والرجولة فإذا تخلى عن هذه الناحية زهدت به ، وقد كانت حليلته تعرف بعلمها أنه شجاع فيما سبق ، ولكن جركاته الأخيرة أخلفت ظنونها به ومعرفتها إياه السابقة ، لهذا قالت بنفسها لا بد من أن أسأله عن السر الذي جعله جباناً الى هذا الحد ، بعدما كان شجاعاً جريئاً . فسألت بعلمها قائلة : « أراك بلغت من الحذر والخوف من سطوة عدوك الأمر الذي سوف يجعلني أزهد فيك آخر الأمر » .

كان هذا الحديث من قرينة ابن عجيبة في ساعة متأخرة من الليل وفي الحين الذي دنا منها ليوافقها ثم يهرب كالمعتاد ، أجابها بعلمها : « انا لست جباناً ولكني اعرف شجاعة عدوي « نيف » الذي لا يبيت على الضيم ولو انك تعرفينه كمعرفتي إياه لعذرتيني في كل ما يبدو مني من الحذر ولحكمت لي بالشجاعة الخارقة - ثم واصل كلامه - وقال : « أجل فلو لم أكن شجاعاً الى آخر حد الشجاعة لما استطعت أن أحرك غريزتي الجنسية وأنا أعلم أن نيفاً يطالبني بدمي » هذا وقد كانت هذه المحادثة بين الزوجين بسمع من (نيف) وقد كان محتبباً تحت رواق البيت وهو منه قاب قوسين أو أدنى ، ولكن البطل عندما سمع هذا الاعتراف من خصمه له وهذا الإذعان قفز من تحت الرواق وشهر سيفه وصاح بخصمه قائلاً : « يا فلان اقسم لي بالله انك قلت هذا الحديث عن اعتقاد لا عن خديعة منك لي ظاناً

اني قريب منك فاردت بذلك ان تخادعني لأعفو عنك فيما اذا أسمعني هذا الحديث « اندهش الرجل واقسم له بالله انه لم يتحدث إلا بما يعتقد كذا أكد له منطقياً أنه ليس من المعقول بأن يعرفه بهذا القرب منه ويكون عنده من الصبر والأناة والتفكير ما يجعله يتكلم بهذا الكلام، وأوضح له بأن ما سمعه من شهادة بحقه ليس إلا جراً بماً منه لزوجته التي تحدثه، وأراد أن يقنعها بما هو ثابت لديه ثبوتاً واقعياً . اجابه البطل: « اذهب فاني قد عفوت عنك طالما انك معترف ببطولتي وخائف من سطوتي ومحترم شخصيتي » أجابه صاحبه قائلاً « انه من كمال عفوك أن تقبل مني الدية حتى اكون مطمئناً على نفسي فيما بعد أي من بعض عشيرتك الأقربين ، لأنني اذا دفعت لك الدية اصبحت مرتاح الضمير من الناحية العرفية والشرعية » . أجابه نيف « اني اقبل منك الدية على اساس ان تطمئن وتأمين ، لا رغبة فيها ، والطريقة التي ترى بها راحة نفسك افعليها وانا انفذها لك . » فقال ابن عبيده: « اريد ان تتفضل علي بقبول الدية » . فدفعت الدية وانتهى الأمر الى العفو (١) .

(١) القصة مشهورة .

يعفو وهو بأثر ما يكون من الفغب

قصة خلف^(١) المفرح الملقب بالضابط وقعت عام ١٣٣٨ هـ

حدث نزاع بين ابن عم خلف شقيق ابيه المدعو محمد بن مفرح وبين فرد آخر من نفس القبيلة وكانت النتيجة أن قُتل محمد ابن عم خلف بيد منازعه .

عندما شعر القاتل أن رصاصة مسدسه اصابت من محمد مقتلًا ضاقت به الأرض واسود في وجهه فضاء الدنيا خوفاً من سطوة ابن عم القتل المدعو خلف . (ولا لوم على القاتل فيما اذا دخل قلبه الرعب واشتد به الخوف فان تنلفاً ذو سطوة قوية وقناة لا تلين ، لا يهتك له جوار ولا يبيت على الضيم) .

ماذا يفعل القاتل؟ وكيف ينجو بنفسه؟ أيستجير بأحد ابطال قبيلته؟ هذا هو السبيل الوحيد الذي يلجأ اليه ، وحاول أن ينفذ هذا الخيال . ولكن من اين له ان يطمئن من صولة خلف الذي يعلم مدى

(١) هو من قبيلة القرويين وقسم من هذه العشيرة يقطن قرية بقرب بلدة منبج التابعة لقضاء مدينة حلب في سورية والقسم الآخر موجود بقضاء الرقة المدينة التي تقع شمال شط الفرات كما يوجد فرع من هذه العشيرة يقطن مع عشيرة الولد الفدعان الذين هم من قبيلة عنزة وخلف هذا الآن هو ساكن مع عشيرة الفدعان . ويعتبر كفرد من هذه القبيلة .

إقدامه وبطولته فهو لا يأمن على نفسه أن يقتله خلف ولو كان عند مجيره .
لقد فكر طويلاً بالتماس المخرج فلم يجد له منفذاً . ولكن خطرت على
باله فكرة غريبة وهي أن يلوذ بجوار خلف ذاته .

فر القاتل مسرعاً والقى نفسه في بيت خلف وتوارى في قاعة البيت
هذا ، وخلف لم يبلغه مقتل ابن عمه ولم يدر بذلك الى ان دخل البيت ليلاً
فوجد شقيقته تنوح وتندب بالويل والثبور^(١) واطفاها الأيتام سيكون
لمصرع ابيهم .

انزعج خلف من منظر اخته واطفاها المحزن فصاح بأخته وسألها عن
كنه أمرها .

الأخت - ابن عمك قتله فلان .

خلف - أين ذهب القاتل ؟

الأخت - لا بد من أن يكون استجار بأحد زعماء العرب .

خلف - ومن الذي يستطيع أن يجيره مني ؟ اخبريني يا اختي عن
هذا الشقي الذي تمادى به غروره إلى ان يجير مجرماً قتل ابن عمي وأثكل
عمي^(٢) الشيخ ؟

(١) هي شقيقته من ناحية وقرينة ابن عمه المقتول من ناحية اخرى .

(٢) لم يكن لعمه المسن ذرية ولا ولد قط غير الفتى المقتول .

كان هذا الحديث على مسمع من القاتل وكان له وقع في قلبه أشد من وقع السهم . هب خلف ليأخذ بندقيته وهو لا يملك من شعوره شيئاً ، ولم يكن نصب عينيه سوى القبض على القاتل .

أخذ بندقيته وتوشح بعتاده وأراد أن يخرج وإذا به يطاءً بقدمه جثة شخص ملقى على الأرض .

خلف - من هذا ؟

القاتل - « امرؤ لائذ في حماك لا يعلم من يجيره سواك » .

خلف - أنت فلان قاتل ابن عمي ؟؟

القاتل - نعم قتلته في ساعة الغضب التي كثيراً ما يفقد فيها المرء صوابه . وأما الآن فقد عاد إلي رشدي ، وإني لأتمنى أني المقتول لا القاتل خوفاً من صولتك وخشية من سطوتك ، لهذا ما وسعني ان استجير عنك بفرد من ابطال قبيلتي لعلمي انه لن يجبرني من عقابك احد ، فاقض ما انت قاض . »

وجم خلف عن الكلام قليلاً كالمغمى عليه ، ثم أفاق فصاح بمستجيره : اذهب فقد عفوت عنك ، وابتعد لئلا يأتينك عمي فيقتلك .

القاتل - لا استطيع القيام فقد خارت عزائمي من شدة خوفي منك .
خلف - إذن سأحملك على فرسي حتى أضعك في بيت أمير القبيلة

الشيخ مقحم بن مهيد^(١). فحمله خلف على منكبه فأركبه فرسه ومن ثم ذهب به حتى أدخله في بيت رئيس القبيلة ثم انصرف عائداً .
وما يزال البطل خلف على قيد الحياة حتى هذه الساعة التي اسجل فيها هذه الكلمات وهو يعيش عزيزاً شامخ الأنف بين قومه . اما القاتل فلم تطل مدة حياته لأن الرعب عشش وفرخ في مهجته من خلف الذي صارحه بعد ما وضعه في بيت زعيم القبيلة بقوله . « إني قد عفوت عنك الآن وعفوي هذا قد لا يدوم طويلاً فإن استطعت ان ترحل وتبتعد عني وعن القبيلة التي اسكن بين ظهرانيها فافعل فإنني لا آمن شعوري ان اراك فاقترض منك لأنني استطعت ان املك نفسي واسيطر عليها عندما كنت في بيتي لاجئاً ولكنني اخشى ان لا استطيع ضبط عواطفني فيما إذا رأيتك في موضع غيره .
عندما سمع القاتل هذا الوعيد من البطل اصابه ذعر وساءت صحته وما زال داء الرعب يفتك به حتى فارق الدنيا وأهلها .

(١) يقص علي الشيخ النوري بن مقحم بأنه كان حاضراً عندما وضع خلف القاتل في بيت أبيه والنوري هو رئيس عشيرة الفدعان حالياً ونائبها في البرلمان السوري ورويت هذه القصة من الشيخ مقحم بن مهيد كما رويتها مفصلاً من خليل ابن حاكم بن مهيد .

يعفر عن قاتل شقيقة

قصة (مقعد الدهينة) وهلال ابن عمه وقعت في سنة ١٣٤٤ هـ

تزوج هلال ابنة عمه شقيقة مقعد الدهينة وقد كان زواجه لها بدون اختيارها^(١) ورضاها بصفته ابن عمها المباشر حسب العادة المتبعة وربما ان هذه الفتاة غير راضية ولا مأخوذ رأيها في اقترانها من ابن عمها لهذا ما استطاعت ان تعيش معه قطعياً ولا من طريق المجاملة بل اعلنت نشوزها عنه والتجأت الى بيت اخويها الإثنين (غازي) وهو الأكبر ولكنه أخ لها من الأب فقط، اما الأخ الشقيق فهو «مقعد» وعندما هربت من بعلمها (هلال) الى بيت أخويها ذهب هلال يطالب اخويها بها فحاولوا ان يقنعوها لتعود الى بيته ولكنهم اصرت وأبت وفضلت الموت على العودة اليه ، فلما رأيا شدة إصرارها تركا سبيلها ولم يضغطا عليها .

اما قرينها هلال فقد بات في ذهنه ان اخويها هما اللذان شجعاها على النشوز فأضمر لهم سوءاً ، وذهب يلتمس الفرصة التي يفتك بأحدهما هذا ولم

(١) مقعد هذا يعتبر من الأبطال الافذاذ وهو من رؤوس الاخوان الذين حصل بينهم وبين الملك المرحوم عبد العزيز شيء من الخلاف ومن الذين نجو من عقاب الملك وهو من رؤساء عشيرة النشعة المتفرعة من قبيلة عتيبة وهو ما زال هلى قيد الحياة .

يخطر ببالهما ان ابن عمهما رسخت في ذهنه هذه النية السيئة لأنه لم يتظاهر امامهما بشيء من هذا القبيل، واستطاع الغادر ان يوارى غيظه وحمده، حتى سنحت له الفرصة التي وثب بها على الأخ الأكبر المسمى «غازي» فأطلق من بندقيته رصاصة خرقت صدره فلقي حتفه فوراً وهرب القاتل حالاً واستجار ببیت شخص يدعى «سراي العويل» من عشيرة النفعة قبيلة كلا المتخاصمين .

حدثني «مقعد» انه عندما بلغه خبر مصرع اخيه غازي فقد رشده واختطف بندقيته ولحق بالقاتل قاصداً قتله بدون ان يفكر في القوانين العربية بشأن المستجير، ويؤكد لي انه قصد البيت الذي استجار به قاتل اخيه فلما دنا منه قابله «سواي» الذي استجار به المجرم واراد ان يحول بينه وبين هلال القاتل ولكن مقعداً لما رأى ذلك من «سواي» وضع البندقية في صدره فهرب «سواي» منه، وشاء ان يترك سبيل مستجيره لينجو بنفسه لأنه نظر الى مقعد نظرة الرجل الذي لا يملك من عقله شيئاً ولكن «مقعداً» بهذه اللحظة أتى من خلفه وطرح أرضاً وذهب به الى بيته وآخر الأمر انتبه من ذهوله وهدأت اعصابه وعاد اليه رشده وعلم انه لو قتله في بيت مجيره لأصبح هو المجرم، ومن ثم تقوم عليه الحجة فيما بعد ولا يجد من ينصره لأن من قتل المستجير عند العرب لم يجد له نصيراً .

أما (هلال) فقد هرب فوراً من مستجيره والتجأ الى عشيرة الشيايين وهم من نفس قبيلة عُتَيْبَةَ، وإنما هم بعيدون عن النفعة عرب (مقعد) وعندما علم (مقعد) بذلك ذهب الى أوئك العرب يحاول الفرصة التي يقضي بها على حياة القاتل ولكنه اخفق بمحاولته لأن القاتل عندما حرص مقعد على قتله هرب وترك (نجداً) كلها وشخص نحو الكويت وبقي وقتاً متوارياً ، لا يعلم عنه شيء ، وبعد مضي مدة من الزمن علم (مقعد) أن المحرم يسكن الكويت ولكن مقعداً الآن في شغل شاغل عنه وذلك عندما كان مطالباً من قبل الملك عبد العزيز ابن سعود الذي يعتبره أخل بالأمن ، وقتل جنوداً من جنود حكومة الملك بوقعة تسمى « الهبكة » ^(١) سنة ١٣٤٨ هـ غير أن مقعداً عندما ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، هناك اضطر أن يذهب الى الكويت فالعراق لينجو بنفسه من بطش الملك ابن سعود فولى هارباً الى الكويت مبدئياً وعندما وصلها سعى بدوره يتجسس على خصمه هلال ، فوجد في الكويت قوماً من عشيرته الأقربين كما أنهم ايضاً اقارب لهلال ، وهم ثلاثة رهط

(١) كانت هذه الوقعة في موضع يقع شمالي جبلي طي ، ذلك ان سرية خرجت من قبل الوالي على مدينة حائل فاصطدمت هذه السرية مع جنود الاخوان المتمردين على الحكومة الذين يرأس قسماً منهم فرحان بن مشهور بن شعلان والقسم الثاني يرأسه مقعد صاحب الترجمة.

وهذه أسماؤهم « دحيلان وعويص وغافل » هؤلاء كلهم من المساعيد فخذ مقعد الدهينة القريب . حدثني مقعد انه عندما وجد هؤلاء الرهط قال لهم جميعاً : أنتم الآن علمتم بوجودي قبل أن يعلم هلال ولكني اقسم لكم بالله لئن غابت شمس اليوم قبل ان تأتوني به لأجري عليكم العقاب الذي أنوي تنفيذه بهلال . قالوا له : وكيف يكون ذلك؟ قال : سأتوارى في بيت احدكم وانتم تأتون به كأنه مدعو عند صاحب هذا البيت . فتم الاتفاق بينهم على أن يخذعوا الغادر^(١) وفي آخر النهار أتى الثلاثة ورابعهم القاتل ولا زالوا يسرون سوياً حتى دنوا من البيت فلما ادخلوه من الباب اشعروه بالحقيقة وأفهموه انهم مرغمون على هذه العملية^(٢) فعند ذلك لا يعلم اين يذهب فلاحول له ولا طول ، فدخل على عدوه الذي لم يكن بينه وبين قتله إلا رؤيته له وتمكنه منه . فطرح هلال نفسه بين يديه وجثا على ركبتيه ويديه ينتظر عدوه أن يبتز عنقه ولكن عدوه كان اكرم منه نفساً وأوصل رحماً وأطهر قلباً وأعف يداً فعفا عنه .

(١) اظن ان هؤلاء الجماعة الذين في الكويت اقرب عصابة لمقعد من القاتل هلال فلو لم يكن ذلك لما فعلوا عمليتهم هذه .

(٢) عندما وصل مقعد الكويت لم يكن بمفرده بل كان معه بعض من بقية عصبته الذين حاربوا الملك معه .

عندما رأى هلال أن مقعداً عفا عنه طلب منه أن يتفضل عليه بوثيقة يكتبها له لتكون على ما يزعم شهادة له فيما لو اتاه فيما بعد ابن مقعد ، فأجابه مقعد : لا حاجة لك بهذه الوثيقة لأن أخي الذي قتلته ليس له من العصبية الذين يطالبونك بدمه أقرب مني ، وابنني الذي لم يتجاوز الآن السنتين من عمره . ويقول مقعد إنني اكدت له أن ابني لن يبلغ عمر الرجولة إلا وانت على احد امرين : إما أن تكون ميتاً او تكون هرمًا على اعتبار ان عمرك الآن ستون فأكثر فإن يكن ابني كريماً عندما يراك هرمًا فإنه سوف يعفو عنك ويترك سبيلك ولو لم يكن معك مني وثيقة ، وإن كان ابني دينيًا قاصر مروءة فلو اعطيتك وثيقة من عندي فليست هذه الوثيقة منجية لك من شره .

ومن الجدير بالذكر ان ابن مقعد المدعو (غازي) المسمى على اسم عمه المقتول ، هذا الفتى قد ساقه القدر لزيارة الكويت بعد مضي عشرين سنة على الحادثة فوجد هلالاً قاتل عمه في تلك البلدة ، وجده شيخاً هرمًا قد انحنى ظهره وفقد بصره وبقي هيكلاً أجوف ألت به شتى المصائب (١) :

-
- (١) يروي لنا التاريخ ان احد السلف الصالح رأى شيخاً هرمًا يتكفف الناس فقال : ضيع الله في شبابه فضيعه الله في هرمه فلو حفظ الله في شبابه لحفظه الله في هرمه . اي لو حفظ حدود الله في صباه لحفظه في شيخوخته .
- (٢) رويت هذه القصة من بطلها مقعد .

هرم وغربة وفقد بصر وفراغ ذات يد ، فلما رآه الفتى بهذه الحالة اخذته
الرحمة والعاطفة العصبية فأواه عنده مدة اقامته في الكويت واحسن اليه
وعندما فارقه سلمه مبلغاً يستعين به على نوائب الدهر^(٢) .

اكرام بعد عفو

قصة عَقْلَى بن غمور وصاحبه وقعت في سنة ١٣٥١ هـ

وشى صاحبه به عند ولاية الأمر فألقت الحكومة السعودية على عقلى
القبض وسجن في مدينة الرياض وقد تأكد وهو في سجنه ان الواشي به
صاحبه فلان فبعث له من سجنه يهدده بالعبارات الآتية :

« أنا لست مؤبداً في السجن وسوف اخرج ولو بعد حين ولكن
بعدا اخرج فليدافع عن نفسه ما استطاع . واقسم عقلى^(١) على نفسه بأنه

(١) عقلى من قبيلة شمر من الويبار من عبده ، وهو شجاع وشهم وجسم المروءة الى
ابعد حد ، ولقد الجأتني ظروف خاصة فاضطرت ان اقطن عند الويبار الذين هم
فيخذ الرجل ، واكثر شيء اعجبني من اخلاق البادية هو تقديرهم لصاحب الفضيلة . فهم
لا يقيمون وزناً لصاحب المادة اذا عري من مكارم الاخلاق مهما بلغ من الثروة ،
وبما ان صاحب الترجمة رجل لا يوجد عنده من الماشية لا ثاغية ولا راغبة اللهم الا
الشيء الذي لا يذكر ورغم اعدامه هذا فان افراد عشيرته بصورة عامة يرون له
من الحرمة والتقدير الشيء الذي يثير الاعجاب ، وهذه خلة مع الأسف محروم
من تنفيذها الكثير من المدنيين الذين لا يرون للانسان قيمة الا بقدر ما يناله من
ثروة ملفقة ومظهر براق .

سينتصف منه ولا يتركه حتى ولو علم انه عندما يشفي غيظه منه بأن الحكومة ستعاقبه بالموت .

تبلغ صاحبه هذا التهديد من عقلى فاهتم له ولكن لم يبلغ به الاهتمام الحد الأكبر وذلك بحكم سجن الحكومة الحائل بينه وبين صاحب الوعيد.

ومضت ايام واذا بالسجين يطلق سراحه بريئاً ولم يثبت لديه أية تهمة تدينه وحالما بلغ صاحبه خروجه من السجن ضاقت عليه الدنيا بأكملها ، فلا يرى نصب عينه ارضاً تقله ولا سماء تظله ، وخير وسيلة يلتجئ اليها هو انه التجأ بعقلى من سطوة عقلى ، فلم يشعر حتى دخل الرجل بيته ولاذ بجانب الرواق ومن ثم صرخ صائحاً انى مستجير فأجرني يا عقلى ، فقفز عقلى والسيف مشهور بيمينه مجاباً للمستجير بهذه العبارة « ابشر فقد اجرتك من كل معتد » فيجيبه المستجير انا فلان ابن فلان جئت هارباً من سطوتك خائفاً من عقابك لم أجد من العرب من يجيرني عنك ولقد ضاق بي فضاء الدنيا عندما تبلغت وعيدك وها أنذا لاأذ بجوارك خشية من سطوتك .

بعدما سمع عقلى هذا الحديث الذي جابه به ضيفه اغرورقت عيناه من أثر هذه العبارات وندى جبينه حياء وتهلل وجهه سروراً وطرباً وذهب يقبل مستجيره ويضمه الى صدره ويلطفه بكل هدوء وبشاشة وعلى الفور ذهب واستحضر كبشاً من الضان وذبحه له ودعى على شرفه كبار قومه وأعيانهم .

يعفو عن قاتل ابيه بعدما تمسك منه

قصة (مذهان بن شنان بن غافل) ^(١) مع (سمران العود الشمري) ^(٢)

وقعت في شهر رمضان عام ١٣٥٦ هـ

ذهب نفر من قبيلة (القدعان) قاصدين غزو قبيلة (شمر الفرات) فانصبت غارتهم على إبل أحد فرسان القبيلة الشمرية المدعو (العود الحريصي) وحمي الوطيس بين الفريقين وكانت الغلبة للعود الحريصي ، فقد شاء القدر أن يُقتل «شنان بن غافل» بيد «العود» .

وكان للمقتول ابن دون العاشرة من عمره عندما قتل والده . ومضت السنوات وبلغ الفتى الحلم ، وشب وهو لا يحلم بشيء سوى الأخذ بثأر

رويت القصة السابقة عن نايف الهباس بن هرشان ونائف ابن عم 'عقلى' صاحب القصة وقد توفي عقلى بعد طبع الكتاب الطبعة الأولى .

(١) «مذهان» من القدعان من قبيلة عنزة وهو ابن غين الذي كان لأسرته رئاسة قبيلة القدعان سابقاً .

(٢) العود كنيته اما اسمه فهو (سمران) وهو من عشيرة الحرسنة المتفرعة من قبيلة شمر .

أبيه . أما القاتل فقد بلغه الخبر أن مقتوله خلف مولوداً مثلاً في البطولة والاقدام ، لهذا بات عنده من الحزم ما جعله يهتم ويحرص بأن لا يدع لخصمه إليه منفذاً فيتسلل منه إليه ويغتاله غدرًا . ولكن كما ورد في المثل العربي « لا ينفع الحذر إذا حكم القدر »

لقد ظل الفتى يسبر غور قاتل أبيه ، وينقب عنه ، وما فتىء يتعقب حركاته وسكناته حتى ساقه القدر إليه وهو راقد في مضجعه . ولم يشعر القاتل حتى جثم خصمه عليه وتمكن منه بحيث لا يستطيع الدفاع عن نفسه .
حالما ظفر الشاب بقاتل أبيه وضع المديّة على عنقه وقبل أن يحز رأسه صاح بوجه خصمه : أتعرف من أنا ؟ فأجابه : ألسنت مذهبان بن شنان ؟

الفتى : بلى . ولكن شتان بين قتلي لوالدك وبين قتلِكَ إياي الآن .
أما والدك فقد غزاني عند أهلي وأراد نهب إيلي وقتلي فدافعت دون مالي ونفسي حتى قتلته وجهاً لوجه ، لم اغدره ولم اعتد عليه كما اعتدى عليّ هو وكما اعتديت عليّ أنت ؟ والآن ! أيها الفتى لقد مكنتك الله مني فان قتلتي فاني أرجو أن اكون شهيداً في شهر رمضان المبارك ، وإن عفوت واحسنت فان الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

الفتى : بل عفوت . فاذهب عتيقاً لوجه الله وارجو أن يقبل الله عملي هذا كثواب لروح والدي المرحوم .

العود : أرجو أيها الفتى الكريم أن تفضل علي بقبول الدية كما
تفضلت علي بعفوك عن دمي .

الفتى : ليست الدية أثنى عندي من دمك فكما اني عفوت عنك فمن
العار أن أرضى شيئاً من المال بدلاً عن دم والدي .

ذهب الفتى الى اهله وهو مرتاح الضمير وخال من الهم لاعتقاده أنه
قتل خصمه . وهو فعلاً قد قتله معنوياً لأن القتل في عرف اصحاب النفوس
الكريمة الأبية ليس هو إراقة الدم ، وإنما هو ما اشار اليه الشاعر
معروف الرصافي في البيت الثالث من هذه الأبيات :

تزود من الحسنى بما أنت قادر
عليه ولا تقبل سوى العقل مرشدا
واحسن إلى من قد أساء تكرماً
وإن زاد بالاحسان منك تمردا

وحب الذي عاداك إن رمت قتله
فإني رأيت الفضل أقتل للعدى

أقول : لقد قتل العنزي الشمري بفضله واحسانه وعفوه لا بسيفه .
ترى لو قتله الفتى وشفى غيظه وحقده أكنا نسجل له في سجل شيم العرب

هذه المفخرة التي ستبقى له خالدة مدى الدهر الى ان يرث الله الأرض ومن عليها ؟ إذن فقد ربح الفتى ربحاً معنوياً بعفوه عن خصمه) .

بعدما وصل الشاب الى اهله عائداً من مغزاه ، اقتاد الشمري فرساً أصيلة صفراء^(١) وقدمها للفتى مذهان الذي اعتق رقبتة ، وذلك دلالة على بياض وجه الفتى . وهذه عادة متبعة من عادات العرب ، فان فاعل الجميل يشاد بذكره ويعلن مجده بعلامة تكون بيضاء يطاف بها على أندية العرب ومجتمعاتهم .

وهذه الفرس كل من يراها يعلم انها عنوان مجد فعله الرجل المقدمة اليه . وعلى هذا الاعتبار قبلها الفتى . والجدير بالذكر أن من عفا ومن عفي عنه حيان يرزقان الى هذه الساعة التي كتبت فيها هذه الأسطر^(٢) .

(١) أي بيضاء ، لا يقال للفرس البيضاء في اصطلاح العرب المعاصرين إلا صفراء .

(٢) القصة مشهورة .

فصل

في عفة نساء العرب واخبارهن

مهدة للفتيات العربيات

قصة كنعان الطيار^(١) مع ابنة عدوان بن طوالة

وقعت بين ١٢٢٢ و ١٢٣٠ هـ

كان لعدوان فتاة وهبها الله قسطاً وافراً من الحسن الفاتن مع جاذبية رائعة ، وكان الطيار ينظر اليها بعين العشق والغرام ويحرص على ان يجد الساعة التي يخلو بها ليشعرها بما يختلج في نفسه من مودة لها وغرام ، ولكنه طال عليه المدة ولم تسنح له الفرصة التي يتمكن بها من الوصول الى هذه الفتاة التي سحرته بحسنها ، وما زال الطيار يترقب الفرص بها حتى تسرت له بكل سهولة ، وذلك بعدما رحل عرب الفتاة عن منزلهم الذي كانوا يقطنونه من قبل وهم في مسيرهم هذا قاصدون المنزل الاخر الذي يكون أخصب نباتاً لماشيتهم ، هناك تذكرت الفتاة حاجة من حوائجها نسيته في الموضع الذي رحل عربها منه فرأت انه بإمكانها أن تعود الى المكان وتأخذ

(١) كنعان الطيار رئيس عشيرة ولد علي من بني وهب من قبيلة عنزة امـ اعدوان بن طوالة فهو رئيس عشيرة الاسلم من قبيلة شمر .

حاجتها التي نسيتهما ، ومن ثم تلحق بعربها قبل أن يخطوا رحالهم في المكان الذي يقصدون الحلول فيه .

لقد عادت الفتاة مسرعة الى منزل اهلها السابق ، فعندما وصلت اليه أناخت راحلتها وعقلتها وذهبت تبحث عن ضالتها وفي هذه اللحظة رفعت طرفها خلفاً فرأت فارساً مدججاً بسيفه ورمحاً متجهاً اليها بالذات ، فرفعت طرفها ثانية للتحقق عن هذا الرجل القاصد لها بهذا المكان الخالي ، ظانة في نفسها : ان والدها أو أحد اخوانها دفعه وازع الشفقة والغيرة فلحق بها .

هذا ما كانت تظنه الفتاة بالفارس في أول الأمر ، ولكنه بعدما دنا منها أبصرته ، واذا هو اجني لا عن اسرتها فقط ، بل عن عشيرتها .
إنه كنعان الطيار العنزي الذي لا يمت لها بأية صلة من صلات النسب .

الآن انقلب ظنها الحسن الى ظنون سوء ، وما هي اللحظة وجيزة حتى أقبل الفارس يلقي عليها تحيته المعسولة ، وفي هذه التحية منتهى التغزل والغرام ، وقد بادلت الفتاة تحية كان فيها من الغنج والرقه ما يلهب غرام

لست ادري ما هي الاسباب والعوامل التي جمعت بين الطيار الذي يرأس إحدى قبائل عنزة وبين ابن طوالة الشمري رئيس عشيرة الاسلام . لا بد ان هناك اسباب جمعتها ؟؟ وإلا فإن اجتماعها مستحيل ، بحكم ما بينها من عداوة .

الطيار ويزيده اشتياقاً ويجعل نفسه تحدثه بنيل مناه من هذه الحسناء بكل سهولة^(١) فدنا منها أكثر مما كان . فأبدت له جانباً من اللين والهدوء والسماحة الشيء الذي زاده طمعاً بها .

بعد ذلك حدثها بلمحة العاشق المتفاني بغرامه ، فأبدت له انها تكن له من المودة والعشق أكثر مما يتصوره ، بعد هذا التصريح الذي سمعه من معشوقته ، لم يبق عنده من الصبر شيء الا أن يقرب منها ليقبلها وتبادلها بالمثل ، فدنا منها باندفاع وذ هول ، فلما رأت ذلك منه أجابته قائلة « يجب أن تعلم اني لم أعد راجعة من العرب وأنفرد وحدي عن اهلي إلا من أجل مودتي وغرامي بك ذلك جعلني اضحي بعرضي في سبيلك ، وها أنا الآن على أكل الاستعداد بأن اسلمك نفسي ولكنني أخشى شيئاً واحداً هو أن ينظر الينا أحد من عربنا فتكون الفضيحة على الإثنين ، وعلي أنا أكثر مما هي عليك ، لأن عقابي من أهلي ليس كعقابك والفضيحة علي ليست كالفضيحة عليك ، فأنا عقابي القتل وإن لم أقتل فلا أجد من يتخذني له زوجة من شباب العرب مدة حياتي ومعنى ذلك أقتل قتلاً معنوياً ، وهذا

(١) ولا غرو من اين حديث هذه الفتاة وما ابدته من غنج لأن النساء الشريرات مشهورات بلبن العريكة وسلاسة اللفظ فأصبح الأمر طبيعياً لا يستغرب من النساء اللواتي منهن هذه الفتاة ولا سيما صاحبتنا . تعمدت هذه اللباقة حتى توهم الطيار وتخدعه لتتمكن منه في تنفيذ مكيدتها التي حاكها له .

أخف الخطرين .

الطيار : « ما هو رأيك إذن ؟ »

الفتاة : أريد أن تركب فرسك وتمد بصرك جنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً ولا ترجع حتى ترى الصحراء خالية من الناس الخلو الذي يجعلني اطمئن على نفسي وعليك ، فاذهب انت على ظهر فرسك وأنا ههنا انتظرك وأنظر الى حركاتك فإن رأيت أحداً من العرب أقبل علينا فافعل اشارة من عندك لأركب جملي ويكون الوعد بيني وبينك غداً فيما اذا رحل العرب فإنني سوف افعل لك كما فعلت اليوم ، وإن لم ترا احداً فعد تجدني في انتظارك .

الطيار : هذا هو الرأي السديد .

وعلى الفور ركب فرسه وذهب ينظر الى الجهات الأربع ، ثم يعود كرة فينظر اليها فيجدها جالسة تتحرى الاشارة منه ، فلما عاد بدون ان يشير اليها بشيء حسب التعاليم المتفق عليها بينهما ، عند ذلك ايقنت انه الآن لم يكن بين عينيه عدا مفاجأته ونيله من عرضها . فرأت ان تخدعه اكثر مما سبق حتى يؤمن بصحة ما تدعيه له من محبة وغرام . فبدأت تتحسن له وتكحل عينيهما وتلبس أجمل ما عندها من الثياب .

فلما دنا منها ووجدها بهذه الصورة متجملة ولايسة ألبستها الجميلة ،

لم يكن عنده الآن ادنى شك من صحة عشقها إياه ومودتها له ، فقد اعتقد
انها صادقة بكل ما قالت ، وسيصدقها الآن بكل ما تقوله ، أقبل
عليها بفرسه ، كما انها قابلته ماشية تحييه كما تحيي الوالدة الرؤوم ابنها
البار ، فلما قرب منها صاحت : « بشرني يا بعدحيي وميتي ويا خلف أمي
وأبي » عساك ما رأيت احداً يكدر صفو عشقنا ^(١) .

الطيّار : ابشري انني لم أر أي انسان وإن الصحراء خالية من العرب
مرة واحدة .

الفتاة : هذا ما أتمناه يا بعد هلي ^(١) ولكنني لست مطمئنة ولا هو
بمرتاح ضميري إلا أن اذهب بذاتي وانظر بعيني اللتين اثق بجودة نظرها
الى ابعد حد ^(٢) .

(١) هذه الجملة قليلة ان ينطق بها من نساء العرب غير النساء اللواتي من قبيلة شمر
ومعنى قولها « يا بعدحيي وميتي » اي فديتك بالاحياء من عشيرتي والأموات ،
وقولها « يا خلف امي وابي » اي جعلت لك في المحبة والوداد والمنزلة في قلبي ما يفوق
محبة امي وابي .

(٢) اي فديتك بأهلي .

(٣) لقد كانتا عينا الفتاة يشفعان لها فيما تدعيه امام معشوقها المخدوع فهو لا يشك
ان هاتين العينين الساحرتين يريان من المدى البعيد اكثر مما يراه لهذا اصبح لا يكذبها بما
تدعيه من قوة نظرها كما انه لا يخامر الشك بأنها صادقة بلهجتها لأن تغنجها له
وكلماتها المعسولة وتجعلها كل ذلك كان شافعاً لها بتصديقه إياها .

الطيار : لا بأس من أن تذهبي وتنظري بنفسك لتطمئني أكثر .
الفتاة : اعتقد اني اذا ذهبت ماشية على اقدامي لا استطيع ان
اتمکن من روية البعيد كتمكني منه اذا كنت راكبة إما جملي أو فرسك
ثم استدركت الحديث وقالت : لا شك انني اذا ركبت جملي لا أتمكن
من العودة عليه بسرعة كتمكني فيما لو ركبت الفرس .
الطيار : بل اركبي فرسي وسأحملك على ظهرها بكل ممنونة .
الفتاة : لا اريد أن اكلفك بحملك إياي على الفرس يا نور عيني
فاني باستطاعتي أن اركب الفرس بكل سهولة ^(١) .
الطيار : تفضلني اليك الفرس وها انا بانتظارك .
تناولت الفتاة زمام الفرس فوثبت عليها ولما استقرت على صهوتها
نزحت عنه قليلاً ، حتى أيقنت انه لا يستطيع ان ينالها بسوء ، هناك
صرخت به : « يا للفاجر الغادر » وما زالت تصب عليه وابلاً من
الكلام القارص .
الطيار : هذا هو ما اعتقده بك يا ابنة عدوان ، فكوني على ثقة أنني
لم آت اليك قاصداً أن انال من عرضك كما تبادر لذهنك مني الآن .

(١) اغلب نساء العرب يحسن ركوب الخيل خاصة بذلك العهد لا سيما بنات
الفرسان كهذه التي لا يخلو بيت ابيها من عشرات الجياد .

الفتاة : وهل من المعقول أن لك قصداً آخر سوى قصدك السيء
الذي ظهر لي منك سافراً جلياً ؟

الطيّار : نعم ان قصدي الاساسي هو امتحان عفتك ، ذلك أني
مصمم على أن اخطبك من اهلك ، واتخذك قرينة لي ، وليس الاقتران
بالأمر السهل ، بل انه عنوان سعادة المرء في الحياة ، أو مدعاة لشقاوته
وتعاسته ، ولما كنت فتاة قد توفرت فيك مجد الأب وأصالة الخال وعراقة
الاسرة والحسن الكامل فإن هذه الأمور الحيوية لا شك انها مظهر ايجابي
وعنوان جذاب لرغبة الفتى الذي تحدثه نفسه بالزواج من فتاة ما ، ولكن
هذه العوامل الايجابية التي قد توفرت بذاتك ، فهي وان كانت مغرية
لبعض من الشباب ، فاني امرؤ غيور ، أي ، لا اكتفي بذلك فقط ، بل اني
علاوة على ذلك أطلب ما هو أنبل منها ، الا وهي العفة التي هي اسمى
وأشرف سجية تتصف بها الفتاة لأنها المحور الاساسي الذي يترتب عليه
حفظ النسب ، والعفة طبعاً سجية كامنة في الخلق لا تتجلى ولا تبرز إلا عند
الامتحان ، فان وجدتك على ما اعتقد ، رضيتك لنفسي حليلة وخطبتك
من اهلك ، فإن اخلفت ظني نبذتك ، وحذرت عنك كل فتى يمت إليّ
بصلة نسب أو صداقة .

الفتاة : هب اني اخلفت ظنك ، أما تخشى ان يسلط الله على محارمك

من يهتك اعراضهن عقوبة لعملك، ويفضحن عند رجال الحي كما شئت
أن تفعله معي الآن .

الطيار : لك ان تفعلي معي ما شئت من التوبيخ الأدبي فانه لا يهمني
ذلك طالما اني وجدت بك ضالتي التي اصبو اليها .
الفتاة : لا حديث لك معي الآن قطعياً واني لذهابة الى أهلي .
الطيار : اتقي الله لا تخزيني بين قومي .

الفتاة : أقسمت بالله بأني لن اتنازل عن شرفي وكرامتي بل اني سوف
أذهب إلي أهلي وأخبرهم بما تم من أمرك معي وهذه فرسك شاهدة عليك ،
اللهم إلا أن تركب جملي وتحل محلي في الهودج ، فان فعلت ذلك ربما أنظر
في أمرك فيما بعد . وأخيراً ركب الفارس جمل الفتاة ودخل في وسط
ظلتها^(١) لا حول له ولا طول .

هذا وقد ظل الفارس تحت رحمة الفتاة ، يستنجد برحمتها تارة ويطلب
منها ان تستره ، طوراً آخر ، وبالتالي عفت عنه ، بعد ان اعلن عجزه وقلة
اقتداره ، كما أنه اعلن ثناءه عليها وأشاد بمدحه وثنائه على والدها ولعل

(١) الظلة هي الهودج أي مركب يوضع فوق ظهر الجمل والمراد به مجموعة من
العصي تحنى ويجعل فوقها ستار من القماش النسائي المقصود انه مركب لا يجلس فيه
ولا يركبه إلا النساء الفتيات .

الآيات التي ارتجلها الطيار عندما كان في الهودج ، هي بلا شك أوضح صورة ناطقة عن واقع أمره مع هذه الفتاة فتدبر معي قوله :

- (١) يا الله يافراج يا وال الأفراج
يَا لِي غني والناس بـابك محايـج
- (٢) تفرج لمن كنه بحق من العاج
مُتـحـير ضاقت عليه المناهيـج
- (٣) عزّي لمن خلنه البيض مسهاج
رَكبت جوادي وار كبتني هجيهـج
- (٤) يا بنت من هو باللقا يلبس التاج
إن حل بالربع المقفين ترعيـج
- (٥) ما كوها الخنطة على صالي الصاج
ومشروها درّ البكار الهجاهـج

(١) يا والي : يا من بيدك . محايـج : محتاجين .

(٢) الحق : الصندوق .

(٣) عزّي : ما أكبرها مصيبة . خلنه : تركه . مسهاج : مهزلة . هجيهـج :

جمل صغير .

(٤) اللقاء : لقاء العدو ، إلى : إذا ، المقفين : المدبرين ، ترعيـج : صباح .

(٥) الصاج : صفيحة من حديد يخبز عليها ، البكار الهجاهـج : النوق الأ Bakar .

الشرح : قوله . (١) « يا الله يا فراج يا والي الأفراج يا للي غني والناس
ببابك محاويج » يدعو الشاعر الله ويعترف له بالقدرة الخارقة على سرعة
الفرج ويقول يا رب إنك الغني والناس كلهم محتاجون لرحتك وغفرائك .

(٢) « تَفَرِّجْ لِمَنْ كُنْهَ بِحَقِّ مِنَ الْعَاجِ
مُتَحَيِّرٌ ضَاقَتْ عَلَيْهِ الْمَنَاهِجُ »

الشرح : يقول أسألك يا الله أن ترأف بحالي وتيسر لي الطريقة التي
يكون لي فيها فرج من هذا المأزق الحرج ، وهو يصف نفسه كأنه مسجون
في قلب صندوق مقفل عليه . ثم يشرح فيقول : اني الآن بأتم الحيرة من
أمري ، وكل سبيل أريد أن التمسه أجده أمامي ضيقاً لا مخرج لي منه .
وهكذا يقصد بقوله : « مُتَحَيِّرٌ ضَاقَتْ عَلَيْهِ الْمَنَاهِجُ »

(٣) « عِزِّي لِمَنْ خَلَنَهُ الْبَيْضُ مَسْهَاجٌ
رَكَبْتُ جَوَادِي وَارَكَبْتَنِي هَجِيهِيحُ »

بهذا البيت صور لنا الشاعر ابلغ التصوير ما وقع فيه من مشكلته
العويصة فهو عندما يقول : عِزِّي لِمَنْ خَلَنَهُ الْبَيْضُ مَسْهَاجٌ ، أي ما اكبرها
من مصيبة ابتليت بها حتى أن النساء ضحكن علي « ومسهاج » أي معناه
أن الفتاة بعدما ركبت الفرس واركبته هودجها جعلت تمر امامه راكبة

فرسه وهو في هودجها ثم تتهم عليه وتسخر من عقله وثوبخه ، وتارة تأتيه من امامه وطوراً من خلفه وأحياناً عن يمينه وساعة عن شماله ، « مسهاج » أي تمرّ تمر من عنده وقد أوضح لنا الأمر جلياً بقوله . « رَكَبْتُ جَوَادِي وَارَكَبْتَنِي هَجِيهَج » يقول انها ركبت جوادِي اي ركبت فرسي . فكأنها اصبحت الآن هي الفارس وقد اركبتني مع ذلك جملها يظهر أن جملها غير كبير في سنه وجسمه وذلك معنى قوله « هَجِيهَج » اي صغير ، المقصود ، يقول : ما أكبرها من بلية على الفارس الذي من نوعه يحل محل العذراء وهي تحل محله .

٤ « يَا بِنْتُ مَنْ هُوَ بِاللَّقا يَلْبَسُ التَّاجُ

إِلَى حَلِّ بِالرَّبْعِ الْمُقَفِّينِ تَرَعِيحِ »

هنا بدأ الشاعر يتلطف للفتاة لأنه مرغم فهو يخشى أن تذهب من عنده على فرسه ومن ثم تفضحه عند عربيه وعند اهلها وما أسوأ النتيجة فيما لو فعلت ذلك ، لهذا تجده يقول في المصراع الأول « يَا بِنْتُ مَنْ هُوَ بِاللَّقا يَلْبَسُ التَّاجُ » أي استريني يا بنت الفارس المغوار الذي اذا عظمت الهيجاء وحمي الوطيس لا يختفي بل يشهر بنفسه ويلبس التاج ، ولا يعني بالتاج تاج الملوك وإنما يقصد بالتاج تاج الشهرة أي يلبس اللباس الذي يشتهر به بين قومه .

(٥) « مَا كُونَهَا الْحِنْطَةُ عَلَى صَالِي الصَّاجِ »

وَمَشْرُوبَهُمَا دَرَّ الْبَكَارُ الْهَجَاهِيجُ ،

يمتدح الفتاة ويقول : ان غذاها كان غذا عريباً ، فهي ما تتغذى
إلا بشرب لبن الناقة البكر التي لم تلد إلا مرة واحدة كما انها لا تستطعم
إلا البر المخبوز على الصاج فهو يزعم أن هذا الغذاء يكون ادعى لنمو
صحتها وتناسق جسمها . وهنا يؤكد انها ابنة أمراء بقوله « ما كوها الحنطة
على صالي الصاج » لأن هذا الغذاء لا يتمكن عليه من البادية الا طبقات
الأمراء بذلك العهد .

وقد كان يترنم بهذه الفصيدة على مسمع منها يقصد استرحامها
وإطلاق سراحه وتركه وفرسه يذهب من حيث أتى .

وقد كانت عند حسن ظنه الأخير بها ، فهي ، كما أسلفنا ، تركته
يذهب مستوراً لم يعلم أحد عن فعلته هذه ، وربما أن هذه القصة كانت
جديرة أن تموت بمهدا ولا تتسرب إلينا لولا المناسبات والظروف الطارئة
التي كانت بلا شك عاملاً أساسياً لذبوع القصة مع قصيدتها .

هذا وقد تضاعف غرام الطيار بهذه الفتاة واصبح مشغولاً بحبها
ويود أن يضحي بكل شيء ليصل إليها ، لا بأساليبه الأولى الملتوية وإنما
يريدها الآن بزواج مشروع .

وقد حدثته نفسه أن يبذل الغالي والنفيس ويسوق المال والجاه حتى يحصل على هذه الفتاة الحسنة المحصنة ، بنكاح شرعي .

وعندما هم بالفتاة بطريقة شرعية كان توفيقه بالوصول إليها اجدى وايسر بكثير مما سبق في الأول ، أي عندما راودها عن نفسها بتلك الأساليب الشاذة . وغاية ما كلفه الأمر من استحصالها هو أن زار والد الفتاة وطلبها منه فأنكحه إياها .

وماهي إلا ايام قليلة واذا بها زوجة له ، وكانت اسعد لياليه وأسرّها تلك الليلة التي عقد له بها النكاح ومضت مدة طويلة والزوجان بمنتهى المرح والسرور ، ولكن الأيام لا يدوم سرورها ، ومن الأسباب التي كدرت صفوهما وكدرت صفو الطيار بالأخص ، ذلك أن له أخاً أصغر منه ، وكان على جانب كبير من الجمال ، وهو ساكن معه في البيت وكان بدون زوجة ، وفي الحين الذي يأتي هذا الشاب لبيت أخيه كانت ترأف به زوجة أخيه وتعتني به عناية كاملة ، وكانت هذه العناية والرأفة التي تبديها زوجة الطيار لأخيه الأصغر ، مما أثار الشك في نفس الزوج وبات عنده من الظن السيء ما يجعله يشك أن زوجته أغراها أخوه بجماله وشرخ شبابه ، لهذا قالت له نفسه لا بد من أن يمتحنها حتى يتجلى له الشك باليقين وعندما أملت عليه نفسه هذه الخواطر ، سعى لتنفيذها فوراً ، فقد أعلن

بلاغاً على عربيه ، بصفته أمير القبيلة ، بأنه في اليوم المعلوم سوف يذهب غازياً لقبيلة ما من القبائل المعادية له .

وعلى أثر بلاغه هذا ذهب بغزاته . وبعد أن بات ليلة وهو في طريقه مدبراً عن عربيه عند ذلك اختلق حيلة على قومه وأكدهم أنه حدث لديه أمر هام يستلزم عودته الى أهله ، وواعدهم موضعاً ينتظرونه فيه ، ثم عاد في سبيله حيث وصل عربيه آخر الليل .

فقصد بيته ليتفقد زوجته فوجدها نائمة على فراشها وملتحفة به بشكل طبيعي ، ولم يجد عندها أدنى شيء يدعو الى الشك والريبة ، فتركها ، وذهب الى شقيقه فوجده ايضاً غارقاً في نومه ^(١) فاتضح عنده خطأ رأيه ، ولكنه الى الآن لم يطمئن قلبه الاطمئنان الكافي ولم يقنع القناعة الكاملة بأن امرأته بريئة من أخيه ، لهذا صمم على أن يمتحن قرينته بصورة عملية لتكون عنده أجلى لأوهامه وظنونه ، فعاد كرة اليها فوجدها

(١) ربما يشكل على القارئ الأمر ويتساءل عن السبب الذي جعل هذا الشاب يتخلف عن الغزاة ، فنقول ، إنه من الضروري ان يبقى عند عربيه ليتولى حراسة الإبل أخيه ، ليحميها فيما لو تسلسل غزاة من البدو وانتهزوا غياب أخيه وقومه فشنوا غاراتهم على إبلهم ، لذلك كان تأخره أمراً لا بد منه لأن الشاب لا يقل عن أخيه بطولة ، فاذا سرحت الإبل ذهب معها على فرسه ، وحسب الاصطلاح يسمى هذا الفارس « جنباً » ،

نائمة في مضجعها ، فدنا منها وكشف عنها الغطاء ، فانتبهت من نومها فوجدت هذا الرجل الأجنبي جالسا على طرف فراشها فصرخت : من انت ؟ اجابها بصوت منخفض « أنا فلان » مالك يا حبيبتي مزعجة ، وعلى اثر هذه الإجابة حاول ان يدنو منها ويمدده اليها ، فما وسعها إلا ان قفزت من فراشها ووثبت عليه ولطمته بذراعها على وجهه لطمه طرحته مجنولاً على الأرض ، وعلى أثر هذه اللطمه اتبعته بالشتائم واللعنات الحارة ثم قالت : « لعل ما اسديده لك من جميل وولاء ورأفة كان ذريعة اتخذها الشيطان ليدخل في ذهنك اني افعل ذلك بدافع غرام بك ، ثم واصلت حديثها فقالت : يجب ان تنتبه وتعلم ان ما افعل معك من المعروف ليس إلا من أجل قريني فلان شقيقك فلولا مكانته في قلبي ووفائي له لما نظرت اليك ، كما انه لولا غيرتي عليه لصرخت بصوتي وفضحتك بين قبيلتك ، ولكن تأبى نفسي ان افعل ذلك لأن فضيحتك هي بلا شك فضيحة لأخيك وهذا امر لا ارتضيه له » .

الآن جمع الرجل نفسه وذهب عائداً الى غزاته ، (ولا اعلم هل هو غزا أحداً من اعدائه أم انه تشاءم من هذه السفرة وعاد مع سبيله واعتقد انه الى الثانية اقرب) .

يعود بنا الحديث الى الشاب المتهم البريء ذلك انه عندما اصبح

الصبح ذهب الى بيت اخيه ونادى بصوته امرأة اخيه لتناوله فطوره كالمعتاد ولكنها لم تجبه ، فنادى ثانية وثالثة ، فأجابته بالثالثة اجابة قاسية لم يسبق له أن سمع من نوعها ، فاندesh الفتى من هذه الإجابة التي لم يسبق ان سمعته مثلها فخطا الى الامام خطوتين قاصداً القرب منها فقال : « لا بأس عليك يا ابنة عدوان ، كأنني ارى صوتك عليه أثر المرض أو التعب ، خيراً ان شاء الله » . استغربت المرأة ان يسألها الشاب هذا السؤال وهو ، على ما تعتقده ، اعلم بكنه السر الذي جعلها تجيبه الإجابة الشديدة .

خرجت من خدرها اليه وهي ناوية ان توبخه وتشتمه اكثر من الشتائم واللعنات التي صبتها على صاحبها في ليلتها الماضية ، ولكنها عندما نظرت الى وجهه ابصرته خالياً من اثر تلك اللطمة العنيفة التي خبطت بها وجه المرء الذي فاجأها البارحة .

لقد تحيرت في امرها ، وما زادها حيرة واشكالاً في الأمر ، هو ان الصوت الذي سمعته البارحة نفس صوت ونعمة هذا الفتى ، ولكنها تراه أغر الجبين ناصع الوجه لا من ناحية الأثر فحسب ، ولكنه من ناحية الأثر المعنوي .

اجل ، انه مرتاح الضمير لم يعرف شيئاً يخزيه عندها حتى تنخفض عيناه ويسود جبينه .

هذا وقد اخذ الشاب فطوره من يد حليمة اخيه وفي نفسه شيء من
تغير اخلاقها معه، واخيراً ذهب الفتى لحراسة ابله كالمعتاد . وبعد مضي
ليلتين من الحادثة عاد زوجها من سفرته وهو رابط رأسه بخرقه بيضاء ،
وما ان رأت « الحليمة » بعلمها مجروحاً برأسه حتى تذكرت الحادثة فأصبح
عندها من التفكير ما يجعلها تشك بأن تلك القضية مؤامرة حاكها لها
حليمتها الماكر . ثم عندئذ بادرت بالسؤال « لا بأس عليك مالك رابط
رأسك ؟ » فأجابها قائلاً « وقعت من الفرس واصابني حجر شج جبينني » .
قالت : اذن اخشى عليك ان « يشتم »^(١) جرحك فيجب ان أعالجه بدواء
عندي اخذته من والدتي واحتفظت به لحادثة مثل هذه ! فذهبت مسرعة
وأنت بشيء تزعم انه هو العلاج لهذا الجرح . والحقيقة انها تريد ان تنظر
لهذا الجرح . وعلى الفور سعت بنقض الحزام الذي على جرحه وتظاهرت
أمامه بمزيد الشفقة والعطف ووضعت الدواء كما تزعم .

وفي معالجتها هذه تيقنت اليقين القاطع بأن هذا الجرح هو من أثر
لطمتها له وذلك لأنها لطمته بذراعها وكانت آنذاك لابسة « مجولا »^(٢)
فأرأت نصب عينيها تأثير مجولها في جبينه فجعلت نفسها متجاهلة ولم تبد
أي تغيير أمامه ولكنها قررت القرار الحاسم أن تهرب الى أهلها ، وانما

(١) « يشتم » معناه يلهب .

(٢) المجول هو السوار ولكنه اضخم حجماً .

المشكلة الآن أن أهلها بعيدون عنها ذلك انهم ذهبوا الى منازل قبيلتهم لأنهم كانوا قد اجتمعوا هم وقبيلة عنزة عرب الطيار ولكن اجتماعهم ذلك لسبب طارىء وعندما زال ذلك الحادث عاد كل منهم الى عربهم لهذا أصبحت صاحبتنا غريبة بين أظهر هؤلاء القوم ، فماذا تفعل فيما لو عزمت أن تهرب من بعليها الى عربها ؟ لا بد من أن يكون معها رجل قيم عليها ومن اللازم أن يكون هذا الرجل من محارمها فان لم يكن أحد من عصبتها القريبين فيكفي ان يكون ممن يحمل اسم قبيلة شمر فانه عندها بحكم الضرورة ^(١) يقوم مقام عصبتها الاذنين ، خاصة اذا شكت له أمرها فانه سوف يكون عنده من الشيمة والنجدة ما يجعله يكون لها بمنزلة الأخ الحميم .

هذا وقد ذهبت تسأل بخفية عن وجود شخص من عرب « شمر » وبعد ان أجهدت نفسها بالسؤال عند ذلك ذكر لها انه يوجد شاب « شمري » اجير عند فلان يتولى رعاية ابله باجر معلومة ، ولما تأكدت من ذلك قصدته على الفور فوجدته كما ذكر لها ، فقصت عليه أمرها وشكت له حالها واستنجدت به وأثارت نخوته على أن يهرب بها الى والدها وبكت عنده ، فأجابها الراعي

(١) وان كان هذا لا يجوز شرعاً وانما بحكم الضرورة والعادات وأما الاسلام فلا يقيم وزناً لهذه العصبية وهذا هو مذهبي الذي أؤمن به .

بأنه على أكمل الاستعداد لتنفيذ طلبها ، فلما رأت منه ذلك شكرته وقالت : يجب أن أدلك على أطيب ابله^(١) النجائب التي تتمكن من الفرار عليها بصورة تجعله لو أراد أن يلحق بنا ويقتفي أثرنا لا يستطيع ذلك ، فأخذته وهدته الى أنجب إبل حليلها وعندما انتصف الليل ونام زوجها تسلت من الفراش وتركت قرينها في مضجعه ، وذهبت الى الموضع الذي واعدتها اياه راعي الإبل فوجدته بانتظارها فركبا الدلول حيث كان الرجل على مقدم الراحلة وهي على مؤخرها وادجلا المسير بشدة خوفاً من أن يلحق بهما الزوج هذا وبعلمها لم يخطر بباله شيء من ذلك حتى أصبح الصبح واستيقظ من سباته فلم ير زوجته بفراشها كالمعتاد ، فظن انها ذاهبة لقضاء حاجة ما ، وبقي ينتظر عودتها بدون أن يدخل في نفسه ريبة منها ولكنه طال انتظاره بشكل جعل الريب يدب في نفسه ، فسأل عنها فلم يجد من يفيد ، فازداد ريبة ، عند ذلك سأل أفراد عشيرته مستفسراً هل يوجد بين أظهر قومنا فرد من قبيلة شمر ؟ أجابه أعلم القوم بمثل هذه الأمور قائلاً : انني اعرف بيوت عشيرتي واحداً واحداً فلم اذكر بينهم فرداً من قبيلة «شمر» سوى راع عند فلان^(٢) فبعث رسوله يسأل عن هذا الراعي هل هو

(١) تعني إبل زوجها .

(٢) لطول الزمن الذي سحب اذياله على هذه القصة لهذا لم أستطع معرفة اسم الراعي الأجير ولا اسم المستأجر .

موجود عند ابله ؟ أم لا ؟ فذهب رسوله ينقب عنه فلم يجده ، عاد الرسول واخبر الطيار بأن الراعي لا وجود له عند مستأجره ، فتضاعفت ظنونه وقال في نفسه : لا بد بأن هذا الشمري هرب بزوجه وانما هو لم يتيقن اليقين القاطع الى أن ذهب الى ذلوله النجيبه من اجل أن يركبها ويلحق بأثر زوجته ليعيدها اليه قبل ان تصل أهلها ، ولكنه عندما ذهب يحاول أخذ ذلوله لم يجدها ، الآن زال الشك وحل محله اليقين الراسخ ، بأن زوجته قد هرب بها هذا الراعي الشمري إلى أهلها ، وقد كانت الذلول التي هرب عليها الشمري^١ وحليلة الطيار سريعة الجري ولا يمكن ان يجارياها بعدوها إلا الجمل الذي هو ابو هذه الذلول فاستدنى الطيار الجمل وركبه مقتفياً أثر زوجته الهاربة ، ولكن الزوجة والراعي عملاً حساباً له ، لأنها يعلمان انه اذا انتبه لهما لم يتركها رحمة ولن يدخر وسعاً من جهده للاستيلاء عليها ولا سيما الراعي فانه يعلم ان عقوبته القتل فيما لو ظفر به .

هذا وقد وصل الراعي ورفيقتة عربها ونجوا من شره .

أما الطيار بعدما رأى انه لم يوفق بالظفر بها قبل وصولها عشيرتها ، فانه ذهب الى والد زوجته واخوتها وبقي يطلبهم ويتعطف اليهم بأن يردوا عليه زوجته ، فكان جوابهم له جواباً سلبياً يؤخذ من مضمونه أنهم لن يرغموها مطلقاً ، وانما اشاروا عليه ان يرضي زوجته فإذا رضيت فهو

احب اليهم ان تصلح امور الزوجين . عندئذ طلبها زوجها ليتفاهم معها
فقبلت ذلك ، ولكن اشترطت ان يحضر عندهما ابوها واخوتها فحضروا
محاكمة الزوجين .

الطيار : أنا معترف بأن الحق لزوجتي علي ومهما طلبت مني فإني
مستعد للقيام به .

الزوجة : لقد اخطأت علي وحاولت ان تنال من كرامتي وذلك
عندما كنت بكراً وقد انجاني الله من شرك ، ثم اني سترتك واخفيت ذلك
حتى عن والدي واخوتي ، وعندما طلبت زواجي ووهبني اياك والدي وأيد
ذلك إخوتي قبلت وكظمت غيظي ، ولم ترض نفسي ان اعصي امرأ بت فيه
والدي لأنني اذا عصيته ورفضت قبول الزواج منك ، استلزم علي آنذاك ان
اوضح العلة التي رفضت قبولك من أجلها ، ولهذا لم تقبل شيمتي ان افضحك
بين قومك بفعلتك تلك الشنعاء ، ومضت تلك الحادثة مستورة لم يعلم بها
إلا الله ، ولم تقف عند ذلك بل زدت فاتهمني بشقيقك وذهبت تحاول
أن تجد علي ما يهتك ستري فلو صدقت ظنونك السيئة لفضحتني وطردتني
الى بيت اهلي ، وهما انا الآن اترك الأمر لوالدي واخوتي فان ساءوا
وعفوا عن حقوقهم في الأولى والثانية ، فاني لن اسمح بحقي ابداً . .
لقد رأى « الطيار » أن حجته واهية ومنطقه فاشل بعد هذا الكلام

الذي سمعه من زوجته فلم يكن لديه من الوسيلة إلا الاعتراف بجريته
والتودد والتلطف لها ، ولكن كل ذلك لم يفده شيئاً عندها ، ولم يلن
لها قلب .

عاد الطيار الى اهله لم يظفر بشيء من امره ، وعندما وصل عربه
انشد هذه القصيدة :

(١) « يَا رَاكِبٍ مِنْ فَوْقِ حُرٍّ مُشْدَرٍ

مَا دَنَقَ الرَّقَاعُ يَرْقَعُ إِرْهُوقَهُ » ^(١)

كثيراً ما يكون مطلع قصائد الشعراء الشعبيين بوصف الراحلة
النجيبة . لهذا ابتدأ الطيار قصيدته بوصفه للجمل الذي يركبه رسوله الذي
انتدبه لزوجته وهمياً « يا راكب من فوق حرٍ مشدر » اي يا ايها الوافد
من عندي لقد اركبتك على جمل عريق في اصله من سلالة الإبل النجائب
الشديد في بنيته الصلب في عضلاته (مشدر) اي طويل القامة .

(٢) أُمُهُ لَفَتْنَا مِنْ عِمَانٍ تَذَكَّرُ

وَأَبُوهُ مِنْ قَعْدَانٍ عُلُوْى عَمَوْقَهُ

(١) دنق اي ما تطأطأ الرقاع اي المختص بممارسة الإبل كالبيطار « رهوق »
يعني الخفاء مفردا رهق والجمع رهوق وحفاة وحفاء قعدان جمع مفردا قعود اي
فتى من الإبل لم يكن كهلاً اخنى عليه الدهر حتى اصيب من كثرة استعمال
الركاب له بالخفاء .

يسترسل في مدحه لهذا الجمل ويؤكد انه عريق في اصالة نسبه من قبل امه ومن قبل ابيه ، فهو ينسب هذا الجمل من ناحية امه فيقول : إنها من الإبل النجائب التي مقرها (عمان) ويقال عمانية للأنثى من الإبل كما يقال عماني للذكر ، ويذهب الشاعر وينسب ابا الجمل ويقول انه من سلالة إبل عُلوى ، وعُلوى هم قبيلة مطير الذين يقطنون الآن نجداً واكثر ما تكون مساكنهم بين الشرق والشمال لمدينة الرياض .

(٣) « يُشْبِه ظَلِيمٌ مِنْ جَذِيبٍ تَحْدَرُ

وإِلَّا النَّدَاوِي يَوْمَ تُطْلُقُ سُبُوقَهُ »

يصف سرعة جري الجمل بجري الظليم (ذكر النعام) وتارة يقول إنه كالصقر من الطيور إذا انقض في الجو الراكد .

(٤) يَا رَاكِبَهُ كِرْزَهُ لَنَجْعَ بِالْأَجْفَرِ

تَلْقَى عَشِيرِي كَنَّهُ أَلْبَدْرُ فَوْقَهُ

يقول الطيار : اذهب ايها المندوب بكل سرعة واقصد الموضع الذي فيه محبوبتي وهو المكان الذي يسمى (الأجفر) والأجفر موضع خصب يبعد عن مدينة حائل مسافة ٨٠ كيـلا ويقع في الشمال الشرقي عن حائل فيقول لاحاجة بك ان تسأل عنها فإنك ستجدها كالبدْر في تمام نموه أو بمعنى ادق ، يقول تجدها في شكل من الزهو والجمال مما يجعلك تظن ان

البدر متلبس في جسدها .

(٥) « لا وا »^(١) عَشِيرِي حَال دُونَهُ مُضْطَرٌّ

عِيَالٌ وَاعِزِّي لِمَنْ دَارُ شَوْقِهِ ،

يتألم الشاعر من فراق زوجته ويقول : إنه حال بيني وبين اقتراني بها رجال ابطال اقوياء ، ويؤكد لنا ان العاشق الذي يحاول ان يتصل بمعشوقته وهي في جو يحيط بها ويحرسها رجال من نوع هؤلاء الأبطال ! يقول : لا شك أن هذا العاشق من اسوأ الناس حظاً واتعسهم توفيقاً وكأنه يشير الى نفسه بهذا البيت .

(٦) حَامِينَ مِنْ فَيْدٍ^(٢) إِلَى حَدِّ الْأَقْوَرِ

وَمَحْرَمِينَ ضَدَّهِمْ لَا يَذُوقُهُ

يزيد بوصفه لرجال معشوقته ويقول انهم حامون بقوة بأسهم وشدة نفوذهم مساحة كبيرة من الأرض الخصبة ولا يتسنى لإبل عدوهم ان ترعى ما في هذه الارض من العشب والكلأ . فيوضح لنا ان القوم الذين استطاعوا أن يبسطوا نفوذهم ويفرضوا سلطانهم على الصحراء الخالية من البشر بحيث لا يرعى من شجرها عدا مواشيهم ، أين له ان يتمكن من

(١) « لا وا » كلمة تقال للتحسر والتعني .

(٢) فيد قرية قديمة تقع جنوباً للشرق عن مدينة حائل .

أخذ ابنتهم بأسلوب القوة؟ وإن كانت ابنتهم هذه زوجته الشرعية ولكنه
مع ذلك يرى أنه من المستحيل أخذها إلا بتكريم منهم وطيب نفس .
ويبدو أن الشيخ كنعان الطيار أراد بهذا البيت أن يأتي أهل
زوجته من طريق المعروف واللين ، وهذا هو الواقع لأن الكريم إذا أتى
من طريق المعروف والتودد لان وسلم مقوده لمرتجيه .
وهذا ما ذهب اليه المتنبي بقوله :

إذا انتَ اكرمتَ الكريمَ ملكته

وان انتَ اكرمتَ اللئيمَ تَمَرَدَا

(٨) « لا وأَعْشِيرِي عَنْ هَوَايَهْ تَنْكَرُ »

شَفَتَ الْغَضَبُ يَا نَاسُ بِأَغْضَايِ مُوَقَّةٌ »

يقول : وامصيبتاه على عشيري^(١) اي زوجته ومعشوقته التي تغيرت
عليه وتنكرت بعد ما كان جو الألفة والوداد بينهما مليئاً بالمرح والسعادة
ويقول : إني رأيت غضبها على ظاهراً في سواد عينيها فهو يرى أن زوجته
تنظر اليه بعين الغضب لا بعين الرضا التي كانت تبديها له سابقاً .

(٩) أَبُو قُرُونٍ كِنَهَا ذَيْلُ الْأَشْقَرِ

رِيحُ الْخَضِيرِي وَالْغَنَابَرِ نُشُوقَةٌ

(١) العشير في اللغة الشعبية كلمة تشل في معناها الرجل والأنثى فالرجل يصح
ان يقول لمعشوقته عشيري أو عشيرتي والأنثى كذلك تقول عشيري .

يصف شعر رأس محبوبته ويقول إنه أشبه ما يكون بشعر « ذيل »
الحصان الأشقر ، أي الأحمر ، ويوضح بأن جسد رائحة زوجته كأنها
رائحة الريحان والعنبر .

(١٠) وَجَدِي عَلَيْهَا وَجَدٌ مَطْعُونٌ الْأَبْهَرُ

أَقْفَى يَجْرُ فَمَسْنَجِدٍ مِنْ عُرُوقِهِ

يقول : إن آلامي عليها هي أشبه ما تكون بآلام الرجل الذي
طعنه اعداؤه برمح أصاب العروق المتصلة بالقلب .

(١١) أَوْ وَجَدَ مِنْهُ هَوًى عَنْ جَوَادِهِ تَقَنْطَرُ

بَغَارَةٍ عَمِيَتْ تَمَدَّدَ سُبُوقُهُ

يعود ثاني مرة ويصف آلامه ووجده على محبوبته ويقول : إنه وصل
الى وضع من البؤس والقلق يشبه وضع الفارس الذي رمته فرسه أمام
اعدائه في ساحة الوغى ولم تستطع ان تجري به .

(١٢) أَوْ وَجَدَ مَكْتُوفٍ تَوَلَّوْهُ عَسْكَرُ

أَقْفَى بِهِ الْجَلَّادُ بِسَيْفِهِ يَسُوقُهُ

يزيد الشاعر تأكيداً لسوء حالته ، ويصف ما يعاينه من الشقاء ،
فتجده يضع نفسه بأسوأ وأتعس ما يصل اليه المرء .

وهل أسوأ مصيراً والعياذ بالله من وضع المرء الذي حكم عليه بالإعدام
ومن ثم قاده الجلاد لتنفيذ الحكم عليه بالسيف . وهكذا الطيار يصف
نفسه ويقول : ان وضعه الراهن يعبر ابلغ التعبير عن وضع ذاك
الرجل الذي قيد للموت ولم يبق بينه وبين ازهاق روحه إلا
دقائق معدودة .

واليك القصيدة متصلة غير مقطعة مع شرح ألفاظها .

(١) يا راكبٍ من فوق حرٍّ مشدَّرْ

ما دَنَقَ الرِّقَاعُ يرقع رهوقه

(٢) أمه لَفَتْنَا من عِمانٍ تَذَكَّرْ

وابوه من قِعدانٍ علوى عموقه

(٣) يشبه ظليمٍ من جذيبٍ تحدرْ

والأ النداي يومٌ تُطلقُ سُبُوقه

(١) حر : اصل مشدر طويل القامة . دنق : انحنى . الرقاع : الذي يصلح
اخفاف الابل . رهوق : الحفا . (يصف الجمل) .

(٢) تذكر : تنسب نسباً اكيدا . قعدان : جمع قعود . وهو الفتى من
ذكور الابل . عموقه : عريقة النسب .

(٣) الظليم : ذكر النعام . جذيب : المكان العالي . تحدر : نزل . النداي :
الصقر . سبوقه : قيوده .

- (٤) يَا رَاكِبَهُ كِرْزَهُ لِنَجْعِ بِالْأَجْفَرِ
تَلْقَى عَشِيرِي كَنَّهُ الْبَدْرُ فَوْقَهُ
(٥) لَا وَعَشِيرِي حَالُ دُونِهِ مُصْطَرٌّ
عِيَالٍ وَأَعِزِّي لِمَنْ دَارَ شَوْقُهُ
(٦) حَامِينَ مِنْ فَيْدٍ إِلَى حَدِّ الْأَقْوَرِ
وَمَحْرَمِينَ ضَدَّهُمْ لَا يَذُوقُهُ
(٧) لَا وَعَشِيرِي عَنْ هَوَايِهِ تَنْكَرُ
شَفَتَ الْغَضَبِ يَا نَاسُ بَاغِضَايَ مُوقَهُ
(٨) أَبُو قُرُونٍ كَنَهَا ذَيْلُ الْأَشْقَرِ
رِيحَ الْخَضِيرِيِّ وَالْعَنَابِرِ نُشُوقُهُ

-
- (٤) يَارَاكِبَهُ : يَنَادِي الْمُنْتَدِبَ . كِرْزُهُ : أَدْفَعُهُ . النَّجْعُ . الذَّلَّةُ مِنَ الْعَرَبِ .
الْأَجْفَرُ اسْمُ الْمَوْقِعِ الَّذِي يَقْطُنُهُ أَهْلُ زَوْجَتِهِ
(٥) لَا وَ : كَلِمَةٌ تَقَالُ لِلتَّوَجُّعِ وَالتَّحَسُّرِ وَالتَّمَنِّي . عِيَالٌ . جَابِرَةٌ . عِزِّي .
مَا أَكْبَرَ مَا أَتَعَزَّرُ لَهُ . دَارُ شَوْقِهِ : يَنْقَبُ عَنْ حَبِيبَتِهِ .
(٦) (فَيْدٌ) وَ (الْأَقْوَرُ) مَوْضِعَانِ . مُحْرَمِينَ : حَامِينَ . ضَدَّهُمْ . أَعْدَاؤُهُمْ
لَا يَذُوقُهُ . لَا يَرْعُونَ فِيهِ .
(٧) عَنْ هَوَايَ : عَنْ حَبِي . بَاغِضَايَ مُوقَهُ : بِنَظَرَةٍ عَيْنِيهَا .
(٨) أَبُو : صَاحِبٌ . قُرُونٌ : يَقْصِدُ شَعْرَهَا . ذَيْلُ الْأَشْقَرِ : أَيِ شَعْرِ الْحِصَانِ
الْمَسْدَلِ عَلَى فَخْذَيْهِ . رِيحٌ : رَائِحَتُهَا . الْخَضِيرِيُّ : الرِّيحَانُ . الْعَنَابِرُ : مَفْرَدُهَا غَبِيرُ
نُشُوقُهُ : أَيِ تَشْمُهُ .

(٩) وجدي عليها وجد مطعون الأبر

أَقْفَى يَجْرُ مَسْنَجِدٍ مِنْ عُرُوقِهِ

(١٠) أَوْ وَجَدَ مِنْهُ عَنْ جَوَادِهِ تَقْنَطَرٌ

بَغَارَةٌ عَيْتٌ تَمْدُدُ سُبُوقَهُ

(١٠) أَوْ وَجَدَ مَكْتُوفٍ تَوَلَّاهُ عَسْكَرٌ

أَقْفَى بِهِ الْجِلَادُ بَسِيفَهُ يَسُوقَهُ

يقال إن القصيدة أكثر مما ورد ، وإن فيها من الايضاح والتودد لأصهاره والترجي لزوجته وإبراز شعوره نحوها وبث شكواه واعترافه بذنبه لها ما هو أكثر من ذلك ، وإنما لم يردنا الا هذه الأبيات .

هذا وقد بعث الطيار قصيدته هذه لأصهاره وزوجته ، وبعد أن أيقن اليقين القاطع بأن قصيدته وصلت إليهم ، هناك بات عنده من اليقين ما يجعله يعتقد بأن قصيدته سيكون لها الأثر الفعال في نفسية أصهاره وحليلته وأنه سينال بغيته فيما اذا ارتقى على أصهاره والتجأ إليهم ، وذلك أن الشعر له مفعول محسوس في نفسية العرب ، خاصة بذلك العهد ،

(٩) وجدي : أي ألمي . وجد مطعون : كآلم المطعون : الأبر . بين الكتف والظهر : أقفى : أدبر . يجر : يسحب . مسنجد : الرمح .
(١٠) جواده : أي فرسه . تقنطر . أرتى عن صهوة فرسه . بغارة : في معركة . عيت : ما استطاعت . تمدد : تجري . سبوقه : فرسه .

لذلك بادر الرجل مسرعاً وركب راحلته ونزل ضيفاً على اصهاره ودخل من رواق البيت . وعند رجال البادية عادة ان المرء اذا دخل من خلف البيت معناه انه سلم نفسه تسليماً بدون قيد ولا شرط ، وانه خاضع لكل ما يطلب منه ومذعن اذعان المغلوب على أمره للغالب المنتصر ، فكان اصهاره على ما يظنه بهم ويعتقده منهم ، وحالما رأوا الطيار لاجئاً اليهم وملتمساً عطفهم ، بادروا بإقناع ابنتهم ، وهي كذلك كانت المدة التي مرت عليها وهي معلقة عند أهلها مما خفف من شدة غضبها السابق . وفي نهاية الأمر استطاع أهلها أن يؤثروا عليها حتى رضيت وذهبت مع قرينها ، فكأنني بالطيار يرى نفسه اقترن بها من جديد .

ولما كانت نساء العرب دائماً وابدأ لا يعشقن الرجل ويعجبن به وينظرنه بعين الاعتبار إلا اذا كان على جانب كبير من الشجاعة ، فقد كان الطيار لا يتمنى في نفسه إلا أن تأتيه غارة من اعدائه ليظهر شجاعته أمام حليلته لعلها تنظر اليه بعين الإعجاب والاحترام بعد ما حصل بينهما من سوء التفاهم . وما هي إلا ايام قليلة وإذ بغارة عرب السردية^(١) ينصبون عليه في بيته ، فرأى الفارس انه وفق في أمنيته ، فنادى زوجته قائلاً لها :

(١) (السردية) هم عرب من بادية سورية حالياً ومنازلهم تقع شرقاً عن مدينة دمشق .

اليوم سوف ترين مني الفعل الذي يرضيك ويجعلك تستصغرين جميع ما صدر مني من خطأ . وقد طلب البطل من زوجته ان تضع هودجها على ظهر جملها وتركبه ثم تلحق به لتزغرد له بصوتها الناعم المعسول ففعلت ذلك ، فلما حمى الوطيس بينه وبين عرب السردية صاحت مزغردة له بأعلى صوتها ، وكأن هذه الزغايد كأس من الخمر يسكر من نغماتها اكثر بكثير مما يسكر شارب ابنة الكرم ، وكلما طرح فارساً من هؤلاء القوم وتمكن من الاستيلاء عليه صرخت زوجته بصوتها العالي مزغردة لقرينها البطل . ومن حسن توفيق الطيار أن لديه جواداً أصيلاً سريع الجري بحيث يجعله يسيطر على قهر اعدائه بكل سهولة ، فإذا ما تضايق من اعدائه وطوقه بخيولهم نفذ من يدهم كالسهم فلا يستطيعون الاستيلاء عليه بفضل فرسه السريعة الجري ، كما انه اذا كر عليهم وهم هاربون منه لا يستطيعون الفرار ، لأن فرسه تلحق بهم ويطرح منهم ما استطاع .

وقد انتهت هذه المعركة بانتصار الطيار وهو بمفرده على هؤلاء القوم الكثيرين وقد استولى على خيل منهم ، والذي يسره اكثر من هذا كله هو أنه رأى زوجته الآن تنظر اليه بعين الاجلال والبطولة ، لأن نساء البادية كما اسلفنا لا يرضيهن من بعولتهن أن يكون الزوج وسيماً وجيلاً في شكله كما أنه لا يهمهن ايضاً ان يكون ثرياً ، وانما الذي يهم العربية ويجعلها

تفخر بعلها وتعجب به كل الاعجاب اذا كان شجاعاً حامياً للذمار لا تلين له قناة ولا تخفر له ذمة . هذا هو غاية ما تريده الزوجة العربية من بعلها ، وهي اذ تنظر للرجل من هذه الناحية فانما تنظر اليه من نواحي عديدة : منها أن الانثى العربية كلما رأت الرجل كاملاً برجولته كان ذلك ألد وأجل في حياتها الزوجية من شتى الوجوه الاجتماعية ، ومنها أنها تتصور نفسها أمّاً لأبطال أفذاذ في الشجاعة والفروسية عندما يكون بعلها شجاعاً فتنجب منه مولوداً تعيش بكنفه بقية عمرها عزيزة مرفوعة الرأس بفضل شجاعة ابنها الموروثة فيكفيها أن يقال لها : أم فلان .

عندما عاد الطيار منتصراً على اعدائه جادت قريحته بهذه الأبيات :

« ١ » أَصْبَحْنَا وَصَبَّحْنَا جُنُودُ^(١)

جُنُودٍ كَثْرَ سَيْعَانِ الْجَرَادِ

يقول : في الصباح الباكر هجم علي جنود كثيرون بعددهم

كثرة الجراد .

(٢) وَجُونِي غِلْمَةٌ^(١) يَبْغُونُ ذُودِي^(٢)

وَنَا عِنْدَهُنَّ فَوْقَ الْجَوَادِ

(١) (سيعان) . الشيء الكثير .

(١) (غلme) فتيان .

(٢) ذودي . (يقصد ابله) .

يوضح في المصراع الأول من البيت الثاني بأن القوم الذين باغثوه
صباحاً فتیان وأن لا قصد لهم الا أخذ إبله قهراً . وفي عجز البيت يقول:
وانا عند ايلي وراكب لفرسي . فكأنه يقول إن هؤلاء الشباب يجهلون ما
اتمتع به البطولة . ولو انهم رجال كهول عقلاء لبلغهم غني الخبر الذين يعرفوني
بأني الفارس الذي لا مطمع لهم عندي .
(٣) أَصِيلُ مِنْ أَصِيلٍ بِنْتِ أَصِيلٍ

وَعَيْنُهَا نَارٌ شَبَّتْ بِالْحَمَادِ
يصف الشاعر فرسه ، ويؤكد بأنها سلالة أفراس عريقات بأصلهن ،
وفي عجز البيت ينعت عيني الفرس بأنها كالنار التي اشعلت في الصحراء في
ليل مد لهم .

(٤) وَقَوَائِمُهَا كَعِمْدَانِ الْحَدِيدِ

وَصَدْرُهَا بَابِ رَكْبٍ بِالْبِلَادِ
في المصراع الأول ينعت فرسه بطول قوائمها وطول القوائم في الفرس
علامة تدل على نجابتها ، وفي العجز يصف ايضاً سعة نحرها .

(٥) وَظَهْرُهَا شَبْرٌ مَا يَزِيدُ

سَرِيعَةٌ مَوْجٌ بَاهِرٌهَا سَنَادُ

يقول إن ظهر فرسه قصير وانها سريعة الانحراف سهلة المقدود .

٦) وَحَارَكهَا^(١) كَمَا الذَّيْبُ الْمُؤْنِقُ

عَلَى الرَّعْيَانِ ظَارٍ لِلْهَدَادِ

٧) وَأَذَانِهَا كَمَا كَأْفُوزٌ غَرَسٌ

وَمَنَاخِرُهَا كَمَا كَثِيرَ السَّيَادِ^(٢)

والواقع ان هذا العربي الأمي الذي لا يعرف شيئاً عن الأدب العربي الفصيح ولكنه بفطرته العريضة وبذوقه السليم تمكن أن يصف فرسه ، وينعتها بأجل وصف وصفت الخيل به حكماء العرب وشعراؤهم من نثر ونظم .

فنخذ من النثر ما قاله أحد خبراء العرب في الخيل وهو « صعصعة بن صوحان » الذي طلب منه معاوية بن أبي سفيان بأن يخبره أي الخيل أفضل فقال: الطويل الثلاث، القصير الثلاث، العريض الثلاث، الصافي الثلاث، قال فسر لنا؟ قال : أما الطويل الثلاث فالأذن والعنق والحزام ! وأما القصير الثلاث فالصلب والعسيب والقضيب؟ وأما العريض الثلاث: فالجبهة والمنخر والورك ؛ وأما الصافي الثلاث فالأديم والعين والحافر؛ هذا

(١) الحارك : رأس الكتف .

(٢) الغرس : النخلات البكر والكافور هو ثمرة النخلة أول ما تثمر وهو أشبه ما يكون برأس القلم .

ما وصفت به الخيل نثراً أما ما وصفها الشعراء به فهو كثير وإنما نأتي بشيء
من بعض الأبيات المتفقة مع وصف الطيار كقول : عدي بن الرقاع :
يخرجن من فرجات النقع دامية

كأن آذانها أطراف أقلام

فهنأ نجد الطيار وصف أذن فرسه بنفس هذا الوصف .
وقد قال البحري في قصيدة له طويلة يصف فيها الفرس جاء
منها قوله :

وعريض أعلا المتن لو عليته بالزئبق المنهل لم يترجرج
ويقول امرؤ القيس بن حجر في حصانه :
له أبطلاً ظي وساقا نعاة

وارخاء سرحان وتقريب تتفل^(١)

ليس بالغريب أن يكون وصف الطيار لفرسه صورة طبق الأصل
لما جاء به وصف العرب القدامى للخيل من نثر وشعر فالطيار فرع من
ذلك الأصل ، والأصول لا تتغير سوءاً طال الزمان أو قصر . علماً بأن
الطيار أمي^٢ لا يعلم شيئاً من الأدب العربي القديم .

(١) السرحان: الذئب . والتفل: ولد الثعلب . أي ان حصانه سريع الانحراف
كانحراف ولد الثعلب وكشدة عدو الذئب .

و منطق الطيار و واقعہ يقول : إنه لا عذر له البتة عن القتال والكفاح .
ما دام أن لديه فرساً توفرت فيها جميع صفات الخيل الطيبة و يضيف إلى
ذلك قوله :

ونور العين عند البيل تزغرد

تثير بزغروده مكنون الفؤاد

نور العين يقصد زوجته أنها كانت تزغرد له الزغردة تلو الزغردة
و يزعم أن هذه الزغاريد من زوجته له كانت من أهم الدوافع التي ألهمت
شعوره وأذكت شعلة الحماسة والشجاعة في كيانه أما تراه يقول . في عجز
البيت « تثير بزغروده مكنون الفؤاد » ولا شك أن هذا الصوت الناعم
السلس كان له أعمق الأثر في نفسية الطيار وربما كان نجاحه على أعدائه مبنيّاً
ماتّة بالمائة بسبب صوت هذه الحسنة . ولهذا تراه يقول .

لما راحت^(١) بالبواسل^(٢) هرب^(٣)

يشبه السيل^(٤) حاديه^(٥) الحشاد^(٦)

يقول البطل : إنه على كثرة أعدائه الذين هم كما ذكر أشبه ما يكونون
بكثرة الجراد ، مع ذلك فانه استطاع أن يحمي ابله ويهزم الأعداء ،

(١) راحت (يقصد خيل أعدائه (٢) (هرب) اي هاربات يعني افراس
الاعداء الذين هجموا عليه (٣) حاديه : يدفعه (٤) (٥) الحشاد : الموضع الضيق

والفضل يعود بذلك لفرسه الأصيلة ولزوجته التي شحذت همته وصقلت
حاسة البطولة فيه ، وقد عاد منتصراً وكأني به يردد قول عنتر بن شداد
مخاطباً زوجته عبلة :

أثني علي بما علمت فإنني سَمَحُ مخالطتي اذا لم اظلم
فإذا ظلمت فإن ظلمي باسل مُرُّ مذاقته كطعم العقم

مظهر رجل في حقيقة انثى

قصة « بشير بن ضبيعان » ^(١)

مع ضيفه علي بن ضيفته المدعوة (غتره)

هي فتاة توفي والدها بين عام ١٣٢٣ - ١٣٢٧ وكانت في عنفوان
شبابها وليس لها من يعولها ، فخشيت على نفسها من وصمة العار فاضطرت
الى ان تترك عرب عشيرتها الذين يعرفونها جيداً وتذهب الى عرب من
عشيرتها نفسها ولكنهم لا يعرفونها بالذات ، وهي عندما ذهبت الى هؤلاء
العرب لم تذهب بصفة أنها انثى ، كما هو واقع امرها ، وإنما ذهبت متنكرة
كأنها ذكر . وكان لها من طول القامة ما يشفع لها فيما تدعيه ، يضاف الى

(١) كل من بشير وغتره كلاهما من قبيلة الشرارات بادية المقاطعة الشمالية الغربية
لشبه الجزيرة العربية .

ذلك أن فيها من الجسارة والثقة بالنفس في أي عمل من أعمال الرجال ما يجعلهم تضارع الرجل في المظهر ، ولهذا تمكنت أن تتصف بصفة الفتى فذهبت وظلت كضيف عند بشير بن ضبيعان^(١) ، ولا زالت متذكّرة لا يعرف عنها إلا أنها شاب من خيرة الشباب البواسل وقد سمت نفسها علياً ، وبقيت عند بشير مدة طويلة ، وهي مسلحة بالبندقية ولا يمكن أن تدعها من يدها قطعياً إلا في ساعات الفراغ ، وكانت تحسن الرماية وإذا غزا عربها العدو غزت معهم وهي في طليعة الشجعان في ساحات القتال ، ولم يظن أحد أن علياً هذا انثى ، هذا أمر لا يخطر على البال . وكان علي هذا فتى وقوراً لا يمزح مع أحد ولا يستطيع أن يمزح معه أحد لشدة هيبتة ووقاره ، ولكن الحقائق مهما توارت عن الأعين لا بد من أن تبرز عند أية مناسبة من المناسبات الطارئة ، ومن ثم يعود كل شيء إلى أصله كما قال ذو الأصبع العدواني :

كل امرئ صائر يوماً لشيئته وإن تخلق اخلاقاً إلى حين
وأخيراً طال الزمن علي «علي» وهو يخادع نفسه ويخادع الناس .
فاضطر آخر الأمر أن يميّط اللثام ويوضح الحقيقة . ولكنه لا يسعه ذلك حتى يختار لنفسه الشخص الذي يطمئن إليه ويثق برجولته ، وقد

(١) بشير : من شخصيات عرب الشرارات البارزين .

كانت إقامته بين أظهر هؤلاء القوم كافية بأن تعطيه خبرة ودراية لأخلاقهم وتحليلاً لشخصياتهم ، لهذا وقع نظر علي على الشخص الذي هو ضيف في بيته ، ورأى انه خير من يختاره ليفشي اليه سره ويكشف له حقيقة امره ، ولكن علياً الآن طال عليه الأمد وشاء ان يعود الى ما خلق له من المتعة الجنسية ، فلا بد إذن من ان يكون علي « غترة » الفتاة لا علي المزيف فاذا عادت « غترة » الى جوهرها الاساسي اصبحت ملزمة بقرين ينكحها . وقد كان القرين الذي رشحته لنفسها معلوماً لديها هو بشير بن ضيعان الذي حلت ضيفة عنده كل هذه المدة ، وانما المشكل عليها انها لا تعلم هل يقبلها بشير زوجة له ام لا ، وانما هي على كلتا الحالتين مرغمة أن تصارحه بحقيقة أمرها فإن يقبلها زوجة له فهذا هو منتهى امنيتها ، وإن لم يقبلها فهي تأخذ منه عهداً على أن يسترها ولا يفشي سرها لفرد من البشر ، وعندما سنحت الفرصة واختلى بشير وضيفه ، هناك شرح الثاني للأول أمره بوضوح وأعرب له عن رغبته فيه كزوج شرعي ، وذلك بعد أن أخذ منه ميثاقاً على أن يستر القضية حتى ينتهي عقد النكاح ؛ اي اذا وافق بشير ورغب الزواج ، فإن لم يوافق على النكاح فيكون الأمر مستوراً لا يعلم عنه أحد إلا الله . هذا وقد كان الخبر بالنسبة لبشير مفاجأة عظيمة لأنه اندهش اندهاشاً بالغاً غير أنه في النهاية كان مسروراً للغاية بتيسير الله له هذه الزوجة التي توفر لها عقل الرجل وشجاعته مع انوثة المرأة المحصنة

العفيفة وجمالها وفي النهاية وافق بشير على رغبة ضيفه ، ومن ثم عقد النكاح الشرعي بصورة سرية ، ولم يشعر العرب الا وعلّي الشجاع الباسل قد انقلب امرأة لبشير بن ضبيعان وفي تاريخ ٧-٧-١٣٧٤ هـ اجتمعت بالأمير^(١) عبدالعزيز بن احمد السديري الذي هو أمير بلدة القريات والمفتش للحدود الشمالية الغربية التي يقطنها عرب الشرارات الذين منهم بشير وزوجته وسألته عنها فقال الأمير انها على قيد الحياة جميعها وأنها في سن الشيخوخة كما أفادني أنها أصبحت يعولان اسرة كبيرة من البنين والبنات.

(١) توفي عبد العزيز السديري غفر الله له في أحد الربيعين عام ١٣٧٤ هـ وذلك بعد ان تولى وزارة الزراعة وقد كان رحمه الله ملما باخبار العرب غاية الالمام كما كان على جانب كبير من الدهاء والرزانة . وقد رويت عنه قصتين سأوردهما في الجزء الثاني ان شاء الله .

نظام بالقوة

يتبعه عفو وتسامح

قصة (غريب ^(١) بن معقل الشلاقي الشمري) مع معشوقته (وديدة) ^(٢)
حدثت بين عامي ١٣٢٥ و ١٣٣٠ هـ

لقد أتاحت لغريب الفرصة التي جعلته يرحل عن عشيرته « شمر »
وينزل عند عشيرة (الرؤولة) ^(٣) وفي أثناء إقامته هذه اشغف قلبه بحب
الفتاة « وديدة » كما ان الفتاة بادلته بالمثل وربما كانت أكثر غراماً به إلا
ان الانثى عادة تخفي من المحبة أكثر من الغرام الذي يجاهر به الرجل ،
وهذا شيء مألوف ولكن المشكلة العويصة أنه على الرغم من الود
والمحبة المتبادلة بين الطرفين ، مع هذا كله فإن هناك قيوداً تحول دون

(١) غريب هو احد الشلقان الذين حملوا رفيقهم الجريح على اكتافهم وسند كر
القصة في الجزء الثاني في موضعها وهو شجاع وشاعر ، توفي رحمه الله في المدينة
المنورة سنة ١٣٥٤ هـ .

(٢) اما مخطوبته وديدة فهي من فخذ (القطاعي) من قبيلة الرولة . وحتى
الآن لم اجد من يفيدني عن اسم والد الفتاة وغاية ما وصلت اليه روايتي هو معرفة
اسم الفتاة واسم عشيرتها وفخذها الذي تنتسب اليه .
(٣) لابد ان هناك سبباً من الاسباب الطارئة التي جعلت غريباً يترك عربته
ويقطن عند الرولة ولكني اجهل العلم بهذا السبب .

تحقيق أمانيهما فيما لو أراد غريب أن يخطب وديدة من اهلها^(١).
هذا وقد طالت المدة على العاشقين ولم يزل غرامهما ينمو ويزداد ،
وأعظم الأمور التي جعلت غرام كل منهما يتضاعف هو أن غريباً قرر أن
يعود الى عشيرته «شمر» وذلك مما خلق في نفسية الاثنين ألماً لأن الاجتماع
اصبح بين الطرفين شبه متعذر حيث أن كل واحد منهما ينتسب الى قبيلة
معادية للأخرى ، ولكن هذا كله لم يمنع « غريباً » ومعشوقته من أن
يدبرا لهما حيلة يبلغان بها امنيتهما . وخلاصة هذه الحيلة هي أن غريباً
أعطى معشوقته وعداً أكيداً بأنه بعد مضي تسعين ليلة من تاريخ ذهابه
فسوف يأتيها في منتصف الليل ويختطفها لا محالة ، وعندما أعطى غريب
هذا الوعد الذي لا بد له من تنفيذه ، بعد ذلك عاد العاشق إلى عشيرته
وبقيت معشوقته تنتظر اتمام الوعد بفارغ الصبر . ولا زالت تعد ليالي
الدهر ليلة ليلة ، وهي واثقة كل الوثوق بأن معشوقها سوف ينفذ وعده إلا
أن فاجأه القدر بملمة طارئة ، وقد كان هذا الرجاء خير مغلل لهما ، فلما
انصرم من الوقت تسع وثمانون ليلة ولم يبق الا هذه الليلة التي هي آخر ليلة
من ليالي الوعد ، عند ذلك أعدت جميع أمتعتها الخاصة وأدرجتها في

(١) اغلب الظن ان تكون معشوقة (محيرة) لابن عمها وقد شرحنا معنى
المحيرة راجعها في صفحة (٣٧) من هذا الجزء

كيس وشدت وثاقه وبقيت ترقب مجيء خطيبها ، وعندما انتصف الليل وهجع الناس أتاها معشوقها حسب الوعد الموعين بينهما واختطفها من أهلها وأرذفها خلفه على ظهر ذلوله ، فلما وصل أهله اعطاها مهرأ معادلاً لمهرها فيما لو كانت عند أهلها، وبعد ان سلم لها المهر عقد عليها النكاح عقداً شرعياً^(١) . أما اهل الفتاة فانهم لم يفقدوها الا بعد ان ارتفعت الشمس من صباح الغد، والسر في ذلك يعود لأختها التي هي أصغر منها المسماة «ضحية»؛ وضحية هذه هي التي اسرت لها اختها وديدة وأوصتها أن تفعل ما استطاعت أن تفعله من الأمور التي تجعل أهلها في غفلة عنها بحيث لا يتمكنون من ان يفقدوها حتى يسفر الصباح لتكون أبعد مسافة عن عربها - فيما لو سعوا لإدراكها . وقد كانت «ضحية» منفذة لوصية أختها فهي عندما هربت أختها مع غريب قامت «ضحية» وادخلت في قلب فراش اختها شيئاً من الامتعة البيتية وهذا الشيء هو الذي أوهم أهل وديدة بأنها لا تزال نائمة بفراشها إلى أن بزغت الشمس وأهلها يعتقدون ان ابنتهم لا زالت في نومها ، ولكنهم عندما قرب أن يشتد الضحى والفتاة لا زالت في لحافها كما يعتقدون، اضطر والد الفتاة ان ينتزع الغطاء عن فتاته لتقوم بمهمتها البيتية ، وذلك

(١) اعتقد ان مثل هذا النكاح الذي بغير اذن من ولي الفتاة يكون فيه شيء من عدم صحته في بعض المذاهب اما ابو حنيفة فهو لا يرى مانعاً من صحته .

بعد أن صوت لها عدة مرات ليوقظها من مرقدتها هناك نزع الغطاء عنها وعندما نزع الغطاء ولم يجد داخل الفراش إلا أمتعة جوفاء ، عندئذ انتبه والد الفتاة وأهلها وأيقنوا أن الأمر ليس طبيعياً فاقْتَفَوْا أثرها فوجدوا أثر^(١) جارهم السابق غريب كما وجدوا أثر ذلوله النجبية التي أقلت الاثنين فعادوا دون جدوى وبعد مضي وقت غير طويل ، غزا أبو البنت قبيلة شمر هو وثلة من أسرته ، كما أنه في ذات الوقت غزا غريب قبيلة الرولة فصادف ان اصطدمت غزاة شمر الذين يرأسهم غريب بالغزاة الآخرين الذين هم غزاة قبيلة الرولة ، ولا اعلم هل يرأسهم ابو الفتاة أم الرئاسة كانت لغيره . المقصود ان هؤلاء الغزاة هم عشيرته الأقربون ، فلما دنا القوم من القوم تبادلوا الحديث فعلم كل فريق منهم بخصمه ، فحمي آنذاك الوطيس بين الخصمين وكانت غزاة « شمر » أكثر من غزاة « الرولة »^(١) بالعدد والعدة لهذا كانت الغلبة لهم على عدوهم ولكن هذه الغلبة ليست غلبة مطلقة بدون قيد ولا شرط بل ان الرولة لما رأوا قلتهم وكثرة اعدائهم اضطروا ان ينزلوا لعدوهم بعهد يحفظ دماءهم فقط ويتركوا لعدوهم نجائبهم واسلحتهم كما هو العرف الجاري عند العرب ، وذلك عندما تشعر قبيلة

(١) يوجد عند بعض العرب مهارة في معرفة الأثر .

(١) حدثني حاشم اللاحق السمرى الذي هو احد الغزاة الذين كانوا بقيادة غريب واكد لي ان عدد غزاة قبيلة شمر يفوقون غزاة الرولة بثلاث مرات .

بضعفها وقوة خصمها تفعل هكذا . ولقد نزل الرولة على العهد لشمر
واظن انهم عندما نزلوا على العهد ما علموا قطعياً ان رئيس هؤلاء الغزاة
« غريب » الذي اختطف ابنتهم من عهد قريب بدون اختيارهم .

وبحكم سلطان القوة نزل قوم الفتاة نزول المقهور تاركين اسلحتهم
وامتعتهم خلفهم ، وغاية ما هنالك انهم يعتبرون سلامة دمائهم هي
المكسب . وفي الفترة التي تسامت اسلحتهم منهم وبقوا عزلاً ، هناك ابرز
غريب نفسه وراح يسلم عليهم واحداً واحداً ، فلم يروا عليهم مصيبة اكبر
من ذلك . اما هو فلم تمر عليه ساعة اسعد من هذه الساعة ، وقد رأى
« غريب » انه من كمال انتصاره ان يحسن ويتفضل عليهم ويظهر لهم من
الولاء والمحبة ما يخالف الشيء الذي يضره له ، وذلك انه جمع قومه
وطلبهم ان يهب كل فرد منهم ما ناله من الغنيمة من نجائبهم واسلحتهم
وامتعتهم ، وقد كانت مطالبته لقومه مبنية على شيء من العفة والإنصاف ،
وبشكل يجعلهم تحت امر واقع ، فقد قال لهم : « يا قومي ان هؤلاء القوم
الذين اصبحوا اسرى بأيدينا كان لهم علي يد بيضاء سابقاً عندما كنت
غريباً عندهم ومستجيراً بحماهم ، كما انه اصبح الآن بيني وبينهم رحم ،
وشاء الله ان تأتي ظروف تجعلني أسى اليهم بنظرهم وقد كنت اسأل الله
ان يتيح لي الفرصة التي تمكنني من فعل الجليل معهم وبذل الإحسان
والمعروف لهم لعلي احوثر ما يتوهمونه من الخطيئة التي اقترفتها ، والآن

قد يسر الله لي السبيل الذي يجعلني افعل معهم ما استطعت من الخير .
فأجابه رفقاًؤه وقالوا : « ماذا تقصد ان تفعله الآن ؟ » قال : اريد
ان اشترى منكم جميع ما غنتموه من هؤلاء الأسرى على ان يمهني كل
فرد منكم الثمن الذي يستحقه الى ان نعود سوياً الى اهلنا . وقد كان
جواب قومه مفعماً بالمروءة والكرم حيث قالوا : « بل نهب جميع غنائمنا
لك وانت تفعل بها ما تشاء » وكان هذا جوابهم اجمعين ، عدا فرد منهم فإنه
أبى ان ييب سهمه ، وكان نصيبه ذلولاً من انجب رواحل المأسورين ،
وهذا الشخص ليس من عشيرة غريب الأقربين كبقية قومه ولكن غريباً
ورفقاًؤه استطاعوا ان يؤثروا عليه بشتى الأسباب حتى اقنعوه وترك
الذلول الغريب ، وبعد ان جمع غريب كل ما اغتنمه هو وقومه من اصهاره ،
عند ذلك ساهم لهم وطلب منهم ان يصفحوا له عما سلف . وقد صفحوا له
عن طيب نفس وانشراح صدر ، وعاد كل من الفريقين الى اهله . هذا وقد
عثرت على بيتين لغريب يتغزل بهما بمعشوقته وديدة التي اصبحت الآن
أم اولاده ، والبيتان يفهم من معناهما ان الشاعر قالهما في أيام عشقه الأول
لوديدة أي قبل ان يتمكن من اختطافها من اهلها ، لهذا تراه يقول :

(١) « هَلَا هَلَا فَيْكَ يَا ضَحِيَّةُ

يَا لَيْتَ أُحْيِيكَ مِنْ حَيِّي^(١) »

(١) حيي : اي ليتها تكون من اسرتي .

يحيي ويرحب ترحيباً مكرراً لـ «ضحية» وضحية هي اخت
معشوقته الصغرى، فهو يؤكّد ترحيبه ويكرر سلامه عليها تقديراً لأختها
وديدة، ويقول أتمنى أن اختك وديدة من اسرتي حتى يكون زواجي
منها شيئاً متيسراً .

(٢) وَدِّي وَدِيدَهُ إِشْلَاقِيَّة (١)

وَ دِّي وَلَا الْوَدَّ مِثْبِي (٢)

في هذا البيت الثاني يشرح لنا بوضوح معنى البيت الذي قبله
فيقول : أتمنى أن ودیده تكون من عصبي القريبة، ولكن يقول : ما كل
ما يتمناه الإنسان بهذه الحياة الفانية يمكنه الوصول إليه، وهذا البيت
لغريب فيه من المعنى ما هو منسجم مع قول أبي الطيب المتني :
ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

(١) شلاقية ، يقصد فخذ قبيلته الأدنى المدعو بالشلقان .

(٢) متهيي ، اي متيسر .
القصة مشهورة .

الحب لا يعقل ولا يرسم

حادثة جذيرة ان تبتري انتباه القارىء
وتذكرنا بالعشق العربي البريء النزيه السليم الصادق

ولئن كان فيها من الروعة والدهشة ما يثير اعجاب القارىء في بدايتها فانها تخلق في نفس ذي الشعور الرقيق والاحساس الرهيف والعاطفة اللينة أثراً عميقاً في نهايتها .

ثمّة فتاة من قبيلة شمر تدعى (بالعفري)^(١) ابنة (مغير بن زويل) حسب ما نعتها لي راوي الحادثة^(٢) وشخصها التشخيص الشامل لجمالها وحيويتها واعتدال قوامها الفاتن وجمال عينيها الساحرتين ، جعلني اتصور بأن الشاعر العربي كأنه ينعتها حينما قال :

« حجازية العينين نجدية الحشا عراقية الأطراف شامية الدم »
ان هذا البيت جدير ان يكون منسجماً وملائماً لها اكمل الملاءمة .
هكذا كانت صاحبة الترجمة . فكان من المنتظر ان يكون هذا الجمال الفاتن المغربي مدعاة لتنافس الشباب عليها ومحطاً لأنظارهم لا سيما أبناء

(١) العفري هو اسم محرف من اسماء الغزال ، فالذكر يقال له الأغفر ، والأنثى يقال لها العفراء .

(٢) راوي القصة هو حاشم اللاحقي من نفس قبيلة الفتاة .

عما الذين هم احق بنكاحها . ولكنه حسب العرف المتبع لا يمكن ان يخطبها احد ما دام يوجد لها ابن عم شقيق ، فان لم يكن فالأقرب من أبناء عمها .

ولن تستطيع الزواج من اجنبي إلا باذن منهم . وان زوجها ابوها دون رضاهم يصبح مهدداً منهم بالعقاب لا محالة .

وقد كان للفتاة الفاتنة ابنا عم وهما اقرب ما يكون لها ، فهي بحكم العادات ، زوجة لأحدهما لا محالة وهما « فهد السراي بن زويل » وأخوه « محمد » ، كل فرد منها شجاع ورئيس لفخذه وعلى جانب كبير من جمال الرجال . وهما في شرح الشباب آنذاك ، وقد توفرت فيهما جميع الشروط التي تريدها الفتاة العربية من بعلا . ولم يخطر ببال أحدهما او ببال احد من عربيها ان ترفض (العفري) القران بواحد منها ، ولئن كان من المعقول ان ترفض القران بمحمد فانه ليس من المعقول ابدأ ان لا تقبل (فهداً) لها بعلاً ، إذ أن فهداً مثال في الرجولة والشهامة والمظهر الحسن ايضاً الذي كثيراً ما يغري الفتيات ، ولا سيما المتحضرات منهن ، أما الأعرابية فقلمت تعشق الرجل لمظهره او لماله وانما لمركزه الاجتماعي بين قومه .

وبالرغم من المزايا المتوفرة بفهد اولاً وبأخيه ثانياً فإن (العفري) لم تقبلهما ، ومن الأصول المتبعة ان ابن العم ، اذا رفضت ابنة عمه الزواج

منه ، فإنه لا يرغمها على نفسه ، خاصة اذا كان ابن العم ذا شمم وأنفة ، فإنه لا يقبل النكاح من فتاة تعلن رأيها بصراحة بعدم قبولها إياه ، ولكن حسب التقاليد ، يكون عندهم لابن العم الحق ألا تتزوج هذه الفتاة إلا برضاه ، وابن العم اذا اشتبه أن ابنة عمه تعشق شخصاً آخر هناك له أن يصرح بأن لها الحق أن تتزوج بمن تشاء إلا فلاناً ، أي الشخص المتهم بغرامها به ، وذلك نكايه بها .

وقد كان (فهد) وأخوه من ذوى الشهامة حيث تركا ابنة عمهما بدون أن يجبرها احد منهما على الزواج ، ولكن الذي اخلف ظنون ولدي عمها بل عشيرتها جمعاء انه لا يعلم ذكر ولا انثى ان لها خطيباً تهواه ، فقضت الفتاة مدة وهي على هذه الحالة ، وكل فتى معجب بفتوته يحاول ان تمنحه لحظة من اللحظات العابرة ، عله يحدث نفسه بخطبتها ، ولكن كانت محاولات فتیان عربها ضرباً من العبث .

حارت القبيلة بأسرها في أمر الفتاة ، ولما كانت الأم هي اقرب الناس الى ابنتها ، وهي اجدر من تفشي اليها سرها ومكنون فؤادها ، فقد ذهبت الام تستنطق الفتاة تارة ، وتارة تسبر غورها لتنظر من هو الذي تميل عواطفها وشعورها نحوه من الفتیان ، لقد كانت الأم شديدة الحرص على أن تعرف خطيب ابنتها ، ولكن أعيائها الأمر بعد التعب الشديد .

ظلت العفري ثماني سنوات على هذه الحال . وهناك شاعت شائعة خفية تفيد أن العفري نظرت تتحدث مع شاب يدعى « هطيل »^(١) بن مشاري بن زويل ، والذي شاهد هذا المنظر هو (مرعيد) أخو هطيل . وقبل كل شيء يجب أن نسأل عن هطيل من الناحية الاجتماعية والمادية ومن ناحية المظهر ايضاً ، اما الناحية الاجتماعية والمادية فهو شاب خامل الذكر فقير الحال لا يملك من المال الا ما يحصل عليه من عمه الذي يسرح يابله فيقبض أجراً زهيداً مقابل حراسته لها ، وهي أجرة سنوية . هذا من الناحية الاجتماعية والمادية ، أما من ناحية خلقته فحسبك ما روي لي (حاشم) أنه فتى قصير القامة ، دمىم الخلقه قبيح السحنة ، مجعد الوجه . ولهذا السبب لم يخطر ببال أخيه (مرعيد) أن حديثه مع ملكة جمال عربها وراءه ما وراءه من العشق والغرام ، هذا لا يمكن أن يتصوره مرعيد لأنه يعلم أن أخاه أحقر من أن تقبله « العفري » بعلا لها فهي ترفض أبطال قبيلتها وصناديدهم وأثرياءهم ، فكيف تقبل هطيل الصعالموك القبيح ؟ ولكن هذا لا يمنع مرعيداً أن يسأل أخاه عن أسباب وقوفه مع (العفري) سأل (مرعيد) أخاه فلم يجبه فآلح عليه ثانية فلم يجب بحرف واحد

(١) هطيل من أبناء عمها البعدين وليس له من الحق ما يخوله النكاح من الفتاه ما لأبني عمها الاقربين (فهد ، ومحمد) وذلك حسب قوانينهم المتبعة ،

وانما دموع عينه كانت أسرع اجابة من حديثه وأفصح نطقاً من لسانه ،
حاول الفتى أن يخفي عبراته ولكن عينيه خانتاه وفضحتا أمره .
انصرف أخوه عنه وهو يسخر من عقلية أخيه الذي يعشق فتاة رفضت
الزواج من خيرة شباب عربها كلهم

أما الفتى هطيل فقد أدرك أن أخاه سينتقده ويستخف به ولكنه
كان واثقاً بأن الفتاة زاهدة في كل بني البشر إلا فيه .
لهذا اضطر هطيل الى أن يشرح لأخيه حقيقة الأمر ، ويؤكد له أن
« العفري » لا تريد من بني الانسان سواء ويوضح له أن بينه وبين الفتاة
حبة راسخة منذ نعومة اظفارهما ، وانها قد اعطته عهداً ألا تقبل بعلاً في
الدنيا سواء ، كما انه اعطاها عهداً من نوعه . وفعلاً ابلغ اخاه هذا الأمر
وشرحه له بوضوح .

استغرب « مرعيد » هذا الخبر الذي هو أشبه ما يكون بالخيال
والحلم ، غير أن أخاه يحدثه بلهجة الصدوق الواثق من نفسه . ولهجة
الصدق لها طابع خاص تعرف به ولو كان هذا الصدق فيه شيء
من الغرابة .

ذهب « مرعيد » الى ابني عم الفتاة الأذنين وطلبها منها لأخيه
فأجابا بالموافقة دون أن يبديا أدنى تردد لاعتقادهما ان ابنة عمها التي رفضت
النكاح منها ومن يضارعهما ليس من المعقول أن تقبل « بهطيل » ذلك الفتى

الحقير في خلقته ، الفقير بماله ، الحامل الذكر في مجتمعه ، هذا ليس من المعقول من ناحية ، ومن ناحية اخرى لا يريان مانعاً من نكاحها من مثل هطيل فيما اذا صح المستحيل ورضيت « العفري » بهطيل قريناً لها . فمثل هطيل لا يجعلهما يحسدانه عليها ، لا اعتقادهما انه ليس ممن يحسد على أمر من أمور الحياة ، لهذا وهباها له عن طيب نفس فلم يبق الآن غير قبول الفتاة .

ذهبت الأم الى الفتاة لتأخذ رأيها بهطيل فسألتها الأم وهي مستبعدة كل الاستبعاد قبول ابنتها قائلة : أي بنيتي لقد خطبك مرعيد لأخيه هطيل وقد رضي ابنا عمك بذلك وسمحا فهل تقبلينه ؟؟ تكلمها الأم بهذه الكلمات وهي تضحك ضحك الساخر المتعجب .

الفتاة : ولن أقبل في الدنيا بعلاً سواه .

الأم : ويحك أتقبلين هطيلاً الفتى الصعلوك الدميم الحامل وترفضين ابني عمك فهداً ومحمداً اللذين هما أجمل منه خلقة وأنبه صيتاً وأكثر مالاً ؟

الفتاة : ان القضية قضية مودة يضعها الله في القلب كيف يشاء وليست هي باختيار الأم والأب ولا باختيارى وإنما هي قوة خارقة فوق طاقة العقل وحرية الاختيار .

الأم : هذا شيء يا بنيتي لا يخفى على وإنما ابدي رأيي لك بأن تترشي

لعل نفسك تنصرف عنه الى من هو أوسم منه خلقة وأنبه ذكراً وأوفر مـالاً ، لأن « هطيلاً » هذا لا اعتقد ان بين رجال العشيرة اقبح منه خلقة ولا أفرغ منه يدأ ولا اخمل منه ذكراً .

الفتاة : اسمحي لي يا والدتي ان اجيبك على كل جملة من حديثك هذا .

الأم : تفضلي وهاتي ما عندك .

الفتاة : « أما قولك اصبري وتأتي لعل نفسك تنصرف عنه إلى من هو أوسم منه خلقة وأنبه ذكراً وأوفر مـالاً الخ .. فإني أؤكد لك أنني منذ بلغت الرابعة عشر من العمر حتى الآن حيث بلغت اثنين وعشرين عاماً ومودة « هطيل » لا تزال تنمو في نفسي وتغرس جذورها في مهجتي ولا زال عقلي من ذلك العهد يجاهد نفسي على أن أقلع عن مودته وانصرف إلى من هو أوسم منه وأثرى وأعلى شأنًا كما تشيرين يا أم ، ولكن هيهات لقد أعياني ذلك . إذ أن الهوى له سلطان فوق نوااميس الطبيعة فهو لا يعقل ولا يرحم هذا من ناحية ^(١) ، والناحية الاخرى يا والدتي يجب الا تجهلي أن الفتاة الحرة لاتنخدع بالفتى بمظهره وترضاه زوجاً من أجل وسامته وكثرة ماله

(١) منطلق هذه الفتاة ينطبق وقول الشاعر البارودي .

وما الحب الا حاكم غير عادل	اذا رام أمراً لم يجد من يصدّه
له من لفيف الفيد جيش ملاحه	تغير على مثنى الضمائر جنده

إذ ان الوسامة والجمال للمرأة لا للرجل . اما الرجل فجعله عمله . واما وفرة المال فهذا عارض ربما يذهب عند ادنى حادثة من حوادث الدهر المفاجئة .

الأم : ولم اجبتني على بعض جملي وتجاهلت الاجابة على ناحية رئيسية من النواحي التي تتوق إليها نفسية الفتاة العربية وهي ظاهرة من الظواهر الايجابية ولا اعلم هل تجهلونها ام انك اهملت الاجابة عنها لعلمك ان معشوقك عار منها ؟

الفتاة : ما هي هذه الظاهرة التي تشيرين اليها؟

الأم : اعني نباهة الصيت وعلو الشأن في المجتمع فإن هطिला محروم منها ولا وزن له بين قومه وليس له ماض جميل يعرف ويقدر به .
الفتاة : يجب ان تعلمي يا والدتي ان هطिला لا زال فتى والمستقبل فسيح امامه ، ولا يمكن ان نحكم عليه بشيء من الأمور الحيوية التي تبرزها اخلاق الرجال إلا بعد ان تفاجئه الحوادث والملمات ، فاذا خاض معركة او جابته مامة ولم تبرز رجولته وكفاءته عند ذلك يحق لك ان تلوميني ان رغبته لي زوجاً ، وما دمت ترين ان مواهبه كمنة ولم تأت الحادثة التي تكشف عن مواهبه الغطاء فليس لك حق ان تذميه الا بعد التجربة^(١) .

(١) كأن الفتاة تقصد ما اشار اليه المعري بقوله :

وقد ينجل الانسان في عنفوانه وينبه من بعد النهى فيسود

الام : بارك الله لك فيه ، والأيام بيننا ، وسننتظر هطيلا عسى ان يكون مستقبله أحسن من حاضره .

الفتاة : هذا ما اظنه واعتقده ولو لا أمني الطيب فيه لما رضىته لنفسي قريناً

بعد ذلك ذهبت الأم الى ابني عم الفتاة ، واخبرتهما بما تم بينها وبين ابنتها من الكلام ، وما انتهى الأمر اليه ، وفي مساء الغد عقد نكاح هطيل على معشوقته العفري وتم قرانهما في مساء ١٥ رمضان عام ١٣٣٣ هـ ومضت ليالي رمضان الباقية من الشهر ، والزوجان في اكمل ما يكون من السعادة والزهو والسرور ، ولم يبق في نفس هطيل وقرينته العفري من الأمنيات إلا شيء واحد هو أن يقدر الله حادثة عظيمة حتى يتمكن هطيل من ابراز مواهبه المكبوتة لكي تكون له مكانة مرموقة في مجتمعه . ولتقنع به حليلته القناعة الكاملة .

وفي اول يوم من صباح عيد الفطر اتاحت له الفرصة المناسبة التي يحلم الزوجان بها ، وذلك أن غزاة من قبيلة مطير قد صبت غارتها على عرب الزوجين برئاسة أحد رؤساء القبيلة المدعو (مدباج أبو شوربات) ، وقد كانت المعركة في موضع يدعى « الرديفة » . لقد سرّ هطيل وقرينته بهؤلاء الغزاة الذين هجموا على عربيه في عقر بيوتهم ، وسيكون القتال الآن امام

النساء والرجال ، وهذا هو أقصى أمنية الزوجين ، وخاصة الفتى هطيل الذي تهلل وجهه طرباً وسروراً . لماذا ؟؟ ليقاتل قتال الأبطال وليبدي شجاعة خارقة كي يحو عن نفسه آثار الخول والانزواء اللذين مصدرهما الجبن ، لأنه يرى رجال قبيلته ونساءها يغمزونه ويلمزونه به بل ويزدرونه ويحتقرونه ويرون انه ليس بأهل ان تعشقه فتاة تعتبر من أنبل فتيات القبيلة لا يجملها الساحر الفاتن فحسب بل برزانتها وعفتها وعراقة حسبها واصالة نسبها .

ان احساس الفتى وشعوره بهذا النقص ، خلق في نفسه باعثاً قوياً نحو الصموح وذبوع الصيت ليكون انساناً بارز الشخصية في الحياة أو يموت فيريح نفسه من استهتار رجال قبيلته^(١) به ، والشيء الذي هو أدهى عنده وأمر ، ذلك انه يعتقد جازماً أن قرينته العفري التي عشقته وطمحت له بالأمس سوف تعزف نفسها عنه فيما اذا خاض المعركة ولم يظهر بسمالة خارقة ، لقد وثق هطيل بأن معشوقته ستلشز عنه وتستبدل به من هو أنجب منه وانبل من فتیان عشيرتها ان لم يحقق ظنّها به .

(١) كأني بنفسه الطامحة تحدّثه بقول البارودي :

على مَ يعيش المرء في الدهر خاملاً أيفرح في الدنيا بيوم بعده؟
ومن ذلّ خوف الموت كانت حياته أضر عليه من حمام يؤده

كل هذه العوامل الحية خلقت في نفس الفتى دافعاً جعله يقرر مصيره
الذي اشار اليه أبو الطيب المتنبي بقوله :

إذا لم تجد ما يبتز الفقر جالساً فقم واطلب الشيء الذي يبتز العمر
هما خلتان ثروة أو منية لعلك ان تبقي بواحدة ذكراً

وعندما انهالت الغارة على أهل الفتى ، اختطف بندقيته مسرعاً ثم
نادى قرينته قائلاً : « اليوم يا ابنة العم سوف ترين من ابن عمك العمل
الذي سيجعلك مرفوعة الرأس ، وناصعة الجبين بين رجال عشيرتك
ونسائها ، هذا إن أسعدني الجد ونجوت من عاقبة هذه المعركة التي
سأكون بطلها الفذ أو ألاقى حتفي فيها » .

كأنه يقصد ما أشار إليه علي بن مقرب الأحسائي :

فإما حياة لا تُذمُّ ، حميدة يُحَدِّثُ عنها من أغار وأنجدا
أنال المني فيها ، وإلا منية تريح فؤاداً أج^(١) من علة الصدا

اغرورقت عينا الفتاة ثم اجابته بهذه الجملة ودمعها كالسيل المنهمر : « ان هذا
هو ما اعتقده فيك ولولا أمني الوطيد بفتوتك وايماني الراسخ برجولتك
وشجاعتك لما اخترتك على فتیان القبيلة بأسرها » . ثم دنا منها الفتى بعد

(١) أج : مأخوذ من أجيح النار ، على ما ورد في شرح الديوان .

هذا الحديث فقبلها فضمته إلى صدرها بشغف فكادت أن تتحطم
ضلوعها من شدة دوافع المودة والحب ، ثم قالت له : « ارجو ان لا يكون
هذا آخر العهد بك يا قرة العين » فأجابها الفتى : « لا يهمني ان تكون هذه
الساعة هي آخر العهد أو لا تكون ، وإنما الذي يهمني هو أن نغراً قبلته
لا يقبله ذكر من بعدي » فأجابته الفتاة : وهي تكفكف الدمع قائلة :
« ثق واطمئن ان حياتي مرهونة بحياتك ولئن قدر الله شيئاً فلن أحييا بالدنيا
بعدك ساعة واحدة » الفتى : هذا هو ما أظنه بك واعتقد .

ثم انطلق الفتى نحو العدو وقرينته على اثره تزغرد له وكأنها تسقيه
كأساً من الخمر فازداد اندفاعاً وشجاعة من سماعه لصوت محبوبته المعسول ،
وما ان حمي الوطيس واشتدت الهيجا ، إلا وهطيل من أبطال المعركة
المغاوير المهاجمين ، بل كان في طليعة المناضلين والمحسمين لقومه فاتجهت
بنادق العدو نحوه ، فأصيب بسهم خرق قلبه ، فكان أول قتيل من قومه
وكان مصرعه رحمه الله في صباح عيد الفطر عام ١٣٣٣ هـ^(١) وكان بالقرب من

(١) هذه الحادثة الوحيدة التي استطعت ان اعرف تاريخ اليوم الذي وقعت فيه
والسبب ان راوي القصة الذي هو حاشم اللاحقي اكدي انها حدثت في نفس العام
الذي وقعت فيه معركة جراب المشهور لدينا تاريخها كما انه اكاد ان زواجهما كان
في الخامس عشر من شهر رمضان وكان مصرع الزوج وانتحار الفتاة في صباح عيد
الفطر ولهذا كان الأمر علي متيسراً بسبب علمي بتاريخ معركة جراب الواقعة في
٧ ربيع الاول سنة ١٣٣٣ هـ .

منازل عربيه ، وحالما صرع أخته قرينته « العفري » فطرحت نفسها على
جثمانه وشبكت يديهما من وراء ظهره حيث أصيبت بذهول افقد هار شدها ،
وبقي الزوجان متشابكين كالجسد الواحد .

هذا والوطيس حام بين الغازي والمغزو ، وقومهما في شغل شاغل
عنهما . وبعد ان انتهت المعركة عاد رجال القبيلة فاطلقوا يدي الفتاة من
بعليها المقتول ، وحفروا له قبراً ليواروه فيه ، هناك هجمت الفتاة على حفرة
القبر وناشدتهم بالله ان يفسحوا حفرة القبر ليواروها فيه مع قرينها المقتول ،
فلم تجد من يجيب لها النداء فأكدت لهم بأنها ميتة لا محالة وانها لن تبقى
ساعة بعده .

كل هذا الحديث من الفتاة كان كلهذيان بنظر رجال الحي ونسائه ،
فلما رأت ان لا يجيب لندائها ، عند ذلك خاطبتهم ثانية قائلة: اذن احفروا
قبراً لي بجواره وليكن قريباً منه جنباً لجنب . فلم تجد ايضاً مجيباً ولا
سامعاً فتركت القوم يعتنون بقبر المقتول وذهبت الى بيت أمها تنقب عن
« سم » ^(١) موضوع في قلب صرة تعلم جيداً مكانه الذي وضع فيه فلما
وجدته ابتلعه ، وحالما جرعه تغلغل في جسمها ، فشعر عربها بأمرها ،

(١) لا يخلو بيت أي عربي من البادية من السم لأن فيه علاجاً جيداً لمرض
الجرب الذي يصيب الابل دائماً .

وقد كان العرب يستعملون علاجاً عربياً للسم وهو صوف يسلم ويسقى المسموم ماءه ، وحالما يشرب المسموم هذا الماء يخرج من جوفه قيء فيهبون المرض بخروج هذا القيء الذي يكون السم خارجاً به .

يقول لي راوي الحادثة حاشم اللاحقي الذي هو من العشيرة نفسها والمتصل بأهل الفتاة اتصالاً مباشراً : انه بعد مضي يومين من وقوع الحادثة أتى عشيرته فوجدهم يحزن من أثرها المفجع ، وأكد لي حاشم ان الفتاة عندما أراد اهلها ان يسقوها ماء الصوف كعلاج لها ، أبت ورفضت ان تشربه وقد وضعت يدها على فيها وعضت على اسنانها تحاول ألا تدخل قطرة من العلاج الى جوفها .

كانت تفعل ذلك وهي في غرغرة الموت حتى توفاهها الله ، وفي اللحظة التي انتهت من مواراة قبر قرينها فاضت روحها فحفر قبرها بجانبه ودفنت بجواره فوراً . كما وعدت قومها وأكدت لهم بأن هذا هو مصيرها النهائي . كانت هذه الحادثة راسخاً اصلها في ذهني من سنين عديدة ولكنني نسيت تفاصيلها وفروعها ، ومن عاداتي التي سرت عليها في كتابي هذه ألا أضع قصة حتى اكون متقناً لها من الناحية التاريخية ، ومن ناحية صحتها التي هي الاساس عندي ، وكذلك من ناحية تفاصيلها وكنت اذكر أن خير من يفيدني عن هذه القصة بصورة واضحة شخص من قبيلة شمر ومن

الفخذ الموالي لأسرة الفتاة ، وهو آنف الذكر حاشم اللاحقي ^(١) . وفي تاريخ ١٨ صفر ١٣٧٥ هـ ذهبت الى بيروت على سبيل المصادفة فوجدت « مِشَلَّ » التمياط ، ^(٢) مريضاً في مستشفى الجامعة الاميركية فسألته عن الحادثة فلم أجد عنده لها تفاصيل كافية فسألته عن حاشم أين هو ؟ لعلمي أنه لملم بالقصة فأفادني ان الرجل في بيروت قدم للعلاج من مدة قريبة فقلت في نفسي ، انها مناسبة ازورها الشخص وأعوده فان وجدته معافى ووجدت لديه استعداداً للبحث بحثت معه والا اكتفيت بالعيادة وزرته فيما بعد في فرصة تكون أنسب من هذه الفرصة ، فذهبت اليه فوجدته قد شفاه الله نسيباً وتبادلنا الحديث حتى وصل البحث الى الغاية التي استهدفها ، فشرح لي القصة كما أوردتها آنفاً ووجدت نفسي لم أزد عن جوهرها الأساسي ولم انقص شيئاً عن أصلها ، اللهم إلا أن البحوث التي دارت بين الفتاة وامها عند الخطبة ، وكذلك البحث النهائي بين الزوجين عندما كان الفتى عازماً على لقائه

(١) شخص صدوق وثقة وميزته التي يبرز بها هي المهارة والخبرة بمعرفة ودلالة الصحراء ، فهو خير بهذه الناحية خبرة قل أن يضارعه فيها أحد . وقد استعمله الملك المغفور له عبد العزيز عندما افتتح طريقاً للسيارات من جهة نجد الشمالية وهو الآن من خواص الأمير محمد بن عبد العزيز ، وحالياً أصيب بشلل خفيف ألم به وهو على وشك أن يبرأ منه . وحتى كتابة هذه الأحرف وهو مقيم في بيروت من أجل العلاج .

(٢) مشل رئيس فخذ يدعى (التومان) من قبيلة شمر .

للعدو باقدام وبطولة أقول : ربما شرحت معنى حديثها الشعبي الذي دار بينها كما أني عادة اشرح معنى الشعر الشعبي وذلك بدون أن اخرج عن جوهر المعنى الأساسي .

قلب فارس في جسد فتاة

قصة (طحّة ابنة ابن عزيز ^(١)) وقعت على وجه التقريب بين عامي ١٣٠٠ - ١٣٠٥

كان الاجدر بهذه القصة أن تكون بعد قصة كنعان الطيار مع بنت عدوان بن طوالة مباشرة . ليكون ذلك أنسب لسياق القصة من ناحية تسلسلها من الوجهة التاريخية وهذا هو السبيل الذي انتهجته في كتابي هذا وحيث أن قصتنا هذه لم استفسر عن تفاصيلها إلا مؤخراً لهذا السبب جاءت اخيراً .

لقد كنت اعرف كنه القصة من حيث صحتها وانما نسيت اسم زوجها ، لهذا ما استسغت أن أضعها في كتابي حتى اكون ملماً بها من شتى الوجوه ، وقد سألت غير واحد ممن أظن أن له علماً في القصة ، ولكنني لم اوفق رغم ما بذلته من الجهد ، وفي تاريخ ٢٨ - ٦ - ١٣٧٥ سنحت لي فرصة الاتصال

(١) ابن عزيز شيخ عشيرة البعيج في العراق

بالأخ « عبد الله المشاري ابن سعدون »^(١) حيث افادني مفصلاً بصفته ممن يعرف القصة بحكم صلته المباشرة بأصحابها ، فجاءت روايته متممة لمعلوماتي السابقة . التي أوافي بها القاري بما يلي :

كان ابن عزيز رجلاً لم يهبه الله ذرية وفي منتصف حياته رزق بنتاً فحدثته نفسه أن يربّيها تربية خشنة عليها تقوم عنده بالعبء الذي يقوم به الفتى ، وعلى أساس هذا التفكير ذهب يتولى العناية بها والتوجيه بنفسه فعلمها ركوب الخيل والرماية وعموم الأمور الحيوية التي هي من اختصاص الرجل الفارس ، ولم تبلغ الفتاة الحلم حتى كان لديها من الاستعداد ما يؤهلها لأي عمل يقوم به أشجع الفتيان وأبسلهم ، ولم يقف بوالدها الحد أن يوجهها توجيهاً خشناً سلبياً ، بل رأى أن يمتحن فتاته بالأعمال الحربية ، فغزت بمعيته مرة فأبدت بطولة خارقة ، وأخيراً بلغت الفتاة من البطولة حداً جعل الرعب يدخل قلوب الأبطال المعادين لأبيها فسار بخبر بطولتها الركبان وبعد أن كان اسمها « طخة » أصبحت تدعى طخاًخاً^(١) ولا زالت هيبة « طخاخ » في قلوب الفرسان تنمو وشهرته تزداد إلى أن بلغت الذروة

(١) عبد الله من السعدون الذين هم رؤساء قبيلة المنتفق في العراق وهو الآن يقيم في مدينة الرياض وكان اجتماعي به في مدينة دمشق .
(١) أي « ضراب » .

القصوى واعتبر طخاخ من افذاذ الفرسان البارزين .
وشاء الله ان يتوفي والد طخاخ ويتولى من بعده رئاسة عشيرته ،
ويكون له من الوقار وقوة الشخصية وهيبة الأعداء لجانبه
ما يفوق والده .

لقد طالت الأيام على صاحب الترجمة وهو على هذه الحالة .
وآخر الأمر فرغ صبر طخاخ وظل في حيرة من نفسه التي ينازعها
عاملان متباينان ، عامل اكتسائي وعامل طبيعي . فالأول يحدوه إلى ان
يبقى على ما هو عليه باسم الفتى طخاخ الذي اربى الفرسان ببطولته
وساد العشيرة بقوة شخصيته ، ويكتفي من الدنيا بما تتمتع به نفسه من
لذات المجد وذبوع الصيت ومظهر الفارس الملهوب ومحبة الزعامة والنفوذ ،
وهذه الأمور الحيوية لا شك أن فيها لذة للنفس التي تذوقت طعم المجد ،
ولكن طخاخاً يرى أنه رغم ما في هذه المعاني المجيدة من لذة ممتعة ، فإنها
لذة مجازية لأنه لا يصل إليها إلا بشيء من التكلف الذي يخالف ما فطرت
عليه نفسه من سجية أساسية راسخة في جوهره الطبيعي ، وعلى هذا
الأساس سينقاد مرغماً لقول المتنبي :

وأسرع مفعول فعلت تغيراً تكلف شيء في طباعك ضده
إذن فهو مضطر أن يلبي صوت العامل الثاني الذي يناديه ويأمره

بالتمتع باللذة التي هي شيء طبيعي بالنسبة اليه ، بل اليها الآن ، لأنها ستعود
منقادة لهذا الأمر الواقعي ، وقد قررت ألا تجابه الحقيقة بل ترجع الى
اساسها الطبيعي ، ذلك أن دافع لذة الغريزة الجنسية كان اقوى من الدافع
الأسبق ، فالأول فيه تكلف وعناء ، أما الأخير فهو شيء طبيعي
لا تكلف فيه .

وعلى هذا الاعتبار اصبح طخاخ مضطراً ليعود الى اساسه الأسبق
فتكون طخة ^(١) الفتاة ، فاذا عادت الى أنوثتها ملزمة على ان تنقب عن
زوج ينكحها ، ولكنها لن ترضى أن يتزوجها بعل إلا بعد أن تؤمن
ببطولته ، ولا يكفيها إيمان السماع به والشهرة ، بل يجب أن ترى ما يديه
من بطولة رؤية العين ، ولا يهمها سواء كان هذا الفارس من الأعداء
أم الأصدقاء ؟

هذا وقد شاع هذا الخبر عند الفرسان فحرص كل فارس من فرسان
أعدائها وأصدقائها أن يبدي امامها بطولة خارقة لعلها تهواه وترضاه لها
بعلاً . ومصادفة وقع بين عشيرتها وبين قوم يقال لهم (القشعم ^(٢)) معركة
دامية ، فكانت النتيجة ان تصادمت صاحبة الترجمة هي وفارس من أبطال

(١) كلمة (طَخَّ) في اللغة الشعبية هي بمعنى (ضرب) فطخَّاخ بمعنى ضراب .

(٢) القشعم فخذ من الجعفر المتفرع من قبيلة شمر .

المعركة يدعى (جاسر بن قشعم) ولا أعلم أيها الذي استولى على صاحبه^(١)
والمقصود أنها اعجبت بالشجاعة التي ابداهها جاسر ، وعلى أثر هذه البطولة
التي رأتها منه ، طاب لها ان ينكحها جاسر فخطبها او هي خطبته ، وتم
القران بينهما ، ورجعت طخة الى ما خلقت له وانجبت من جاسر بنين منهم
عقل الذي لا زال موجوداً في الرياض وهو يناهز الستين من العمر .
وسمعت ان احد ابنائها غضبت عليه عندما كان صغيراً فضربتة
ضربة اودت بحياته . فكأنها متأثرة بنزعتها الأساسية ، لهذا تضاعف عندها
عطف الأم وحنانها على ابنائها .

(١) من مدة عشر سنوات سبق لي ان اجتمعت مع عقل بن قشعم الذي هو
ابن للزوجين . وأغلب ظني انه قال ان والدته هي التي طرحت والده . اما الرواية
التي تلقيتها من ابن سعدون تفيد ان كلا منها طرح صاحبه ارضاً .

رجاء .. وشكر

انتهت طباعة الجزء الاول الأول في العاشر من شهر رجب عام ١٣٧٥ هـ
٢٢ شباط عام ١٩٥٦ م ، وانتهى طبعه للمرة الثانية في شهر ربيع الثاني سنة
١٣٨٣ (ايلول سنة ١٩٦٣ م) ويليه الجزء الثاني الذي سيصدر قريباً
بحول الله ، وهو يحتوي على فصول لا تقل فائدتها عما في هذا الجزء منها :
حماية الجار و اكرامه ، والوفاء مع الرفيق ، و اكرام الضيف ، واصطناع
المعروف والمكافأة عليه ، والشجاعة العقلية والأدبية والحربية ، والصبر
على حوادث الدهر ، وبر الوالدين ، وتنبؤات العقلاء . وربما نختتم بقيته
بفصل يحتوي على حوادث متنوعة .

هذا وإني اكرر ثانية ما جاء في المقدمة من الجملة التي رجوت بها
القارئ الكريم الصفح عما يبدو من الغلطات المطبعية او الأخرى التي
سبق القلم بها وفاتني استدراكه .

ولا يفوتني أن أشير — شاكراً ومُقدِّراً — إلى ما قابل به الأدباء

والباحثون ، وجمهور القراء — الجزء الأول عند صدوره من عنابة
واهتمام وتقدير، بدت آثار ذلك فيما نشره كثير منهم في الصحف من تقرّيط؛
ونقد نزيه، وتوجيه ينيء عن تقدير صادق، ولقد تمنّيتُ أن يكون المجال
مُتّسعاً لتسجيل كل ذلك، إلا أنني وإن فاتني هذا ، لا يفوتني أن اسجل
هذه الكلمة التي اعتبرها موجهة الى كل واحد من أوّلك ، معبرة عن عميق
شكري ، واعترافي بفضلهم ، والله أسأل أن يلهمنا الصواب . ويهدينا
سواء السبيل .

الفهرس

الصفحة	
٣	الإهداء
٤	مقدمة الطبعة الاولى
١٠	مقدمة الطبعة الثانية
١٦	فصل الوفاء
١٧	القصة العالمية - المهادي والسيدي
٥٧	بتر قدم صديقه وفاء بمهده - الحثري والتجفيف
٩٢	وفاؤه بالعهد اضطره ان يقتل أخاه - نهار وصالح الاحمدى
٩٨	وفاء وتضحية بالمال والجاء والاهل - عجمي السعدون وكو كس
١٠٦	من اروغ امثلة الوفاء بالعهد - رفاع بن ركب وجذيل بن لغيصم
١١١	فصل الأمانة
١١٤	ضحى بماله دون كرامة رفاقه - عايد التميمي وابن شتيوي
١١٧	وفاء وأمانة - صالح المجراد
١٢٠	أمانة ورباطة جأش - التميمي والعسافي
١٢٣	اعادة اللقطة الى ورثة الميت (على العبيد والحاج الايراني)
١٢٥	أمانة متناهية - ابن جليدان وابن لویشان
١٢٩	أمانة وورع - عقلا بن شبيب
١٣١	سلم الأمانة لأعدائه - الشباطي والعريفي
١٣٣	ضحى بماله دون كرامته - عبد الرحمن بن محمد آل الشيخ

- ١٣٩ - اجرة الأجير - فرهود بن هنداء
 ١٤٢ - قاتل الله الطمع - سلمان الصل
 ١٤٤ - امانة بلغ اجلها قرناً - عبد العزيز المحدث والشعيلي
 ١٤٥ - من مصادفات الحديث - كليب الدمشي والسبيعي
 ١٥٠ - فائدة لم نسع اليها - ابن خليف والهندي
 ١٥٨ - رب صدقة خير من ميعاد - ابن نصار ومحمد الدمشي
 ١٦٠ - ضالة وجدتها مؤخرأ - ابن رويشد وابن ناجي

١٦١ فصل العفو

- ١٦٣ - بطل يعفو عن بطل - ابن طوالة والعواجي
 ١٧٢ - عفو متبادل - الذهبي والعجاج
 ١٧٤ - يعفو عن من اراد ان يغتاله - عبدالله بن رشيد وابو هادي
 ١٨٣ - عفو واءاء وشمم - ابن جشعم وابن عجب
 ١٨٧ - يعفو وهو باشد الغضب - خلف المفرح
 ١٩١ - يعفو عن قاتل شقيقه - مقعد الدهينة وابن عمه
 ١٩٦ - اكرام بعد عفو - عقلا بن غمور وصاحبه
 ١٩٨ - يعفو عن قاتل ابيه - مذهان بن غافل والموود

٢٠٢ فصل في عفة نساء العرب

- ٢٠٢ - كنعان الطيار وابنة ابن طوالة
 ٢٣٨ - مظهر رجل في حقيقة انثى - ابن ضيعان وغترة
 ٢٤٢ - نكاح بالقوة يتبعه عفو وتسامح - غريب بن معقل وممشوقته
 ٢٤٩ - الحب لا يعقل ولا يرحم - العفري وممشوقها هطيل
 ٢٦٤ - قلب فارس في جسد فتاة - طخة ابنة ابن عزيز وابن قشعم
 ٢٩٦ - نهاية الجزء الاول